





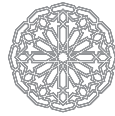
دليل المفكر إلى الإسلام

من خلال اثنتي عشرة آية من القرآن



دليل المفكر إلى الإسلام

من خلال اثنتي عشرة آية من القرآن



صَاحِبُ السُّمُوِّ الْمَلَكِيِّ

الْأَمِيرُ غَازِي بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ طَلال

ترجم الشعر

الشيخ محمد اليعقوبي



دليل المفكر إلى الإسلام
من خلال اثنتي عشرة آية من القرآن

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني / ٢٠١٨
حقوق الطبع محفوظة

طبع من قبل رطب

ISBN (soft cover): 978-9957-8727-5-5
ISBN (ebook): 978-9957-8727-6-2

لا يجوز إعادة إنتاج أو استنساخ أو نقل أي من المواد التي يحتويها هذا الكتاب كلياً أو جزئياً
بأي شكل وبأية وسيلة دون الحصول على إذن خطي من المؤلف مع الالتزام الكامل بالشروط
والأحكام المتعلقة بحقوق الملكية الفكرية وفقاً للقوانين والاتفاقيات الدولية ذات الصلة

المملكة الأردنية الهاشمية

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

الفهرسُ التفصيلي للكتاب



١١.....	تقديم صاحب الجلالة الملك عبد الله الثاني ابن الحسين المعظم
١٥.....	عن المؤلف
١٦.....	تنويه وشكر
١٧.....	مقدمة المؤلف
٢١.....	الفصل الأول: ما هو الدين؟
٢٣.....	ماذا تعني كلمة «دين»؟
٢٤.....	لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟
٢٥.....	الفصل الثاني: ما هو الإسلام؟
٢٦.....	معنى كلمة «الإسلام»
٢٧.....	الإسلام باعتباره حضارةً
٣٢.....	الإسلام ديناً
٣٥.....	أسرار شعائر الإسلام
٤١.....	لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟
٤٥.....	الفصل الثالث: من هو ربك؟
٤٦.....	الرَّحمة
٤٨.....	الحب
٥٣.....	لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟
٥٩.....	الفصل الرابع: لماذا خَلَقَ اللهُ ﷻ النَّاسَ؟
٦١.....	الرفق بالآخرين
٦٣.....	لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟

٦٥	الفصل الخامس: ما هي الجنة وما هي النار؟
٦٥	ما هي الجنة والنار؟
٧٠	لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟
٧٣	الفصل السادس: ما هو القرآن؟
٧٣	القرآن وحي من الله ﷻ
٧٥	اللغة العربية
٧٩	لغة القرآن العربية
٨٦	العقبات في قراءة القرآن
٩٢	مواضيع القرآن الكريم
٩٣	القرآن كمرآة
٩٥	أهميّة القرآن الكريم
٩٧	تأثير القرآن في الفكر الإسلامي
١٠٠	تفسير القرآن الكريم
١٠٨	حفظ القرآن الكريم
١١٢	لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟
١١٩	الفصل السابع: مَنْ هو سيّدنا مُحَمَّد ﷺ؟
١١٩	من هو سيّدنا مُحَمَّد ﷺ بالنسبة للمسلمين؟
١٢٠	الفضائل الإنسانية
١٢٤	الكمال الروحي
١٢٤	مهمّة سيّدنا مُحَمَّد ﷺ
١٢٨	محبة النّبي ﷺ
١٢٩	أقوال النّبي ﷺ
١٣٣	الافتداء بالنّبي ﷺ
١٣٤	لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟
١٣٧	الفصل الثامن: ما هو القلب؟
١٣٧	ما هو الإنسان؟
١٣٩	ما هو القلب؟
١٤١	المعرفة الذاتيّة

١٤٣		صدأ القلوب
١٤٣		جلاء صدأ القلوب
١٤٧		لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟
١٥١		الفصل التاسع: ما هي الحياة الدّنيا؟
١٥٧		لم يجب أن نعرف هذا كله؟
١٥٩		الفصل العاشر: ما هي الشّريعة؟
١٦٠		معنى كلمة «شريعة»
١٦١		الشّريعة كنظام أخلاقي
١٦٣		غاية الشّريعة
١٦٦		مذاهب الشّريع الإسلامي
١٧٧		ابن تيّبة وبداية الحركة المناهضة للمذاهب الأصوليّة
١٨٥		المنطق
١٩٠		اللامذهبيّة حتى الوقت الحاضر
٢٠٠		المذاهب الشيعيّة
٢٠٣		المذاهب الأخرى
٢٠٤		عقوبة الموت والعقوبات الجسديّة
٢١٠		تيسير الأمور
٢١١		لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟
٢١٥		الفصل الحادي عشر: ما هو الجهاد؟
٢١٦		معنى مصطلح الجهاد
٢١٧		نوعا الجهاد: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر
٢١٨		الجهاد الأكبر بحدّ ذاته
٢٢٠		الجهاد الأصغر بحدّ ذاته
٢٢١		الأسباب الكامنة وراء الجهاد الأصغر وشروطه الضروريّة
٢٢٣		هدف الجهاد الأصغر
٢٢٤		هل الجهاد الأصغر هجوميّ أم دفاعيّ؟
٢٢٧		النّية وراء الجهاد الأصغر
٢٢٩		قواعد السّلوک خلال الجهاد الأصغر



العلاقات مع غير المسلمين خارج الجهاد الأصغر	٢٣٠
لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟	٢٣٣
الفصل الثاني عشر: ما هو الحكم؟	٢٣٥
أهمية العدل	٢٣٥
فضيلة العدل	٢٣٧
ما هو العدل؟	٢٣٨
بيئة العدل	٢٤١
ما هو الحكم؟	٢٤٥
الإجماع الشَّعبي ومشروعية الحكم	٢٤٦
الدولة المدنية	٢٥٣
المواطنة	٢٥٤
لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟	٢٥٦
استدراك: ما هي السَّعادة؟	٢٥٩
السَّعادة أم الشَّقَاء؟	٢٥٩
تعريف السَّعادة	٢٦٠
المتعة	٢٦١
الْفَرَح	٢٦٢
الرِّضَا	٢٦٣
السَّعادة	٢٦٥
لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟	٢٧٠
الملحق الأول: خيمة الإسلام الكبيرة	٢٧٣
أنواع المسلمين المختلفة	٢٧٣
رسالة عَمَّان	٢٧٨
فائدة محاور رسالة عَمَّان الثلاثة	٢٨١
الملحق الثاني: أسئلة ثلاثة لكل مسلم	٢٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

تقديم



الملك عبد الله الثاني ابن الحسين المعظم

إِنَّ الْعَالَمَ الْيَوْمَ يَقِفُ عَلَى مُفْتَرَقِ طَرِيقٍ. فقد قامت أقليَّةٌ ضئيلةٌ متطرِّفةٌ من المسلمين بمحاولة لاختطاف دين الإسلام الذي يُشكِّلُ أتباعه نحو رُبُعِ سُكَّانِ الأرض، وهي تقوِّدُه نحو صِراعٍ مستمرٍّ معَ سائرِ دول العالم. إنَّهم يفعلونَ هذا من خلالِ ثلاثِ وسائلٍ؛ أولاً: من خلالِ تشويهِ تعاليمِ الإسلامِ، وتقويضِ بنائِهِ، بِسوءِ الفهمِ الذي يقوِّدُ إلى الغَلَطِ في تأويلِ النُّصوصِ. ثانياً: من خلالِ الهجومِ على المسلمينِ بوحشيَّةٍ، في سبيلِ إرهابِهِم، لكي يدفعوهم إلى الانضمامِ إليهم. ثالثاً: من خلالِ إرهابِ غير المسلمين، وقتلِ أكبرِ عددٍ ممكنٍ منهم على الملأ، وبأشدَّ ما يمكنهم من قسوةٍ، من أجلِ إثارةِ ردودِ أفعالٍ تستهدفُ جميعَ المسلمين أو تَصِمُّهُمُ بالإرهاب، لكي ينضمَّ إلى هذه الأُقليَّةِ من المسلمين، ولكنهم بعونِ الله ﷻ لن ينجحوا في تحقيقِ ذلك.



إنَّ أكثرَ شيءٍ يحتاجُ إليه المسلمون وغيرُ المسلمين اليوم على حدٍّ سواءٍ، هو فهمُ أوضحٍ للإسلام كما كان دائماً، وكما ينبغي أن يكون. ثمَّ يحتاجون بعد ذلك إلى فهمِ الكيفيّةِ التي يتمُّ بها تشويهُ الإسلامِ وإساءةُ تطبيقه، ولماذا ينتشرُ هذا التشويهُ وسوءُ التطبيق. إنَّ هذا الكتاب: «دليل المفكر إلى الإسلام» يهدف إلى شرح ذلك كلّهُ، وإيضاحه.

مؤلّفُ الكتابِ صاحبُ السُّمُوِّ المَلَكِيّ الأميرُ غازي بنُ مُحَمَّدٍ: هو ابنُ عمِّ مباشرٍ لي، وهو عالمٌ أيضاً، ويعملُ كبيرَ المُستشارين لي للشؤونِ الدِّينيّةِ والثّقافيّةِ. وأعتقدُ أنَّ غازي فريدٌ في حيازته لشهادة دكتوراه من كُبرى الجامعات الإسلاميّة في العالم، وهي جامعة الأزهر الشريف، مع شهادة دكتوراه أخرى من إحدى أعرق جامعات العالم، وهي جامعة كمبريدج، في بريطانيا العظمى. ولدى غازي أيضاً تجربةٌ عمليّةٌ طويلةٌ في الشؤونِ الإسلاميّةِ وشؤونِ الحوارِ بينَ الأديانِ في الأردنّ وعلى المستوى الدُّوليّ. وفي الجانب الإسلاميّ، كان له إسهامٌ كبير، وكان نشيطاً بشكلٍ شخصيّ في مشروعات كبرى ناجحة، منها: رِسَالَةُ عَمَّانَ ٢٠٠٤م، ومحاورها الثلاثة على الوجه الأخصّ؛ موقعُ التّفسيرِ: (Altafsir.com)، وهو أوسعُ موقعٍ إلكترونيّ لتفسير القرآن الكريم؛ موقعُ الخطوطِ الإسلاميّةِ المجانيّ: (Freeislamiccalligraphy.com)؛ جامِعَةُ العُلُومِ الإسلاميّةِ العالِمِيّةِ في الأردنّ؛ وكان له في جانب الحوارِ دورٌ هامٌّ في الكشف عن موقعِ معموديّةِ (مَغطسِ) سيّدنا المسيح عيسى عليه السلام على نهر الأردنّ. وفي مبادرة (كَلِمَةِ سَوَاء) عام ٢٠٠٧م. كما أنّه قدّمَ مساعدةً ثمينةً لإقامة أسبوعِ الأممِ المتّحدة: الوثائم العالميّ بين الأديان عام ٢٠١٠م.

لقد كتب جوناثان سويفت سنة ١٧٠٦ م في كتابه: «أفكارٌ حولَ مواضيعَ شتّى»: «لدينا ما يكفي من الدّين لكي يجعلنا نكره بعضنا، ولكن ليس لدينا ما يكفي منه لكي يحبّ بعضنا بعضاً». ومن المحزن أن هذا يبدو حقاً اليوم، ولذلك فإنّي أرجو أن يساعد الكتاب إلى حدّ ما في إصلاح هذا الأمر.

عبد الله
عَبْدُ اللَّهِ الثَّانِي ابْنُ الْحُسَيْنِ



عن المؤلف



صَاحِبُ السُّمُوِّ الْمَلَكِيِّ الْأَمِيرُ غَازِي بْنُ مُحَمَّدٍ بِنِ طَلَالٍ مِنَ الْأُرْدُنِّ؛ وَلَدَ سَنَةَ ١٩٦٦ مِيلَادِيَّةً؛ تَلَقَّى تَعْلِيمَهُ فِي مَدْرَسَةِ هَارُو (Harrow) فِي الْمَمْلَكَةِ الْمُتَّحِدَةِ؛ نَالِ شَهَادَةَ الْبِكَالُورِيُوسِ بِأَعْلَى امْتِيَازٍ مِنْ جَامِعَةِ بَرْنِسْتُون (Princeton) فِي نِيُوجَرْسِي بِالْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ؛ حَصَلَ عَلَى شَهَادَةِ الدَّكْتُورَاهِ الْأُولَى مِنْ كَلِيَّةِ تَرِينِيتِي (Trinity College) فِي جَامِعَةِ كَمْبَرِيدِج فِي الْمَمْلَكَةِ الْمُتَّحِدَةِ؛ نَالِ شَهَادَةَ الدَّكْتُورَاهِ الثَّانِيَةِ مِنْ جَامِعَةِ الْأَزْهَرِ بِالْقَاهِرَةِ، فِي مِصْرَ؛ وَهُوَ أَسْتَاذٌ فِي الْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ وَمُؤَلِّفُ كِتَابٍ: «الْحُبُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ» الَّذِي لَقِيَ تَرْحِيْبًا وَرَوَاجًا وَاسِعًا حَوْلَ الْعَالَمِ، وَصَدَرَتْ مِنْهُ عَشْرُ طَبْعَاتٍ، وَتُرْجِمَ إِلَى عِدَدٍ مِنَ اللُّغَاتِ؛ وَيَشْغُلُ مَنَصَبَ كَبِيرِ الْمُسْتَشَارِينَ فِي الشُّؤُونِ الدِّينِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ لِمُصْحَبِ الْجَلَالَةِ الْمَلِكِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّانِي بْنِ الْحُسَيْنِ الْمُعْظَمِ، مَلِكِ الْمَمْلَكَةِ الْأُرْدُنِّيَّةِ الْهَاشِمِيَّةِ.



تنويهٌ وشُكر

لقد قرأ هذا الكتاب عدد من العلماء المتميّزين وعدد من المدقّقين. وأودّ هنا أن أتقدّم إليهم جميعاً بالشّكر داعياً الله ﷻ أن يجزيهم خير الجزاء. ومن نافلة القول التأكيد على أنّ أي خطأ قد يظهر في الكتاب هو مني، وأسأل الله ﷻ أن يغفره لي.

مقدّمة المؤلّف



الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد رسل الله أجمعين، نبينا العربي الهاشمي الأمين وآله وصحبه أجمعين، وبعد؛
يتوجّب على المسلمين في هذه الأيام بشكل دائم أن يوضحوا ما لا يُمْتُ إلى الإسلام بصلة. لقد أساءت قلة قليلة من المسلمين فهم الإسلام بشكل جوهريّ، وتقوم بتمثيله بشكل مسيء وخطير. وبسبب أعمالهم، فإنّ فئة قليلة من غير المسلمين تعرف حقيقة الفرق بين الإسلام كما هو وكما كان دائماً، وكما هو في القرآن، وبين التّحريفات المشوّهة للإسلام اليوم. وما يأتي في هذا الكتاب هو محاولة إيجابيّة لشرح الإسلام كما هو في حقيقة الأمر، وكما كان دائماً، وبيان ما ليس من الإسلام.

لقد تمّ اختيار اثنتي عشرة آية في اثني عشر فصلاً، لتكون نقاط انطلاقٍ لاثنتي عشرة قضية مهمّة. وقد عُرضت لوحات لهذه الآيات كتبت بالخط العربيّ، وهي معروضة مجاناً على (www.freeislamiccalligraphy.com). لقد تمّ عرض هذه اللّوحات في منتصف الكتاب لتقديم نموذج مسبق عن الأثر البصريّ والعاطفيّ لكل آية على المسلم.



وهذه الآيات الاثنتا عشرة ليست أكثر آيات القرآن الكريم شهرةً أو تداولاً، إذ إنّ هناك الكثير من الكتب التي تركّز على آيات الكتاب الكريم الأكثر شهرةً، ولكن ربما ساعد التركيز على آيات أقلّ شهرةً على مناقشة المسائل تحت ضوء جديد. وفي النهاية، فإنّ كلّ آية في القرآن الكريم ثابتة عن الله ﷻ ومعتمدة قطعاً بلا شكّ.

لقد تمّ تأليف هذا الكتاب بطريقة تعتمد استقلال كلّ فصل عمّا قبله وما بعده، لتمكين القراء من اختيار الفصل الذي تهمهم قراءته، بالترتيب الذي يحبّون، وهي الطريقة التي يقرأ بها الكتب كثيرٌ من الناس اليوم. ومعظم هذه الفصول مختصر بشكل عام، باستثناء فصل القرآن الكريم، وفصل الشريعة الإسلامية، إذ يعالجان الكثير من الأخطاء في الفهم. ومن الواضح أنّ هناك العديد من المسائل التي كان يمكن أن تُذكر، ولكن ذلك سيجعل الكتاب مطوّلاً. ورغم أنّ الكتاب يتناول بعض القضايا المهمة وربّما المعقّدة أحياناً، فإنّ اللّغة التي كتب بها غير معقّدة، ولذلك عمّدنا أن لا نُثقله بالخواشي والمراجع.

وفي الكتاب الكثير من الشواهد من القرآن الكريم، وقد كتبت بخط مميّز، وعدد من أحاديث سيّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وشواهد من الشعر، وهو أمر معتاد في الكتابات الإسلامية، فقد قال أرسطو في كتاب الشعر (١٤٥١ ب١): «الشعر البديع أكثر تعلّقاً بالعلم وأكثر جدّية من التاريخ، لأنّ الشعر يميل إلى تقديم حقائق عامّة، بينما يقدّم التاريخ وقائع معيّنة».

إنّ الهدف من هذا الكتاب هو أن يكون مدخلاً تعليمياً عن الإسلام، أو دليلاً مختصراً لهذا الدين، وتميّز الصّورة التي يبدو عليها، من الصّور الزائفة



له، ليتنفع به كلٌّ مَنْ لديه العزم على إجابة قليل من الفكر فيما حوله. إنَّ عدم
الرَّغبة في التّفكير في الأشياء هو القاسم المشترك الذي يجمع المسلمين الذين
يُسيئون فهم الإسلام مع غير المسلمين الذين يشوّهونه. ولهذا فقد وضع لهذا
الكتاب هذا العنوان: «دليلُ المُفكِّر إلى الإسلام».





الفصل الأول

ما هو الدين؟

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾

[الأعلى، ٨٧: ١٨]



لم تتمكّن البشريّة أن تحيا بدون دين على الإطلاق. ولا ينكر أن بعض النّاس يتجاهلون الدّين خلال حياتهم. بل إنّهم وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد، وللمرة الأولى ربما في التّاريخ، أصبحت بعض الأقطار ملحدة، وأصبحت أقطار أخرى علمانيّة. ولا ينكر كذلك أن بعض النّاس يتمنون لو لم يكن هناك دين. وخمسة بالمائة من البشر اليوم هم ملاحدة، ونحو عشرة بالمائة يعلنون أنّهم غير متديّنين. ويصحّ القول كذلك بأنّ الدّين أو الاستعمال الخاطيء للدّين كان سبباً للكثير من المعاناة. غير أنّه من الصّواب أيضاً القول بأنّ أنظمة قامت على الإلحاد مثل الشيوعيّة والنّازيّة كانت عندما تولّت الحكم سبباً لقدر أكبر من المعاناة. وجعلت من فلسفاتهما الإلحاديّة أدياناً. غير أنّه من الواضح أنّ الأغليبيّة الواسعة من البشريّة تحبّ الدّين وقد كانت دائماً هكذا. وعلى أيّة حال، فإنّ ٨٥٪ من سكّان العالم الذين يبلغون اليوم (أي سنة ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م) ٤, ٧ مليارات إنسان يتمنون إلى أحد الأديان.



وأوسع الأديان في العالم اليوم، كما كان عليه الأمر في الألف سنة الأخيرة، هما: المسيحية والإسلام. إذ يشكّل المسيحيون نحو ثلث سكّان العالم، فيما يشكّل المسلمون نحو الربع. ويبلغ المجموع نحو ٥٥٪ من سكّان العالم. فالدين لم يختلف على الإطلاق، رغم التوصل إلى العلوم الحديثة والتقنيات خلال المائتي سنة الأخيرة. ويبدو الدين اليوم كما كان من قبل مؤثراً قوياً في تحديد شكل التاريخ. لا بدّ أن يكون الدين جزءاً من الطّبيعة الإنسانيّة، ومن الواضح أنّ الحاجة للدين متأصلة وعميقة، أو على الأقلّ الحاجة إلى الإيمان المطلق، ومن الواضح أنّه يستجيب للحاجات الإنسانيّة الملحة، كما كتبت إيميلي برونتي (١٨١٨ - ١٨٤٨ م) في قصيدتها: «لا روحُ جبانة هي لي»:

ليس منّي أيُّ روحٍ	إنّ دهاهُ الخطْبُ يَجْزَعُ
ليس مني أيُّ طَيْرٍ	في الأعاصيرِ تَوَجَّعُ
إنّني أشْهَدُ مَجْدًا	مِنْ جَنانِ الخُلْدِ يَسْطَعُ
وأرى نُورًا من الإيمانِ	في الأنحاءِ يَلْمَعُ
كُلَّ خَوْفٍ وَارْتِياعٍ	عن فُؤادي قامَ يَدْفَعُ

وعلى أية حال، فإنّ الدين حقيقة ثابتة في الحياة، وحقيقة ثابتة في التاريخ، وحيث إنّهُ لن يختفي في المستقبل المنظور. فإنّ من المهمّ لكلّ أحد في العالم أن يعرف حقيقته وجوهره. ولذلك فإننا سنتأمّل فيما يأتي نظرة الإسلام إلى الدين، أي إلى نفسه، بالاعتماد على القرآن الكريم والحديث الشريف. وبما أنّ الإسلام هو آخر أديان الأرض، فإنّ العالم كلّهُ لذلك، من المسلمين وغير المسلمين، يحتاج إلى بيان له يكون مفصّلاً ودقيقاً.



ماذا تعني كلمة «دين»؟

إنَّ أصول معاني الكلمة العربيّة «دين» هو التّواضع والحدّ والطّاعة. وهي متّصلة بكلمة «دِين» بمعنى القرض. والمقصود هنا أنّه ينبغي لنا أن نتواضع، ونضبط أنفسنا لأنّنا تحت سلطان الله ﷻ. زد على ذلك أننا مدينون لله ﷻ، لأنّه مَنْ علينا بالإيجاد، ولذلك فإنّه من غير الغريب أن يكون الدّين هو الرّابط الذي يربطنا بالله ﷻ.

إنّ الكلمة الإنجليزيّة للدّين (religion) هي كلمة يجادل في أصلها العديد من الباحثين. ولكن أصلها على آية حال جاء من الكلمة اللاتينيّة (re-ligio) وتعني: إعادة العَقْدِ أو: إعادة الرّبط. ومن هنا جاءت العلاقة بين الإنسان والسّماء. ويحمل هذا في طيّاته رابطة تصلنا أو تعيد ربطنا بالله ﷻ. وقد ذكر الله ﷻ في القرآن الكريم أنّ هناك رسالة خالدة في دين التّوحيد، قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٨٩﴾ الْأَعْلَى،

٨٧: ١٨-١٩.]

وصحف سيّدنا موسى ﷺ هي التّوراة، أي الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم، الذي يشكّل بحدّ ذاته القسم الأوّل من الكتاب المقدّس. وصحف سيّدنا إبراهيم ﷺ فقدت ولم تصل إلينا، وربما ضُمنت في التّوراة. وعلى آية حال، فإنّنا نعلم أنّها تضمّنت الرّسالة ذاتها.

ماذا كانت تلك الرّسالة؟ لقد وصفها الله ﷻ في الآيات التي سيقّت لها الآية المذكورة فقال:



﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى، ٨٧: ١٤-١٩].

فجوهر رسالة أديان التوحيد يتألف من: (١) الإيمان بالله الواحد. (٢) الإيمان بالآخرة، ومن ثم بالحساب. (٣) الصلاة وذكر الله ﷻ. (٤) تهذيب النفس من الأنانية والردائل، والتحلي بالفضائل. ويمكن للمرء أن يقول: إنها تتألف من عقيدة، ومنهاج عمل أو تطبيق.



لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟

يجب أن نعرف هذا كله لأنه يوضح أن الغرض من الدين في الأساس هو مساعدة الإنسان أخلاقياً وروحياً، إنَّ المقصود منه أن يكون عوناً للإنسان في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى، إنَّ المقصود منه أن يكون مصدر قوة للخير. ويجب أن نعرف هذا أيضاً لأنه يرينا أن الدين برنامج متكامل للحياة الإنسانية، وفيه تصوّر للوقائع، وخطط للعمل، إنه يدخل في جميع تفاصيل الحياة. وهذا البرنامج قويّ إلى حدّ النّهاية، وحيثما وجدت قوة كبرى يوجد خطر كبير. وبعبارة أخرى: فإنّ من المفترض أن يكون الدين قوة كبرى للخير، ولكنه وللأسبب نفسه، يمكن أن يكون خطراً إذا أُسيء فهمه واستعماله. ولذلك فإنّه ليس هناك شيء أكثر أهمية للإنسان من الفهم الصحيح للدين.



الفصل الثاني

ما هو الإسلام؟

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

[طه، ٢٠: ١٤]



إِنَّ لكلمة «إسلام» معاني متعددة في اللغة، وقد تحبَّبَ بعض النَّاس في تحديد المقصود منها؛ فهناك؛ أولاً: المعنى الحرفي لكلمة «إسلام». ثانياً: هناك «دين الإسلام»، كما هو في الأصل طبقاً للقرآن والسنة، وهو ما يؤمن به المسلمون وما ينبغي لهم أن يقوموا به، إنه ما أوحاه الله ﷻ، وما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام أو فعله (أو أقرّه). ثالثاً: هناك الحضارة والثقافة التي هي نتاج دين الإسلام عبر العصور، وهي أقوال المسلمين وأعمالهم إلى هذا العصر سواء كانت صواباً أم خطأً. ومن المهم التمييز بين المعنيين الثاني والثالث للكلمة، وإلا فإنَّ دين الإسلام يُلام من قِبَل غير المسلمين على أشياء يشجُّبها، والعدد القليل من المسلمين المتطرفين يختطف سمعة الأكثرية.



معنى كلمة «الإسلام»

معنى كلمة الإسلام بالعربية هو الاستسلام والخضوع والانقياد والتفويض. وقد تمّ التعبير عن هذا المعنى بجلاء في كلام الله ﷻ حول سيّدنا إبراهيم ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة، ٢: ١٣١].

وترجع كلمة «إسلام» إلى جذر من ثلاثة أحرف هي: (س ل م) وتعني في الأصل شيئين: أحدهما السلامة من العيب، ومن هنا جاء معنى الأمن والسلم والنّجاة. الثاني: السّلام. فهذان المعنيان للجذر متأصلان في معنى دين الإسلام.

١- لأنّ النّبي ﷺ أشار إلى المعنى الأوّل وهو السّلامة في تعريفه لِمَنْ هو المسلم حقّاً، إذ قال: «المسلم من سلّم النّاس من لسانه ويده» (أخرجه النّسائي وابن ماجه والإمام أحمد).

٢- المعنى الثاني للسّلام ظاهر في خصائص تحيّة الإسلام: «السّلام عليكم». قال الله ﷻ في القرآن الكريم:

﴿... فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ...﴾ [النور، ٢٤: ٦١].

وفي الحقيقة فإنّ هذه التّحيّة في القرآن لم تكن تحيّة المؤمنين فحسب كما في (النّساء، ٤: ٩٤) وغيرها، بل تحيّة الأنبياء قبل الإسلام كما في (مريم، ١٩: ١٥) وغيرها، وتحيّة الملائكة كما في (النحل، ١٦: ٣٢) وتحيّة من الله ﷻ كما في (يس، ٣٦: ٥٨). إنّها التّحيّة التي تحمل في طيّاتها رحمة الله ﷻ إذ يقول تعالى في القرآن الكريم:



﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام، ٦: ٥٤].

والسَّلام هو اسم من أسماء الله ﷻ في القرآن (الحشر، ٥٩: ٢٣). ومن أسماء الجنة في القرآن: «دار السَّلام» كما في (يونس، ١٠: ٢٥) وغيرها. والمعنى المتضمن في المسلم هنا هو أنه من سلَّم نفسه لله ﷻ ووجد السَّلام أو السَّكينة في نفسه.

وينبغي التنبيه إلى أن كلمة «إسلام» مختلفة عن كلمة «استسلام» التي تعني التنازل والرَّضوخ والانكسار. الدَّلالة اللغويَّة لكلمة «إسلام» هي أنَّ المسلم - أي الشَّخص الذي يعيش الإسلام - يتنازل مختارًا عن أنانيَّته أو إرادته لله ﷻ، فيصبح أولًا سالمًا وآمنًا، ويصبح الآخرون آمنين منه. وثانيًا: يجد السَّكينة في داخله. وهو - أو هي - لا يفقد نفسه أو اختياره، وإنما على العكس من ذلك يَعْرِف نفسه.

الإسلام باعتباره حضارةً

وبالانتقال إلى تاريخ الإسلام وحضارته، فإنَّ من المعلوم أنَّ الإسلام بدأ نحو سنة ٦١٠ ميلادية في مكَّة، وهي مدينة في غرب الجزيرة العربيَّة. حيث بدأ عربي شريف من نسل إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، وهو في الأربعين من عمره بينما كان منفردًا يتعبَّد في خلوة تلقَّى الوحي من الله ﷻ. وقد حاول تبليغ الرِّسالة، ولكن معظم قومه الذين كانوا عبَّاد أصنام عارضوه (في البداية على



الأقل). وبعد ثلاث عشرة سنة من الاضطهاد في مكة هاجر ﷺ إلى مدينة يثرب في الشمال وهي التي سميت من بعد المدينة، حيث لقي الترحيب. ويعرف هذا الحدث «بالهجرة»، وهو معلّم لبداية السنة في التقويم الإسلامي. وفي المدينة أسّس الرسول ﷺ مع المؤمنين من أهل المدينة - وهم الأنصار - والمهاجرين من مكة مجتمعاً جديداً. وقد لاحقه أهل مكة وحلفاؤهم وشنّوا عليه الحرب. وحين توفي بعد عشر سنوات كانت شبه الجزيرة العربية قد دخلت في الإسلام. ويُعرف ما تلقّاه من الوحي بالقرآن. ذلك الشخص هو سيّدنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ. ولم يكن لأي شخص منفرداً أثرٌ على تاريخ العالم كما كان له.

وقد عُرف الدّين الذي جاء به سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ «بالإسلام». وقد شكّل واحدةً من أعظم الحضارات في التاريخ. فخلال مائة سنة اتّسعت لتضمّ معظم الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا وأجزاء من أوروبا. وقد بقيت هذه المناطق سواء اتّسعت أو تراجعت مناطق إسلاميّة. ويشكّل المسلمون اليوم ربع سكّان الأرض، والإسلام هو ثاني أكبر دين في التاريخ، ويعدّ الأسرع انتشاراً اليوم.

وحتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية تأثير النهضة الصناعيّة الأوروبيّة، كان القرآن الأساس الذي صبغ قلب الحضارة الإسلاميّة. كانت أوّل كلمة نزلت من القرآن هي: ﴿اقْرَأْ...﴾ [العلق، ٩٦: ١]. ولذلك أصبحت الحضارة الإسلاميّة حضارة طلبٍ للعلم. ولم يكن طلب العلم مقتصرًا على العلوم الشرعيّة. فقد حفظت الحضارة الإسلاميّة وترجمت وطوّرت العلوم التقليديّة للحضارة اليونانيّة وغيرها. يقول سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ:

«الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ أَيْنَمَا وَجَدَهَا تَقَطَّعَهَا» (أخرجه الترمذي وابن ماجه).
وقد طوّرت الحضارة الإسلامية من خلال نظرة قرآنية كونية شاملة أشكالا
أخرى من المعرفة اعتُبرت عملية أو نافعة للبشرية. وقد شملت هذه المعارف
الفلك والحساب والجبر (Algebra) - وقد دخلت هذه الكلمة العربية إلى
اللغات الأجنبية - والطب، والصّيدلة، والبصريات، والزراعة، والأحياء،
والجغرافيا، والكيمياء، والموسيقى، والشعر، وعلم الاجتماع، وعلم النفس،
والتاريخ، والفقه، والعديد من العلوم الأخرى. يقول الله ﷻ:

﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا
الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٣٩].

ومن أجل المحافظة على ترتيب القرآن وفهم معانيه، فقد طوّرت الحضارة
الإسلامية جملة من العلوم مثل: علم اللغة، والاشتقاق، وتأويل النصوص،
والبلاغة، والمنطق، والتّحوي، والضبط، والأصوات، والأنغام، والإيقاع
(harmony)، والتّجويد، والكتابة، والخطّ، والمخطوطات، وصناعة الكتاب،
والرّسم والتّلوين. وكانت نتيجة ذلك كنوزا لا تقدّر بثمن، في ملك الكثير
من أكبر متاحف العالم. وقد تطوّر الفنّ في الحضارة الإسلامية كذلك حول
القرآن. وهناك بشكل أساسي نوعان من الفنّ في الإسلام: الخطّ، والعمارة.
وقد طوّر الأوّل لإسكان القرآن في أوراق يكتب فيها بشكل بديع. بينما طوّر
الثاني لإسكان القرآن في بيوت يتلى فيها القرآن. وبعبارة أخرى، طوّر هذا
الفنّ لبناء المساجد. ومن أجل حفظ أحاديث سيّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ وتمييزها، فقد
تطوّرت علوم التاريخ، وتوثيق الرواية، والجرح والتّعديل، وعلم الرّجال.



ولأن القرآن شجّع الحفاظ على النظام العام، ووضع الشرائع، والتجارة، والكتابة للتوثيق، والصحة، والسّخاء، والاقتصاد، والروحانيّات، والحرب للدّفاع، فإن الحضارة الإسلاميّة كانت تعتمد على التّرتيب والانضباط والتّجارة والتّنظيم والنّظافة (حيث كانت في كلّ مدينة حمّامات عامّة)، وكانت مليئة بالأوقاف الخيريّة، وكانت بسيطة وروحانيّة رغم أنّها كانت ماديّة. ولأنّ المؤمنين كانوا إخوة (وأخوات) في الإيمان (الحجّرات، ٤٩: ١٠)، فإنّ المجتمع الإسلامي لم يكن يعتمد على نظام الطّبقات. ولأنّ جميع المسلمين كانوا نظريّاً أمّة واحدة (انظر إلى البقرة، ٢: ١٤٣)، فقد كان هناك للمسلمين (إلى سنة ١٩٢٤م للمسلمين السّنة) قيادة عالميّة هي الخلافة، رغم أنّها كانت رمزيّة أو متنازعا عليها أحياناً. ولأنّ المسلمين كانوا يسافرون إلى الحجّ إلى مكّة المكرّمة، فقد كان هناك كثير من التنقل والهجرة عبر العالم الإسلاميّ. وأخيراً، ولأنّ لغة الحضارة الإسلاميّة كانت العربيّة، باعتبارها لساناً مشتركاً، فقد سهّل ذلك التّواصل داخل البلاد حتى النائية منها، (عبر الحماّم الزّاجل ومحطّات البريد البريّة والبحريّة). وزبدة القول إنّ الحضارة الإسلاميّة كانت حضارة علم ونظام وتوازن واستقرار واطمئنان.

وبعد اجتياح نابليون للشرق الأوسط سنة ١٧٩٨م ميلاديّة وخلال عصر الاستعمار من بعد، تغيّرت الحضارة الإسلاميّة المعروفة إلى الأبد، بل إنّ العالم كلّّه قد تغيّر إلى الأبد. لقد تقدّمت جيوش نابليون عبر العالم بسرعة تشبه تقدّم الإسكندر المقدونيّ قبل ألفي عام قبله. ولكن المائتي سنة اللاحقة شهدت تغيّرات في كلّ مجال أكثر ممّا حدث خلال ستة آلاف سنة من تاريخ الحضارة الإنسانيّة. وقد شملت هذه التغيّرات: الكهرباء، التّصوير، البرق،

القطارات، ومصانع السكك الحديدية، الآلات، والإنتاج الواسع، والسفن البخارية، والأسلحة الثقيلة، والبنادق الآلية، والراديو، والهاتف، والأفلام، والرئي (التلفزيون)، والسيارات، والطائرات، والقنابل الذرية، والصواريخ، والغواصات، واكتشافات مذهلة في كل حقل علمي يمكن تصوّره، خصوصاً في الفيزياء، وإنتاج الطاقة، والزراعة، والطب. وقد توافقت هذه الاختراعات مع نظام للتعليم الحديث وثقافة سياسية علمانية، ورأسمالية عالمية، وثقافة شائعة، ملابس غربية، ومشروبات غازية، والوجبات السريعة، والموسيقى الشعبية (موسيقى البوب)، وأفلام هوليوود، وعوالة الرياضات الغربية. وقد شملت بنهاية القرن العشرين للميلاد: الحواسيب، وحرب الفضاء، والشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، والرجل الآلي، (superconductors) وهندسة البصمة الوراثية، وانتشار العربي في كل مكان، والحواسب الشخصية، والاتصالات الفضائية.

وقد شهدت الخمس عشرة سنة الأولى من القرن الواحد والعشرين: ظهور وسائل الاتصال الاجتماعي، وخصوصاً كتاب الوجوه «فيس بوك»، والمغرّد «تويتر» وقناتك للبث «يوتيوب»، والثقافة العالمية، والانهايار في البيئة، والطائرات بدون طيار، والتقنيات المتقدمة للمفاصل، وأدوات التكنولوجيا التي يمكن ارتداؤها، إلى ما لا يحصى من الأشياء. والمقصود هو أنّه بغض النظر عما يقوله المسلمون أو غير المسلمين، فإن حضارة المسلمين اليوم لم تعد ولا يمكن أن تعود إسلامية بشكل خالص من أصل إسلامي. فالحضارة المعاصرة لم تنشأ بالتدريج من القرآن، ولا تعكس النظرة الإسلامية للعلم النافع. وسواء كان ذلك جيداً أم سيئاً، فإن حضارة المسلمين اليوم بالضرورة



جزء من حضارة وتكنولوجيا عالميّة حديثة. والحضارة الإسلاميّة كانت بالطبع عالميّة دائمة، بمعنى أنّ المسلمين نشروها في جميع أرجاء العالم المعروف آنذاك، وأتجروا وتبادلوا المعرفة مع الجميع، ولكن المسلمين اليوم جزء من حضارة عالميّة، ليست بشكل أساسي من صنعهم.

الإسلام ديناً

لقد عرّف النبي ﷺ الإسلام ديناً لِمَلِكِ الوحي جبريل ﷺ في حديث مشهور يُعَدُّ من أهمّ الأحاديث النبويّة الشريفة يعرف بحديث جبريل، رواه الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب ﷺ فقال:

بينما نحنُ جلوسٌ عند رسولِ الله ﷺ ذاتَ يومٍ، إذ طَلَعَ علينا رجُلٌ شديدُ بياضِ الثَّيابِ، شديدُ سَوادِ الشَّعرِ، لا يُرى عليه أثرُ السَّفرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحدٌ. فجلسَ إلى النبيّ ﷺ وأسندَ ركبتيه إلى ركبتيه ووضعَ كفيه على فخذه وقال: يا مُحَمَّدُ أخبرني عن الإسلام. قال: «الإسلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله، وتُقيمَ الصَّلَاةَ، وتؤتيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رمضانَ، وتَحُجَّ البيتَ إنْ استطعتَ إليه سبيلاً». قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدّقه. ثمَّ قال: أخبرني عن الإيمان. قال: «أنْ تُؤْمِنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقَدَرِ خيرِهَ وشرِّه». قال صدقت. ثمَّ قال: أخبرني عن الإحسان. قال: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك». قال: صدقت. ثمَّ قال: أخبرني عن السَّاعة. قال: «ما المَسْئُولُ عنها بأعلمَ من السَّائل». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «أنْ تَلِدَ الأُمَةُ رَبَّتْها، وأنْ ترى الحُفَاةَ

الرَّعَاةُ الْعَالَةَ رِءَاءِ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». ثم انطلق، فلبثتُ مليًّا، ثم قال: «يا عمر أتدري من السَّائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّه جبريلُ أتاكم يَعْلَمُكُمْ دينكم» (أخرجه مسلم بهذا اللَّفظ، وأخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ مختصر).

وباختصار، فإنَّ في الإسلام ثلاثٌ مستويات أو ثلاثٌ درجات هي: الإسلام والإيمان والإحسان. والإيمان لغة: هو التَّصديق والأمان، واصطلاحًا: عَرَّفَه العلماءُ بأنَّه التَّصديق الجازم بالقلب. والإحسان: هو الاتقان والإفضال والعمل الحَسَن. ولكن تطبيق الإسلام كما هو يعتمد على الأركان الخمسة، يقول النَّبِيُّ ﷺ:

«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» (أخرجه البخاري).

والرَّكن الوحيد الذي لا يخضع لأي شرط هو الشَّهادتان، وهما: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وهما شرط ضروريٌّ للدَّخول في الإسلام، وجميع الأركان الأخرى فرض، لكنها تعتمد على توفّر الصَّحَّة أو المال، أو القدرة على الأداء، حتى إنَّ الصَّلَاةَ يمكن أن تؤدَّى بالإيماء في حقِّ العاجز. ورغم أنَّ هناك العديد من الأحكام الأخرى في الفقه الإسلامي «الشَّريعة» والقرآن الكريم وسنَّة الرسول ﷺ، فإنَّ هذه الأركان الخمسة كافية كأدنى حدٍّ للفرد في حال الضرورة، خاصةً ما إذا كان المرء مخلصًا وصالحًا. وفيما يلي حديث من كلام النَّبِيِّ ﷺ:



عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد،
ثائر الرأس، نسمع دَوِيَّ صوته، ولا نَفَقَهُ ما يقول، حتى دنا، فإذا هو
يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمسُ صلواتٍ في اليوم
والليلة، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطَّوع، قال رسول
الله ﷺ: وصيام رمضان، قال: هل عليَّ غيره؟ قال: لا، إلا أن تطَّوع،
قال: وذكر رسول الله ﷺ الزَّكاة، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن
تطَّوع، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيدُ على هذا ولا أنقصُ،
قال رسول الله ﷺ: أفلحَ إن صدَقَ» (أخرجه البخاري ومسلم).

وللإيمان ستة أركان، هي أن يؤمن مخلصاً بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه
المنزلة، ورسله، واليوم الآخر، والقدر من الله ﷻ. ويختلف الإيمان عن
الإسلام في أن الإسلام عمل والإيمان تصديق، قال الله ﷻ:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات، ٤٩: ١٤]

والإحسان هو الإتقان أو الإفضال، وفي الحقيقة ليست هناك كلمة
إنجليزية تؤدي المعنى المقصود به. وربما كانت أقرب الكلمات إليه في اللغات
الأوروبية (areté) في اليونانية القديمة. إن الجذر الثلاثي لكلمة الإحسان هو
«حسن» التي تعني الجمال. غير أن في العربية كلمتين للجمال هما: الجمال،
والحُسن. وتستعمل كلمة الجمال لوصف نوع واحد من الجمال، بينما تطلق
كلمة الحُسن للدلالة على ما يتحلَّى بأكثر من نوع من أنواع الجمال. وهكذا

يطلق الإحسان على الوجوه المتعددة للجمال الباطن، ومنها إحسان جمال العبادة. وجمال الباطن فينا هو في الحقيقة إفضال وإتقان وجودة، وهو ما يندرج فيه بالضرورة حُسن معاملة الآخرين. ومن المؤكد أن الله ﷻ يحب من يعامل غيره بالحسنى قدر استطاعته. قال الله ﷻ:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة، ٢: ١٩٥].

أسرار شعائر الإسلام

لم توضع الشعائر والواجبات في الإسلام والإيمان والإحسان عبثاً ولا اعتباراً. إذ لكل منها حكمة فريدة خفية. وهي جميعاً يكمل بعضها بعضاً بانسجام تام. لقد نُظِّمت بحكمة ربانية لتشغل كل جزء من أجزاء الإنسان. ومن خلال القيام بهذه الشعائر يتنقل الإنسان بالتدرج إلى عالم من الصفاء الروحي.

لكل إنسان في القرآن جسد، ونفس متكونة من نفس أمارة بالسوء ونفس لوامة ونفس مطمئنة، وروح نفخها الله ﷻ في آدم ﷺ (السجدة، ٣٢: ٩). والفرق بين النفس والروح أن الروح غير شخصي بينما النفس شخصي، والروح قائم على النفس كشاهد داخلي، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا...﴾ [الأعراف، ٧: ١٧٢].

وللنفس ملكات محدّدة مثل الذكاء، والإرادة، والشعور، والخطاب،



والتَّخِيل، والذاكرة. وزيادة على القلب الذي هو عضو يضخّ الدّم إلى أنحاء الجسم، فإنّ للإنسان قلباً «روحياً» يبصر من خلاله أو يعلم الحقائق الروحية. يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج، ٢٢: ٤٦].

(١) وهكذا نرى أنّ المعنى المستتر لشهادتي الإسلام هو الإقرار بوجود الله ﷻ، إنهما يشغلان الإرادة والعقل ويوجهانهما إلى الله ﷻ. يقول النّبى ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيُحجبَ عن الجنّة» (أخرجه مسلم).

(٢) والمعنى الخفيّ في الصّلوات الخمس في اليوم والليّلة هو الصّلة بالله ﷻ. فهي تشغل الجسد (من خلال الحركات) واللّسان والفكر والذاكرة (خصوصاً خلال تلاوة القرآن أثناء الصّلاة) وتوجّهها معاً إلى الله ﷻ. يقول النّبى ﷺ: «الصّلاة عمادُ الدّين، مَنْ أَقَامَهَا فَقَدْ أَقَامَ الدّينَ، وَمَنْ هَدَمَهَا فَقَدْ هَدَمَ الدّينَ» (حديث مشهور أخرجه البيهقيّ في شعب الإيمان). والوضوء (أي تقديم شعائر غسل الأعضاء) هو الجزء غير المرئي من الصّلاة، وهو انخراط الأعضاء في التجهّز للصّلاة من خلال تطهيرها. والمقصود بذلك الفصل بين الإنسان ونفسه وذنوبه السّابقة، وانخراط سرّه في التوجّه إلى الله ﷻ. يقول النّبى ﷺ: «الطّهور شرط الإيمان» (أخرجه مسلم).

(٣) والمعنى الخفيّ للزّكاة هو ترك التعلّق بالدنيا، وهي تشغل في الإنسان ملكة الإحساس «بالآخرين». يقول النّبى ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» (أخرجه البخاري).



(٤) والمعنى الخفيّ لصيام شهر رمضان كلّ عام هو ترك التعلّق «بالدنيا»، وهو عبادة تشغل الجوارح والنفس. يقول الله ﷻ في الحديث القدسي (والحديث القدسي معناه وحي من الله ﷻ والكلام فيه من النّبي ﷺ): «كُلَّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» (أخرجه البخاري ومسلم).

(٥) والمعنى الخفيّ في الحجّ إلى البيت الحرام في مكّة المكرّمة هو عودة القلب إلى الفطرة الأولى (في الطّهارة من الذّنوب) والرّجوع إلى الله ﷻ. والكعبة هي ذلك البناء المربّع الذي يفيض بالأسرار المغطّي بستارة سوداء في وسط مكّة. ويُدعى بيت الله ﷻ، كما ورد في حديث في صحيح مسلم. وهو أوّل بيت للصلاة بني على وجه الأرض (كما في القرآن الكريم: آل عمران، ٣: ٩٦). وقد حجّ إليه الملائكة ثمّ آدم ﷺ (السّنن الكبرى للبيهقي). وقد رفع بناءه بعد ذلك سيّدنا إبراهيم وسيّدنا إسماعيل ﷺ (كما في القرآن الكريم: البقرة ٢: ١٢٧). وهو رمز ظاهر في الكون يشير إلى القلب. وربما كان هذا يفسّر سبب قول النّبي ﷺ: «الحجّ المبرور ليس له جزاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ» (أخرجه البخاري ومسلم).

أمّا الإيّاان فإنّ مكانه القلب، وقد ذكرنا قول الله ﷻ: ﴿... وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ [الحجرات، ٤٩: ١٤]؛ ممّا يستدعي تغييراً في الرّوح نحو الأفضل. يقول النّبي ﷺ: «المؤمنُ إلفٌ مألوفٌ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ» (أخرجه أحمد والقضاعي).

كما أنّ عبارة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ترد في أكثر من خمسين موضعاً في القرآن مقترنة بوصف: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وبعبارة أخرى، فإنّ التّغيير في الرّوح الذي يُحدثه الإيّاان يجب أن يقود إلى العمل الصّالح. هذا هو حقيقة معنى «الإيّاان». وقد ربط النّبي ﷺ تعريف الإيّاان الحقّ بالمعنى اللّغويّ للمادة الذي



هو «الأمان». فقال: «الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» (أخرجه النَّسائي وأحمد وابن ماجه والحاكم في المستدرک).

وأخيراً، فإنَّ الإحسان هو «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، ولكن معناه الباطن هو تحوُّل تامٍّ في أحوال الرُّوح، يقول الله ﷻ:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾ [النساء، ٤: ١٢٥].

والخلاصة هي أنَّ كلَّ واحدة من الشَّعائر والواجبات في الإسلام والإيمان والإحسان تشبه قطعة محفورة بعناية من لغز القطع المخرَّمة، لها مكان فريد لا تشاركه فيه قطعة أخرى. وعندما يتَمَّ تجميعها بشكل صحيح، فإنَّها تعكس صورة الإنسان الكاملة، بجسده ونفسه وروحه، كما ينبغي أن تكون بعد التحوُّل الكامل أخلاقياً وروحياً.

لقد وُضع الإسلام للإنسان كفرد كما هو في طبيعته، إنه مبني على الفطرة الأولى للإنسان. وهذا ما يفسَّر أنَّه غير محدود بزمن أو مكان. وهذا ما يفسَّر أيضاً لماذا لا يوجد في الإسلام كهنوت أو نظام طبقات دينية. وليس الإسلام مقصوراً على بلاد أو أمم أو أجناس دون غيرها. إنَّه يهدف إلى الارتقاء بالإنسان إلى الأفضل، حيثما يكون وفي أي وقت يعيش.



وقد خاطب الله ﷻ نبيَّه موسى ﷺ في الوادي المقدَّس من طور سيناء، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه، ٢٠: ١٤].

إنّ هذه الكلمات تمثل في الحقيقة جوهر الإسلام. إنها تلخّص الشّعائر والواجبات للإسلام والإيمان والإحسان على أكمل وجه.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾: «إنّ» التأكيد بأنّ هنا يتضمّن ضرورة الإيمان بالله ﷻ. إنّها كلمات الله ﷻ في القرآن الكريم، صدى لرسالة التوحيد نفسها، الواردة في التّوراة والإنجيل، ويتضمّن هذا الإيمان برسّل الله ﷻ، وبالكتب المنزّلة، وبالملائكة التي نزلت بها. ومن المشوّق أن نلاحظ هنا أنّ الله ﷻ وحده هو الذي يستطيع أن يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ مطلقاً عن قيود الزّمان، حيث إنّ الإنسان وسائر المخلوقات لم توجد دائماً، وهي متغيّرة دائماً، ولن تستمر في الوجود إلى ما لا نهاية. وهذا يتضمّن الإيمان باليوم الآخر، والقضاء والقدر.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: عقيدة التّوحيد لله ﷻ وكما سنرى لاحقاً هي أساس عقائد الإسلام. ولذلك فإنّ هذه الكلمات التي خاطب الله ﷻ بها رسوله موسى ﷺ تحدّد مسبقاً شهادتي الإسلام: لا إله إلا الله مُحَمَّدٌ رسولُ الله.

﴿فَاعْبُدْنِي﴾: يتضمّن هذا الأمر أركان الإسلام الأربعة، وهي الصّلاة والزّكاة والصّيام والحجّ، لأنها جميعاً عبادات، بالمعنى الأوسع للكلمة.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾: وهذا الأمر يشير بكلّ وضوح إلى الإحسان. أن تعبد الله ﷻ كأنك تراه. وتؤكد أيضاً على الصّلاة، ثاني أركان الإسلام.

وبهذه الطّريقة، فإنّ الدّين كلّهُ: الإسلام والإيمان والإحسان، قد تمّ تلخيصه بطريقة رائعة في آية واحدة قصيرة. وهذا دليل على الوحدة والبساطة في الإسلام.





وتذكرنا هذه الآية التي خاطب الله ﷻ بها نبيه موسى ﷺ بنقطة أخرى جوهرية، وهي أن الإسلام بالأساس ليس ديناً جديداً، ولا يدّعي ذلك. يقول الله ﷻ لسيدنا محمد ﷺ في القرآن: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ . . .﴾ [الأحقاف، ٤٦: ٩]. فالتوحيد دين جميع الرسل، يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء، ٢١: ٢٥]. والإسلام إعادة تأكيد على التوحيد الذي كان في الأديان الإبراهيمية، وسيدنا إبراهيم ﷺ نفسه أسلم لله الواحد، كما فعل ذلك سائر الرسل. يخبرنا الله ﷻ بذلك في القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران، ٣: ٦٧]. ونتيجة لذلك، فإن المسلمين يؤمنون بجميع الكتب السماوية المنزلّة، كما نزلت في نصوصها الأصلية، يقول ﷻ:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران، ٨٤-٨٥].

فالإسلام من جهةٍ دينٌ يحجب الغير، لأنّه دين قائمٌ بحدّ ذاته، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ . . .﴾ [آل عمران، ٣: ١٩]. ومن جهةٍ أخرى وباعتبار أنّه دين قائمٌ بحدّ ذاته، فهو شامل، وكلّ مَنْ طبّقه بإخلاص ينال ثوابه من الله ﷻ، مهما قال الناس. يقول الله ﷻ:



﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا
يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾
[النساء، ٤: ١٢٣-١٢٤].



لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟

هناك عدة أسباب مختلفة، ولكنّها مهمّة تفسّر لماذا نحتاج إلى أن نعرف هذا
كله.

١- هذا هو الإسلام في حقيقة الأمر، في مبادئه. إنّ هدف هذا الكتاب
هو شرح ما هو الإسلام، وكلّ الناس يحتاج إلى أن يعرف ما هو دين ربيع
سكان الأرض.

٢- الإسلام ليس دولةً قوميّةً، ولا مجموعة دول، كما أنّه ليس منطقة
من جملة مناطق العالم. وأنّه ليس قبيلةً، ولا مجموعة من القبائل، ولا عرقاً.
وفي الحقيقة، فإنّ المسلمين هم الشعب الوحيد في تاريخ العالم حتى القرن
العشرين الذي لم يمارس التمييز على أساس العرق. لأنّ الله ﷻ يقول في القرآن
الكریم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
[الحجرات، ٤٩: ١٣].

وزيادة على ذلك، فإن النبي ﷺ يقول:

«أَيُّهَا النَّاسُ! أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ. لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَبْيَضٍ عَلَى أَحْمَرَ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَبْيَضٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى» (أخرجه أحمد).

فالإسلام إذن دين عالمي لا يميّز طبقاً للون أو العرق أو الشَّعب أو المنطقة. إنّه غير مقيّد بمكان ولا يُنسخ بمرور الزّمان. لا يناقضه العلم ولا تجعله التكنولوجيا قديماً مهملاً. إنّه دين وُجد ليبقى في كلّ مكان.

٣- الإسلام دين قابل للإدراك، يسهّل على كلّ أحد فهمه. إنّه ليس مجموعة من الطّقوس التي لا مغزى لها جاءت من القرن السّابع للميلاد في شبه جزيرة العرب. إنّه على العكس من ذلك، برنامج تامّ، شامل، متداخل لبني الإنسان، على مستوى الجسد والأخلاق والروح. إنّه دين يناسب النّاس كما هم، ويحاول هدايتهم إلى كلّ شيء يمكن لهم أن يكونوا عليه على مستوى النفوس والقلوب والأرواح أمام الله ﷻ، في كلّ وقت وفي كلّ مكان.

٤- الإسلام عَرَضٌ للمغفرة، وخُطّةٌ للنّجاة. يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُتَنَغَّى بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهِ» (أخرجه البخاري). قد يبدو أنّ هذا يدلّ ضمناً على أنّ بإمكان الإنسان أن يقول هذه الكلمات، بنيةً مُبهمّة، ويتجنّب أن يرجع عليه في وقت ما كلّ عمل سيّئ ارتكبه أو سيرتكبه. قد يبدو أنّها تفيد أنّ الرّضا والافتناع بحقيقة منطقيّة أو إلهيّة هو كلّ ما يطلب للنّجاة، وأنّه يمكن لنا أن نتابع حياتنا وأن نفعل ما يرضينا كما نريد. ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك مباشرة بعد الموت. ومع أنّه ليس في

الإسلام مكان خاص للتطهير من الذنوب بعد الموت، ولكن هناك مبدأ أنّ المؤمنين يجب أن يواجهوا كبائر ذنوبهم التي لم يكفّروا عنها وهم يتعذّبون لارتكابها قبل أن يحصلوا في نهاية المطاف على مغفرة الله ﷻ. أضف إلى ذلك أنّ شرط ابتغاء وجه الله ﷻ المذكور في الحديث يعني أنّه يجب أن يتحقّق الإنسان بالإخلاص المحض.

إنّ ممارسة هذه الشّعائر والواجبات في الإسلام والإيمان والإحسان، تُحدِثُ تحوّلاً أخلاقياً وروحياً في الإنسان. إنّ مفتاح ذلك كلّهُ هنا هو أنّ كون الإنسان مسلماً يستلزم تغييراً روحياً، فعلى الرّوح أن تترقّى إلى الأفضل أو أن تقضي العمر في سبيل تحقيق ذلك. يقول سيّدنا موسى ﷺ، كما في القرآن الكريم: ﴿... لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف، ١٨: ٦٠].





الفصل الثالث

من هو ربك؟

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾

[طه، ٢٠: ٤٩-٥٠]



في المواجهة الكلامية بين سيدنا موسى ﷺ، وبين فرعون، المذكورة في القرآن الكريم، يسأل فرعون:

﴿... فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه، ٢٠: ٤٩].

ومعنى هذا السؤال: مَنْ هو الإله؟ وهو أعظم الأسئلة على الإطلاق. إنه تحدٍّ، وشركٌ لسيدنا موسى ﷺ. وبطبيعة الحال، فإن السؤال كان خدعة من فرعون، لأن السؤال بـ «مَنْ» يفترض مسبقاً أن الإله شخص، ولكن الله ﷻ ليس شخصاً. إنه هو سبحانه منزَّه عن التصورات، وليس كأي شخص أو شيء في الوجود، ومخالفٌ لكلِّ الحادثات. يقول الله ﷻ عن نفسه: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾ [الشورى، ٤٢: ١١]. ولكنَّ الله ﷻ أسماء، وقد وصف الله ﷻ هذه الأسماء في ما أوحاه من كلامه. يقول الله ﷻ مباشرة عقب قصة سيدنا موسى ﷺ السابقة:



﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه، ٢٠: ٨].

وهذه الأسماء تخبر الناس بشيء عن صفات الله ﷻ. وقد ذكر النبي ﷺ أن الله ﷻ تسعة وتسعين اسماً، وقد رويت منها روايتان مختلفتان (عند الترمذي وابن ماجه). ولكن القرآن يذكر نحو مائة وخمسين اسماً من أسماء الله ﷻ بصيغ مختلفة. وهناك نحو سبعين اسماً رويت عن النبي ﷺ، لم يرد ذكرها في القرآن، مما يجعل مجموع ما روي من أسماء الله ﷻ في القرآن والسنة مائتين وعشرين اسماً تقريباً. وهي تشمل أسماء مثل: الغفور، العليم، العزيز. وهي تخبرنا بشيء ما عن أوصاف الله ﷻ وأفعاله. ولذلك فإن سؤال فرعون يتحدى سيدنا موسى ﷺ فيما إذا كان قد تنزل عليه الوحي حقاً، ويتحداه فيما إذا كان يعرف صفات الله ﷻ حقاً. وقد أجاب سيدنا موسى ﷺ بالجواب الآتي:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه، ٢٠: ٥٠].

لم يكن هذا الجواب القصير متوقعاً، ولم يكن اعتيادياً. ولكنه واحد من أعظم حقائق علم التوحيد كمالاً وعمقاً، مما نطق بها أحدٌ على الإطلاق. إنها تشير إلى الرحمة والحب باعتبارهما من جوهر صفات الله ﷻ. وتُعرف ما هي الرحمة وما هو الحب. وهي تتضمن زيادة على ذلك كله: بيان سرّ الإيجاد.

الرحمة

إن اسم الله ﷻ في اللغة العربية بكل بساطة هو: «الله». ولكن هذا الاسم في القرآن الكريم مساوٍ لاسم آخر من أسمائه هو: «الرحمن». يقول الله ﷻ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾

[الإسراء، ١٧: ١١٠]. ويعني هذا أَنَّ الرَّحْمَةَ مِنْ جَوْهَرِ صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ، والله ﷻ يقول: ﴿... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ...﴾ [الأنعام، ٦: ٥٤]. ويقول النَّبِيُّ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» (أخرجه البخاري ومسلم).

ورحمة الله ﷻ تسعُ كُلَّ شَيْءٍ، كما قال: ﴿... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ [الأعراف، ٧: ١٥٦]، وهي تشير إلى عطايا الله ﷻ لكلِّ شَيْءٍ. يقول الله ﷻ: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء، ١٧: ٢٠]، وهي تشير إلى الغاية من الخلق ذاته. فقد خلق الله ﷻ الإنسان برحمته، كما قال في الآيات التالية: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن، ٥٥: ١-٤].

والرَّحْمَةُ هي الأساس الذي يقوم عليه القرآن الكريم، حيث إنَّ مائة وثلاث عشرة سورة من سور القرآن الأربع عشرة ومائة، تستفتح بالبسملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ويمكن أن نستنتج من هذا أنَّ تسعة وتسعين بالمائة من القرآن والإسلام يدور حول الرَّحْمَةِ، وأنَّ أَقْلَ من واحد بالمائة هو حول العدل في القصاص (مع أنَّ هذا بحدِّ ذاته من مظاهر الرَّحْمَةِ أيضًا). الاستثناء بين سور القرآن هو سورة التَّوْبَةِ، التي تبدأ بوصف القتال والحرب. ولكن البسملة التي لم تردِّ في هذه السورة تظهر في أثناء سورة أخرى وهي سورة النمل (٢٧: ٣٠)، ممَّا يعني أنها أُخِّرَتْ في الذِّكْرِ ولم تحذف. ممَّا يعني أنَّ البسملة ذكرت ١١٤ مرَّةً بعدد سور القرآن. فيمكن أن تتأخَّر الرَّحْمَةُ، ولكنها لا تُحَجَّرُ أو تُمنَعُ. وهناك حديث مهمٌّ للنَّبِيِّ ﷺ، يكون دائمًا أوَّلَ حديث يُروى لطلَّاب العلوم الشرعيَّة، ويسمَّى حديث الأوليَّة، وحديث الرَّحْمَةِ، وهو قوله:

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» (أخرجه الترمذي).

الحبّ

الرَّحمة نوع من أنواع الحبّ، ولكن الحبّ نوع خاصّ من الرَّحمة. «الودود» اسم من أسماء الله الحسنی في القرآن الكريم: ﴿وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿[البروج، ٨٥: ١٤-١٥]﴾. ويشير العرش في الآية إلى المخلوقات بأسرها كما في قوله سبحانه: ﴿... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ...﴾ [البقرة، ٢: ٢٥٥]. وحيثما تنزل رحمة الله ﷻ على الأشياء، فإنّ حبّه ﷻ يتوجّه إلى الكليّات أي إلى المخلوقات كلّها. فالرَّحمة عطاء جزئي ولكن الحبّ عطاء كليّ. الرَّحمة إهداء شيء ما، وأمّا الحبّ فهو توجّه النفس كاملة. كما كتب وليام بليك سنة ١٧٩٤ م في قصيدته «أغانٍ للتّجارِب»:

لَا يَتَنَغَّى الْحُبُّ إِرْضَاءَ النَّفْسِ وَلَا	يَخْصُهَا بَاعْتِنَاءٍ أَوْ بِإِنْسَانٍ
لَكِنَّمَا رَاحَةً الْمَحْبُوبِ وَجْهَهُ	يَبْنِي جَنَانًا عَلَى نَارٍ مِنَ الْيَاسِ

أو كما كتب جلال الدّين الرّوميّ في المثنوي:

يَجُودُ الْغَنَى بِمَا يَمْلِكُ	مِنَ الْمَالِ طَوْعًا وَقَدْ يَخْبُأُ
وَمَا لِلْمُحِبِّ سِوَى رُوحِهِ	يَجُودُ بِهَا وَهُوَ لَا يَعْْبَأُ

وطبقاً لذلك فإنّ النّاس إذا كانوا رحماء فإنّ الرَّحمة تنعكس لطفًا على غيرهم من النّاس أو على الحيوانات والنبات. ولكنهم إذا أحبّوا شخصًا

أو شيئاً ما حباً صادقاً، فإنهم يعطونه الوقت كله ويقدمون كل شيء لديهم ويهبون أنفسهم له بالكلية. وقد يؤدي الوقوع في الحب العاطفي إلى هذا النوع من الحب. وعبرت كريستينا روزيتي عنه ببلاغة في سباعيتها (أحببتك أولاً، وبعد ذلك يأتي حبك) سنة ١٨٩٤ م:

لَا يَعْرِفُ الْحُبُّ هَذَا لِي وَذَلِكَ لَكَ	أَنَا وَأَنْتَ انْمَحَتْ وَالْحُبُّ قَدْ مَلَكَ
فَالوَاحِدُ اثْنَانِ وَالْإِثْنَانُ فِي جَسَدٍ	وَالْحُبُّ إِنْ يَغْنُ لَمْ يَعْرِفْ «وَذَلِكَ لَكَ»
وَقُوَّةُ الْحُبِّ طُولُ الْوَقْتِ تَجْمَعُنَا	وَمَا كِلَانَا سِوَى جِسْمٍ بِهِ انْسَبَكَ

فيمكن للحب العاطفي أن يكون نوعاً قوياً جداً من الحب إلى أقصى غاية، وأن يكون مفيداً للروح أيضاً. كتب نور الدين جامي (٨١٧-٨٩٧ هـ / ١٤١٤-١٤٩٢ م):

«قد تجرب مائة شيء، ولكن في النهاية الحب فقط هو الذي سيحررك من نفسك. فلا تفر من الحب، ولو كان حباً يظهر أنه أرضي، لأنه يحضر لك الحب الحق سبحانه» (يوسف وزليخة، المقدمة).

وعلى أية حال، ومهما كان حب الناس بعضهم لبعض قوياً إلى أقصى حد، فإنه ليس أعظم درجات الحب. أعظم درجات الحب التي يمكن لبني الإنسان أن يصلوا إليها، هي في حب الله ﷻ، وليس حب بعضهم البعض. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾ [البقرة، ٢: ١٦٥].



كثير من الناس يشعر بالحب المتدفق تجاه آخرين، ولكن قليلاً منهم يعرفون حب الله ﷻ بتدفق وعمق كما مرّ. فكيف إذن يمكن أن نفهمه؟ لا بدّ لنا لكي نفهمه أن نفهم ما هو الحب وليس فقط ما يفعله الحب.

الحب شعورٌ، ولذلك فإنّ الكلمات تضيق عن التعبير عنه. ولكنّ النبيّ ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» (أخرجه مسلم). وهذا يعني أنّ الحب في الحقيقة هو حبّ الجمال. ووظيفة الجمال بالتحديد هي جذب المحبّ إليه، ولكن بلطف ويُسّر. يقول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ ﴿٧٠﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٧١﴾ فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل، ٩٢: ٧-٥].

هناك نوعان من الجمال: الجمال الظاهر، والجمال الباطن. الجمال الظاهر هو جمال الشكل، والجمال الباطن هو جمال النفس. يقول النبيّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرَتِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (أخرجه مسلم). وهذا يعني أنّ جمال الباطن هو أهمّ بكثير من جمال الظاهر الذي يتغيّر دائماً. وهذا يفسّر لماذا نجد في القرآن الكريم ثماني درجات من مراتب الناس المتحقّقين بجمال الباطن الذين أخبر الله ﷻ أنّه يحبّهم حبّاً خاصّاً.

وهذه المراتب الثمان، تتألّف من فضائل شتّى، ممّا يقود إلى القول بأنّ الفضيلة ليست سوى مظهر من مظاهر الجمال الداخلي في النفس. وهذه المراتب هي: (١) المتوكّلون؛ كما في (آل عمران، ٣: ١٥٩). (٢) المتطهّرون، والمُطهّرون؛ كما في (البقرة، ٢: ٢٢٢) و (التوبة، ٩: ١٠٨). (٣) التوابون؛ كما في (البقرة، ٢: ٢٢٢). (٤) المُقسِطون: أيّ العادلون؛ كما في (الحجرات، ٩: ٤٩) و (المتحنة، ٦٠: ٨). (٥) الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بُنيانٌ مرصوص؛ كما في (الصف، ٦١: ٤). (٦) الصّابرون؛ كما في (آل عمران،

٣: ١٤٦). (٧) المتّقون؛ كما في (آل عمران، ٣: ٧٦) و (التّوبة، ٩: ٤، ٧).
 (٨) المُحسّنون؛ كما في (البقرة، ٢: ١٩٥) و (آل عمران، ٣: ١٣٤، ١٤٨) و
 (المائدة، ٥: ١٣، ٩٣).

وكلّ هذه الأصناف الثمانية مظاهر لجمال النّفس وهو الجمال الذي يحبّه
 الله ﷻ على وجه الخصوص. وهكذا يمكن أن نفهم الحبّ على أنّه حبّ الجمال
 بجميع صنوفه، تمامًا كما قال النبي ﷺ في الحديث المذكور. ولذلك فإنّ الحبّ
 هو تحلّي الإنسان عن نفسه من أجل المحبوب.

وفي الحبّ العاطفيّ وحبّ الأزواج بعضهم لبعض، فإنّ النّاس ييّمون
 ببعضهم البعض من أجل مزيج من جمال الظّاهر والباطن معًا. يحبّون منهم
 الجسد والنّفس، والجمال الظّاهر هو الجاذب الأوّل لهم، ولكن بدون شخصيّة
 جميلة تحبّ فلن يكون بينهم إلّا شهوة ولذّة لا حبّ، وعلى أقلّ تقدير فإنّ
 الحبّ بين مثل هؤلاء لن يدوم طويلًا. وهذا أمر طبيعي وعادي. ولكن كلا
 الجمال الظّاهر والفضائل الإنسانيّة محدودة في النّهاية. بينما جمال الله ﷻ مطلق
 غير محدود، لأنّ جماله سرمديّ، وله جميع صفات الكمال والجمال، يقول الله
 ﷻ: ﴿وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنٰى فَادْعُوهُ بِهَا . . .﴾ [الأعراف، ٧: ١٨٠]. جمال الله ﷻ
 إذن أعظم من جمال الإنسان بشكل لا تمكن مقارنته. وهذا ما يفسّر لم أنّ:
 ﴿... وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ . . .﴾ [البقرة، ٢: ١٦٥].



ويمكن للكراهية أن تكون عاطفة إنسانيّة قويّة أيضًا، يمكن أن تستهلك
 كيان الإنسان، وكثيرًا ما تفعل ذلك. كتب روبرت فروست (١٩٦٣م) في
 قصيدته «النّار والجليد»:



يَنْتَهِي الْعَالَمُ يَوْمًا	بِلَهَيْبٍ مُخْرِقٍ
وَيَقُولُ الْبَعْضُ لَا بَلَّ	بِجَلِيدٍ مُغْرَقٍ
غَيْرَ أَنِّي مُنْذُ مَا قَدْ	ذُقْتُهُ مِنْ رَغَبَاتٍ
لَمْ أَجِدْ إِلَّا الَّذِي	بِالنَّارِ يَخْتَارُ الْمَمَاتِ
وَإِذَا مَا كَانَ يَفْنَى	مَرَّتَيْنِ وَيَزُولُ
فَمَعِيَ إِذْ ذَاكَ كُرُهُ	سَوْفَ يَكْفِي لِأَقْوَلُ
وَالْجَلِيدُ لِلدَّمَارِ	جَيْدٌ وَافٍ بِسُؤْلِ

ولكن الكراهية مهما كانت قوية فإنها لن تكون أقوى من الحب، لأن الكراهية ليست من صفات الله ﷻ. ولذلك لا نجد في أي مكان من القرآن أن الله ﷻ يكره أي شخص. ليس في أي مكان من القرآن الكريم أو الحديث النبوي أن الكراهية صفة من صفات الله ﷻ. صحيح أن الله ﷻ يقول في القرآن الكريم إِنَّ سَيِّءَ بَعْضِ الْأَعْمَالِ مَكْرُوهٌ لَهُ: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء، ١٧: ٣٨]. وصحيح أنه قال إنه «لا يحب» بعض من يرتكب أنواعاً من السيئات، وبعض العصاة (انظر إلى كتابي «الحب في القرآن الكريم»)، ولكن الله ﷻ لم يقل قط إنه يكره أحداً ما لذاته. أن لا تحب ليس مرادفاً لأن تكره. أن تكره هو موقف سلبي، بينما أن لا تحب هو موقف محايد. إلى جانب هذا، فإن الله ﷻ قال إنه «لا يحب» بعض أصناف الناس طالما كانوا يرتكبون بعض السيئات المحددة، ولم يقل إنه لا يحبهم لذواتهم كأفراد أو جماعات. وربما كان في هذا درس كبير، وهو أن الإنسان يجب أن يكره الأفعال الشريرة، لا الناس الذين يقومون بها. يجب أن يكره الذنب لا الإنسان المذنب، فربما يغيّر الله ﷻ الحال من كرهه إلى محبته. يقول الله ﷻ:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة، ٦٠: ٧-٨].



عندما قال سيدنا موسى ﷺ: ﴿... رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه، ٢٠: ٥٠]، كان يُعرِّف بالله ﷻ من رحمته، فالنَّاس لم يخلقوا أنفسهم، ولكن الله ﷻ خلقهم، ولذلك فإنهم مفتقرون إليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر، ٣٥: ١٥]. لقد وهبهم الله ﷻ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، وهم خلقٌ مكرَّم. وكانت تلك أوَّل عطية منه لهم: منحهم أنفسهم إليهم، وهذه الهبة من رحمته. ثم هداهم إليه، وتعرَّف إليهم. وهي النعمة العظمى الثانية التي أنعم بها عليهم. فكانت هبة من محبته. ولذلك أجاب سيدنا موسى ﷺ ما أجابه لفرعون لما سأله من ربكما، فعرَّف الله ﷻ من خلال صفتين جوهريتين الرحمة والحب. وكان سيدنا موسى ﷺ في جوابه لفرعون يؤكِّد أنَّ الله ﷻ ليس شخصًا، ولا يعرف كشخص، لكن يعرف من آثار رحمته ومحبته.



لَمْ يَجِبْ أَنْ نَعْرِفَ هَذَا كُلَّهُ؟

أولاً: يجب أن نعرف هذا لآته يريح. وكما سنرى لاحقاً، فإنَّ هذا يفسِّر



لنا لماذا خلق الله ﷻ العالم. وتعني كذلك أَنَّ الحبَّ والرَّحمة هما من جوهر كلِّ صفات الأفعال، وهي مقدّمة عن الأشياء. وهما سرّ حكمة أفعال الله ﷻ، وينبغي أن تكونا مقصد الإنسان في أفعاله. إنّهما سبب الدّين، وبخاصّة الإسلام، يقول الله ﷻ: ﴿... فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ...﴾ [الأنعام، ٦: ١٥٧]. وأن تعرف الحبَّ والرَّحمة هما أساس كلِّ شيء يعيد التأكيد لنا أَنَّ العالم ليس عديم الشّعور، وأنّ الحقَّ جميل.

ثانياً: يجب أن نعرف أَنَّ الحبَّ والرَّحمة هما أهمّ الخِصال، لأنّ ذلك يجعل الحبَّ والرَّحمة - إذا كانا صادقين - معياراً نعرف به ما إذا كانت الأشياء صواباً أو خطأً. هذا ما كان سيّدنا موسى ﷺ يخبر به فرعون، وهو ما نخبرنا به القرآن الكريم.



ولكن يبدو أنّ ذلك الجواب لم يكن كافياً لفرعون. فطرح سؤالاً آخر عن ربّ العالمين، ما هو؟ فكان بين سيّدنا موسى ﷺ وبينه هذا الحوار:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﷻ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﷻ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﷻ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﷻ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﷻ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﷻ [الشعراء، ٢٣-٢٨].

وهذا السّؤال خطأ أيضاً، لأنّ كلمة «ما» لا تنطبق على الله ﷻ. فالله ﷻ ليس شيئاً كسائر الأشياء. ولكن بما أنّ سؤال فرعون يتضمّن الإشارة إلى

شيء، فإن سيدنا موسى ﷺ يجب من خلال برهان الأشياء. فالمخلوقات آثار فعل الله ﷻ. والخلق فعل الله ﷻ. وأسماء الله ﷻ وصفاته تتجلى في أفعاله: يقول الله ﷻ: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ [الروم، ٣٠: ٥٠]. وأفعال الله ﷻ تتجلى لبعض الناس في مخلوقاته، بينما يُحجب آخرون بهذه المخلوقات، وهذا ما كان سيدنا موسى ﷺ يخبر به فرعون.

في البداية، يقول سيدنا موسى ﷺ: ﴿... رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾. وبعبارة أخرى: فإن وجود الله ﷻ ظاهر بوجود ما سواه من الأشياء، ﴿... إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾. والتنوع المستمر للأشياء يأتي من سرمدية الله ﷻ وهو مظهر لها. ثم يقول سيدنا موسى ﷺ: ﴿... رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾. وبعبارة أخرى، فإن تحوُّل الزَّمان نفسه دليل على أن الله ﷻ أزلي، كما أن الزَّمان العارض الذي يعبرُّ به النَّاس يكشف عن الإله الخالق الأزلي. وأخيراً، فإن سيدنا موسى ﷺ يقول: ﴿... رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾. وبعبارة أخرى، فإن المكان يكشف أن الله ﷻ لا حدود له وهو منزَّه عن المكان والزَّمان. إذن لدينا الأشياء والنَّاس والزَّمان والمكان، وكلها تشير إلى الله ﷻ، وتجمع كل شيء. وكل شيء يدلُّ على الله ﷻ. اثنان منها ظرفان مُحْتَوِيَانِ واثنان مظروfan مُحْتَوِيَانِ. فالمظروfan هما الأشياء المخلوقة من مادَّة وصورة، والنَّاس. والظرفان هما الزَّمان والمكان. فالمادَّة تكشف عن وجود الله ﷻ، والصَّورة تكشف عن أنه لا نهاية له تعالى. وخلق النَّاس يكشف عن صفتي الخلق والربوبية. والزَّمان يكشف عن البقاء. والمكان يكشف عن تنزيه الله ﷻ عن الحدود والمكان.

وفي هذا الجواب كلُّه يقدِّم سيدنا موسى ﷺ لفرعون جواباً فلسفياً وغيبياً



متكاملاً. إنه جواب فلسفيّ تامّ، لأنّه يحتوي في الحقيقة على كلّ ما يصبح بعد ذلك معروفاً بالأدلة العقلية الماثورة، مثل دليل الصّنع، ودليل الكلام، ودليل وجوب الوجود. وما هو أكثر أهميّة من هذا هو أنّه جواب غيبي كامل، لأنّ سيّدنا موسى ﷺ يحاول من خلاله أن يحمل فرعون على ملاحظة حقيقة الإله بالتأمّل والتبصّر فيها وراء حقائق الأشياء. ولكن فرعون بقي غير مدرك لها، إذ يحكم على سيّدنا موسى ﷺ بالجنون. ولكن المجنون في حقيقة الأمر هو فرعون نفسه. كلّ شيء في هذا الخلق مظهر لصفات الله ﷻ، وبإظهارها لوجود الله ﷻ عبر وجودها فإنّ المخلوقات كلها تُسبّح لله ﷻ، وبكونها مظاهر لرحمته ومحبّته. فإنّها تسبّح بحمده أيضاً، لأنّ حمد شيء ما يعني إظهار ما فيه من الحُسن. يقول الله ﷻ:

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء، ١٧: ٤٤].



لقد رأينا أنّ كلّ هذا مفيد وجميل حقاً أن نعرفه. ولكن ما الذي يجب على كلّ مسلم أن يعرفه عن الله ﷻ؟ ما هو أدنى حدّ يحتاجون إلى معرفته؟ لقد ذكرنا سابقاً أركان الإسلام وأركان الإيمان. وهي اللازم للنّجاة. ولكن ما هو أدنى حدّ من العقائد عن الله ﷻ يجب عليهم أن يتعلّموه؟ وهل عليهم أن يدرسوا علم الكلام أو علم الفلسفة؟

هناك عدد من الصيغ كتبها علماء المسلمين لتلخيص العقائد

الإسلامية. وأحد هذه النصوص المبكرة هو الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة (١٥٠هـ/ ٧٦٧م). إن الصيغة النهائية للعقيدة الإسلامية المبنية على القرآن عند أهل السنة (في مقابل ما انخرط فيه المعتزلة من الكلام والجدل) تم وضعها على يد اثنين من كبار الأئمة هما: أبو الحسن الأشعري (٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، وأبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م).

وربما كان أوسع النصوص التي تلخص العقيدة الإسلامية انتشاراً وأكثرها شهرة هما: العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي (٣٢١هـ/ ٩٣٣م)، ومنظومة جوهرية التوحيد لبرهان الدين اللقائي (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م). وهي تبسط مسائل العقيدة كالتالي:

والله ﷻ واحد لا بطريق العدد، ولكن من طريق أنه لا شريك له، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. لا يشبه شيئاً من الأشياء من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه. . . (كتاب الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة).

ومن الواضح أنه لم يكن لدى القرون الأولى من المسلمين هذه الصيغ. ولكنها أصبحت ضرورية بعد الاتصال بالأديان الأخرى - خصوصاً منها المسيحية - التي تحدت المسلمين بأسئلة في العقيدة. وقد كفت في البداية جملتان كأصل للعقيدة، إحداهما نفياً والأخرى إثباتاً. فالنفي هي ببساطة أول عقائد الإسلام وأعظمها عن التوحيد. إنها شهادة أن لا إله إلا الله. يقول الله ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ [محمد، ١٩: ٤٧]. والثانية هي إحدى أقصر سور القرآن، إنها تشرح بسهولة التوحيد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص، ١: ١-٤].



هذا ما عدّه المسلمون الأوائل عقيدة لهم. قال العلامة الباجوري رحمه الله
(١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م):

«وقد نفت هذه السورة - سورة الإخلاص - أنواع الكفر الثمانية؛ لأنّ
قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، نفى الكثرة والعدد، وقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾،
وهو الذي يقصد في الحوائج نفى القلّة والنقص، وقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ
يُولَدْ﴾ نفى العلّة والمعلوليّة: أي أن يكون ﷻ علّة لغيره أو أن يكون
معلولاً لغيره، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ نفى الشّبيه والنّظير»
(شرح جوهرة التوحيد للباجوري).

والحقيقة أنّ الشهادتين وسورة الإخلاص معاً يشكّلان خلاصة وافية
للعقيدة الإسلامية عن التّوحيد. إنّهما تجمعان جوهر العقيدة الإسلامية
والفلسفة الإسلامية وأصولها. إنّهما تحويان الحدّ الأدنى الذي يجب على كلّ
مسلم أن يعلمه عن الله ﷻ. فالإسلام يقدّم أشدّ المسائل تعقيداً لكلّ من يريد
أن يفهمها بشكل تامّ، ولكنه يبسّط أدقّ الحقائق وأعقدها ويجعلها سهلة على
الأفهام قريبة المتناول للجميع. جميع النّاس يحتاجون لمعرفة الحقيقة، ولذلك
فإنّ الإسلام يبسّط الحقيقة.

~

الفصل الرابع

لماذا خَلَقَ اللهُ ﷻ النَّاسَ؟

﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾

[هود، ١١: ١١٩]



لماذا خلق الله ﷻ الناس؟ هذا هو السؤال الكبير التالي لما سبق. فهو يشمل على سرّ الوجود. وكما رأينا سابقاً، خلق الله ﷻ الناس برحمته، ولكن هل خلقهم لأجل أن يعمّمهم برحمته أيضاً؟

ذكرنا أن كلّ سورة في القرآن تقريباً تبدأ بآية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. فما هو الفرق بين اسم الله «الرحمن» واسم الله «الرحيم»؟ يقول بعض علماء الإسلام: إنّ الرحمن صفة ترجع إلى ذات الله ﷻ، وإنّ الرحيم صفة فعل تتجلى في مظاهر رحمة الله ﷻ، لا للناس فحسب، بل لكلّ شيء حيّ. وهذا يدلّ ضمناً على أنّ الله ﷻ خلق الناس وكل شيء حيّ كي يكون «الرحيم» بهم.

ويبدو أنّ الآية التي استشهدنا بها في بداية الفصل تدلّ على هذا المعنى ذاته. وهي مع الآية التي تسبقها:



﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ . . . ﴿[هود، ١١: ١١٨-١١٩].

يقول علماء الإسلام إنّ المشار إليه في قوله سبحانه ﴿. . . وَلَئِنَّكَ . . .﴾ في الآية يعود على الرحمة. وهو رأي ابن عمّ النّبِيِّ ﷺ عبد الله بن عباس ؓ. وبعبارة أخرى، فإنّ الله ﷻ خَلَقَ النَّاسَ من أجل رحمته. وينسجم هذا مع كلام الله ﷻ في مواضع أخرى من القرآن الكريم نحو الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥١: ٥٦]. وبالرجوع إلى هذه الآية نجد أنّ ابن عباس ؓ يفسّر عبادة الله ﷻ هنا بالمعرفة، إلّا أنّ عبادة الله ﷻ أشمل من معرفته، لأنّها تشمل الذين يعبدونه رغم أنّهم يقلّدون في إيمانهم تقليدًا أعمى وحظّهم من معرفته يسير. وتعني أيضًا أنّ الله ﷻ خلقنا لكي نحبه. كيف يمكن لأحد أن يعبد الله ﷻ من دون أن يحبه؟ بل كيف يمكن لأحد أن يعرف الله ﷻ من دون أن يحبه؟ ومحبة العبد لله ﷻ تعني أيضًا حبّ الله ﷻ لعباده كما وعد سبحانه بقوله: ﴿. . . فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ . . .﴾ [المائدة، ٥: ٥٤].

وبعبارة أخرى، فإنّ الله ﷻ خلقنا ورحمنا وأحبّنا كلّ ذلك من أجل أن نتوجّه إليه بالعبادة والمحبة. لأنّ الحبّ كما ناقشنا في الفصل الثالث هو نوع خاصّ من الرحمة. وبالتأكيد فإنّ عددًا لا حصر له من المسلمين عبر التاريخ الإسلاميّ أحبّوا الله ﷻ حبًّا لا تتسع الكلمات لوصفه. وحاول عدد آخر لا حصر له أن يعبرّوا عن حبّهم لله ﷻ بكلمات مثل أبيات أبي فراس الحمداني (٣٥٧هـ / ٩٦٨م) (خاطب بها أصلاً ابن عمه سيف الدولة ملك حلب، ولكنّها أصبحت رمزاً للحبّ الإلهي يستشهد بها المحبّون):

فَلَيْتَكَ تَحُلُوَ وَالْحَيَاءُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
 وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
 إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيْنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

ويرى آخرون من العلماء أنّ المشار إليه في ﴿... وَلَيْدِكَ...﴾ في [هود، ١١: ١١٩]، التي استشهدنا بها قبل قليل، يعود إلى كلمة الاختلاف المذكور في قوله ﴿... مُخْتَلِفِينَ...﴾، أي أنّ الله ﷻ خلق الناس ليكونوا أحراراً في أن يختلفوا. وهذا يعني حينئذ أنّ الله ﷻ خلق الناس ليكونوا أحراراً. والحرية الروحية في هذا السياق هي التحرر من رِقِّ النفس وشهواتها، لا الحرية في اتباع النفس وشهواتها. لكن الحرية الروحية تتطلب أيضاً حرية الالتزام بخيار أخلاقي، وهذا يعني الحرية في تبني اختيارٍ خطأً.

وكلا الرأيين صحيحان، وهذا ما ذهب إليه جمهرة علماء المسلمين: فقد خَلَقَ الله ﷻ الناس من أجل رحمته وحبّه. هذه هي غايتنا في الحياة، وهذا هو سرّ الوجود. إلّا أنّ الله ﷻ خلق الناس أيضاً أحراراً. فهم أحرار في رفض رحمته وحبّه، وهم أحرار في رفض الخير، وهم أحرار في أن يكونوا أشراراً. ولكي توجد الحرية لا بدّ أن يكون الشرّ ممكن الوجود. وهكذا يمكن أن يكون الشرّ نتيجة سيئة للحرية.

الرفق بالآخرين

إنّ عبادة الله ﷻ تستلزم بالضرورة حبّ الآخرين من عباده أيضاً. يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم، ٩٦: ٩٦].



ويقول النبي ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا» (رواه مسلم).

إذًا عبادة الله ﷻ ليست مجرد الصلاة. لم يُخلق الناس ليعيشوا منعزلين يصلّون ويصومون فحسب إذ ليس هناك في الإسلام انعزالية سلبية. فقد خلق الناس لإظهار الرّفق بالآخرين كدليل على محبتهم لله ﷻ. ويؤكد هذا قول الله ﷻ:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة، ٢: ١٧٧].

وبعبارة أخرى لا يمكن للناس أن يُمضوا أوقاتهم وهم يصلّون ويصومون من غير أن يُظهروا الرّفق بالآخرين والصبر عليهم، إذ لا يمكن أن تتحقّق التقوى بدون الرّفق بالآخرين. وعلى العكس من ذلك، فإن حقيقة التقوى بالضرورة تستلزم الاتّصاف بالفضيلة والرّفق بسائر الناس، لأنّ الرّفق هو ثمرة الحبّ ونتيجته. يقول النبي ﷺ: «إنّ الله رفيق يحبّ الرّفق في الأمر كلّ» (أخرجه البخاري ومسلم). وخلقنا ليرفق بعضنا ببعض أيضًا. وخلقنا

لنرفق بجيراننا أيًا كانوا ومهما كان دينهم. وهذا أيضًا مظهر من مظاهر حكمة الوجود.



لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟

من المهم أن نعرف أن الله ﷻ خلقنا من أجل الرحمة، لأن هذا يطمئنا ويساعدنا على أن نحب الله ﷻ وأن نتوجه إليه بالرجاء. ويساعدنا على أن نشق بالله ﷻ، وهذا بحد ذاته يساعدنا على الرضا في حياتنا، ويقودنا إلى حل كثير من مشاكلنا بما لا نتوقعه من العون الإلهي، يقول الله ﷻ:

﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٦٥﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق، ٦٥: ٢-٣].

ومن المهم أن نعرف أيضًا أن الله ﷻ خلقنا من أجل الرحمة، لأنها تذكرنا بأن نتخلق بالرحمة. ومن دون التخلق بالرحمة للآخرين لا يمكننا أن نتوقع تلقى الرحمة لا من الله ﷻ ولا من الناس. قال النبي ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» (أخرجه البخاري ومسلم). وبشكل مشابه، من المهم أن نعرف أن الله ﷻ خلقنا للحب بحيث نحب الآخرين. ومن المهم أن نعرف أن الحب يعني بالضرورة الرفق بالآخرين بحيث يستفيد الآخرون من حبنا، فلا يبقى عواطف مجردة.



وأخيراً، فإن من المهم أن نعلم أن الله ﷻ خلقنا للرحمة لكي نتحمل الأمور يسر في أنفسنا ومع الآخرين، لا سيما في أمور الدين. إن كثيراً من الناس المتدينين - بل بعض العلماء - يجعلون الدين صعباً من دون داع. فهم يتبنون موقفاً متشدداً، ويبالغون في التأكيد على ما لا يتناهى من تفاصيل الأحكام الشرعية. وهم يجعلون الأمور معقدة أكثر مما تحتاج. وفي بعض الأحيان يجعلون الأمور مستحيلة التطبيق على وجه الخصوص. ويقدمون انطباعاتاً بأن الله ﷻ يربص بنا وأنه ينتظر الناس حتى يرتكبوا إثماً لكي يعاقبهم. يبدو أنهم يعتقدون أنه كلما كان الناس أكثر تشدداً وتطرفاً في مواقفهم الدينية كلما كانوا أتقى لله ﷻ (وهذا كله يعتبرونه ورعاً). حتى أنهم يحتقرون الناس الذين يبحثون عن أيسر طريق مشروع في الدين. ويعتبرون فيما بينهم وبين أنفسهم أنهم أفضل من الآخرين. لكن الله ﷻ خلقنا للرحمة، وهذا يعني أنه يريدنا أن نسهل الأمور على أنفسنا كما أخبرنا الله ﷻ بقوله: ﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ [البقرة، ٢: ١٨٥]. ويشبه هذا قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» (أخرجه البخاري ومسلم). وقد روي أن النبي ﷺ نفسه «ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً أو قطيعة رجم» (أخرجه البخاري ومسلم).



الفصل الخامس

ما هي الجنة وما هي النار؟

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

[الإسراء، ٧٧: ١٤]



ما هي الجنة والنار؟

تبدأ حياة الإنسان بنفخ الروح في الجسد بأمر من الله ﷻ. وأصل جسد الإنسان من الطين، لكنه يتناسل بعدئذ بواسطة السوائل المنوية. قال الله ﷻ:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة، ٣٢: ٧-٩].

لكن الله ﷻ بعد ذلك يفصل عند الموت أرواحنا عن أجسادنا وعن العالم المحسوس، ويعيدنا إلى عالم النفوس والأرواح في البرزخ. قال تعالى:

﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف، ٧: ٢٩].



إن المراحل العديدة للحياة بعد الموت، والجنة والنار، هي ما يحدث خلال هذه العودة بعد الموت. وهناك أوصاف كثيرة للجنة والنار في القرآن الكريم. ووصف لإحساس أهلها. فالجنة جميلة ورائعة، والنار مرعبة ومؤلمة، ولكن ما هما؟

لا شك أن الجنة والنار حق وواقع. قال الله ﷻ:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٩﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١١٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ ﴿١١١﴾﴾ [هود، ١٠٥-١٠٨].

ولكنهما أيضًا حقيقتان شخصيتان. فالناس يحاسبون أنفسهم بعد الموت. قال الله ﷻ:

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٧﴾ أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء، ١٧-١٨].

فالجنة والنار إذن كلاهما ذاتي وموضوعي معًا. ويوم القيامة حقيقي ومُدرك بالحواس. لكن هناك أيضًا محاسبة الإنسان لنفسه. وهناك أيضًا حساب في أعماق الإنسان يسمى محاسبة الضمير. ويدعى الضمير في القرآن الكريم النفس اللوامة. وهذا ما يفعله الضمير: فهو يتوجه إليك دائمًا باللوم. ويقسم الله ﷻ بضمير الإنسان ويوم الحساب معًا في قوله سبحانه:

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١٠﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالتَّقْصِيسِ اللَّوَامَةِ ﴿١١﴾﴾ [القيامة، ٧٥: ١-٢].

فالجنة والنار ليستا إذن نتيجة لحساب الله ﷻ فقط، بل نتيجة لحساب الناس لأنفسهم أيضًا. وهما في داخل الإنسان وخارجه. وبالتأكيد كما تدلّ عليه هاتان الآيتان، هناك توافق معيّن بين يوم القيامة وأحداثه العديدة وروح الإنسان وملكانها المتعدّدة وحالاتها الفردية. فيوم القيامة مثال لمحاسبة الضمير الكليّ، وضمير الإنسان ربما هو مثال لقيامة الفرد وحسابه نفسه. يقول صهر سيدنا محمد ﷺ وابن عمّه عليّ بن أبي طالب ؑ كما في ديوان شعره:

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تَشْعُرُ وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُبْصِرُ
وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

ومع ذلك فإنّ ما نخفيه في سرّنا يصبح في الحياة التالية معروضًا مرئيًا.
قال الله ﷻ:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨٠﴾﴾ [الزلزلة، ٩٩: ٧-٨].

في حقيقة الأمر فإنّ الله ﷻ لم ينصّ في القرآن الكريم أبدًا (بقول عائد إليه ﷻ) أنه سيعاقب الناس «بمثل» ما كسبوا، بل نص دائمًا أنه سيعاقبهم «بما» كسبوا:

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر، ٣٩: ٧٠].

ويقول الله ﷻ:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾
[آل عمران، ٣: ٣٠].

وأعمالنا التي يحفظ سجلها في داخلنا ترجع ذاتها إلينا. فكل ما عملناه في حياتنا خيراً أو شراً يرجع إلينا بالسعادة أو بالشقاء، لأن هذه الأعمال قد أصبحت جزءاً منا. ومن هنا نعلم أن كل ما نفعه بالآخرين لا بد أن نمرّ به بأنفسنا. قال الله ﷻ: ﴿... وَوَجَدُوا مَّا عَمِلُوا حَاصِرًا...﴾ (الكهف، ١٨: ٤٩). وهكذا فإن كل ما نفعه بالآخرين نفعه لأنفسنا في الواقع. رغم أننا ربما لا نراها أو نعقل معناها في هذه الحياة. قال الله ﷻ:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة، ٢: ٢٨١].



وعندما نحاسب أنفسنا خلال الحياة فإننا نميل إلى إرخاء العنان لأنفسنا وتسهيل الأمور عليها. ونحن نعلم عند ارتكاب المعصية أننا قد فعلنا خطأ، لكننا نختلق الأعذار لأنفسنا. قال الله ﷻ:

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿٢﴾﴾ [القيامة، ٧٥: ١٤-١٥].

ونتصرّف أحياناً وكأننا لا نؤمن بالحياة الآخرة. وعندما نفكر بالحياة الآخرة فإننا نخاطب أنفسنا: «لا تقلق، ستكون الأمور على ما يرام». وفي القرآن الكريم قصّة الرّجل الذي ظنّ ذلك:

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾
 [الكهف، ١٨: ٣٦].

ولكننا لا نحاسب أنفسنا في الآخرة على هذا المنوال. وحيث إن الموت هو انفصال النفس والروح عن الجسد وعن العالم المحسوس فإن مُلْهِياتِ الجسد والدنيا تزول في الحياة الآخرة. وحينئذٍ فإن كلَّ إنسان يرى ببصيرته، وهذه البصيرة ثاقبة:

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق، ٥٠: ٢٢].

وستنجلي الحقيقة في النهاية. فالحياة الآخرة حق، والحياة الآخرة هي عالم الحقائق. قال الله ﷻ:

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلٌ أَمْ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾
 [يونس، ١٠: ٥٣].



بعد قول كلِّ هذا، فإنَّ من المهم في الإسلام عدم القنوط، بل أن نتذكَّر أنَّ الله ﷻ خلق النَّاسَ من أجل رحمته. وهذا يعني أنَّه يغفر ويحبُّ أن يغفر خطايا النَّاسِ التي لا تحصى عندما يتوبون منها. قال الله ﷻ:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر، ٣٩: ٥٣-٥٤].



فالله ﷻ قادر إذن على محو كل الذنوب التي يندم الناس على فعلها، وهو - لا غيره - قادر على تحرير الناس من وزر ما ارتكبوا من السيئات. وقد روي أن القصيدة التالية وجدت تحت وسادة الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي بعد وفاته (٥٠٥هـ / ١١١١م):

فَبَكُونِي وَرَثَتِي حَزَنًا	قُلْ لِإِخْوَانٍ رَأُونِي مَيِّتًا
لَيْسَ ذَاكَ الْمَيِّتُ وَاللَّهُ أَنَا	أَتَظُنُّونَ بِأَنِّي مَيِّتُكُمْ
كَانَ ثَوْبِي وَقَمِيصِي زَمَنًا	أَنَا فِي الصُّورِ وَهَذَا جَسَدِي
مِنْ ثَرَابٍ كَانَ ضَيْقًا وَعَنًا	أَنَا كَنْزٌ وَحِجَابِي طَلَسَمٌ
كَانَ سِجْنِي فَأَلْفَتُ السَّجَنَا	أَنَا دُرٌّ قَدْ حَوَانِي صَدَفٌ
طَرْتُ عَنْهُ فَتَخَلَّى لِفُنَا	أَنَا عُصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي
وَبَنَى لِي فِي الْمَعَالِي رُكْنًا	أَشْكُرُ اللَّهَ الَّذِي خَلَصَنِي
فَحَيِّتُ وَخَلَعْتُ الْكَفَنَا	كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ مَيِّتًا بَيْنَكُمْ



لِمَ يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ هَذَا كُلَّهُ؟

من المهم أن نعرف أن الله ﷻ وعد بأن يغفر لنا خطايانا، وأنه خلقنا لرحمته. هذا هو أساس الرجاء عند الإنسان، ومن دون معرفة هذه المغفرة والرجاء الذي تأتي به؛ فإن وجود الإنسان سواء الآن أو في المستقبل سيكون واقعًا قائمًا بل مع مستقبل أشدَّ ظلامًا.

لكنه من المهم أن نعرف أن الحساب لا تحيّر فيه، لأننا نعرف عندئذ أننا

لا نستطيع أن نغيّره، لا نستطيع الخروج منه بالكلام أو الترجي، ولا نستطيع الهروب منه. نحتاج إلى أن نخاف منه قليلاً، لكن هذا النوع من الخوف إيجابي وليس سلبياً. فهو يساعدنا على عدم الركون إلى الكسل ويحثنا على مواصلة القيام بأفضل ما لدينا من العمل لتجنب السوء. إننا نفعل ما بوسعنا من خلال أداء الأعمال الصالحات ومعاملة الآخرين بالرفق دائماً. ويشبه هذا النوع من الخوف الألم في الجسم: فهو قد يوجع قليلاً، لكنّه يعلمنا كيف نحمي أنفسنا من الأذى، وكيف ننقذ أنفسنا في نهاية المطاف. وهذا بالتأكيد سبب إلهي للألم الجسدي وللخوف.

ومن المهم على نحو مماثل أن نعرف أن الحِساب ذاتي أيضاً، لأننا نعلم عندئذ أننا لا نستطيع أن نتوجّه باللوم إلى الله ﷻ على ما يُنزله بنا من العقاب العادل الذي نستحقّه. خلقنا الله ﷻ لرحمته لكنّه خلقنا أيضاً أحراراً. ومن خلال رحمته أُنذرنا وأرشدنا لكي لا نلومه على أعمالنا الشريرة التي ارتكبتها باختيارنا الحرّ. ولا نستطيع قطعاً أن نبرّر أفعالنا بلوم قدرة الله ﷻ. يؤكّد هذا قول الله ﷻ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التحل، ١٦: ٣٥].

فليس الله ﷻ هو المسؤول عن الأمور السيئة التي فعلناها بالآخرين، فلقد قمنا بها باختيارنا، بعد أن تلقينا إنذاراً واضحاً باجتنابها. ولذلك فمهما كان العقاب الذي ينزل بنا فإن الذنب بأكمله ذنبنا، ويجب أن نتحمّل المسؤولية

عن أنفسنا، فنحن من ظلمنا أنفسنا، لا الله ﷻ. إذ هو منزّه عن الظلم. قال
الله ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس،
١٠: ٤٤].

~

الفصل السادس

ما هو القرآن؟

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[الأنبياء، ٢١: ١٠]



القرآن وحيٌّ من الله ﷻ

القرآن هو أكثر شيء في الإسلام أسيء فهمه من بعض المسلمين وغير المسلمين على حدٍّ سواء. لذلك فإن علينا أن نناقشه بشيء من التفصيل. ما هو القرآن بالتحديد؟ لقد ورد في القرآن نحو خمسة وخمسين مصطلحًا مختلفًا لوصفه مثل: «هدى»، و «رحمة»، و «بُشرى»، و «نور»، و «ذِكْر». ولكنه في جوهره وحيٌّ مباشر باللغة العربية من الله ﷻ إلى سيّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ، أو من الله ﷻ بواسطة أفضل الملائكة جبريل ﷺ إلى النَّبِيِّ ﷺ. وقد عرّف العلماء القرآن الكريم هو «ما بين الدّفتين، وهو كلام الله المعجز المنزل على سيّدنا محمد ﷺ بواسطة سيّدنا جبريل ﷺ»، وهو المنقول بالتواتر المكتوب بالمصاحف، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس». («مناهل العرفان في



علوم القرآن» للعلامة الزرقاني). وقد نُقل كما سنرى لاحقاً من دون شك ولا ريب بروايات متواترة، وُجِّع كما نزل باللغة العربية على شكل كتاب هو المصحف. وأصله وغايته وصيغته وتلقيه ملخصةً ببلاغةٍ معجزةٍ في الآيات التالية:

﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾﴾ [فُصِّلَتْ، ٤١: ٢-٤].

لكن القرآن ليس وحي الله ﷻ الأوحى في التاريخ. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران، ٣: ٣].

وهذا يعني أن الإسلام يقر بالكتب السماوية المنزلة من قبل وبالأديان التي جاءت بها، ويحترمها. وربما يكون هذا سبب تسمية الله ﷻ للقرآن «بالمهيمن» على الكتب السابقة:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴿١﴾ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴿٢﴾ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة، ٤٨: ٤٨].



اللغة العربية

من المهمّ قبل الانتقال إلى الحديث عن القرآن ذاته، أن نوضح بضعة أمور حول اللغة التي أنزل بها: اللغة العربية الفصحى. إنّ كون القرآن مهميناً على الكتب السماوية السابقة كان بمعنى ما ممكناً لأنّ اللغة العربية ذاتها كانت محفوظة من التّغيير. وخلافاً لما يعتقدّه معظم النّاس، تميل اللّغات القديمة إلى الدّقة والبلاغة أكثر من اللّغات الحديثة، فهي تعكس الأزمان التي انصبت فيها عبقرية الإنسان الفكرية وأفضل عطاءاته في الثّقافة الشّفهية. ويقترح أفلاطون في كتابه «محاورة كراتيلوس» أنّ سرّ معاني جذور الكلمات في الإغريقية القديمة هي أنها تبدو واحدة مع مسمياتها، وتعكسها بدقة في الصّوت والشّكل والتّصريف.

وهذا صحيح يقيناً في حقّ اللغة العربية الفصحى. فهي ليست اتّفاقاً عشوائياً وتعديلات لحظيّة سريعة للدّال والمدلول - كما استدلّ فرديناند دو سوسيور (١٨٥٧-١٩١٣ م) بالرجوع إلى اللّغات الحديثة - بل إنّ كلّ حرف من حروف اللغة العربية الثمانية والعشرين مرتبط من خلال صوته وطبيعته وطريقة النّطق به وحتى شكل كتابته بواحد من منازل القمر الثمانية والعشرين، أي بكلّ شيء في العالم السّفلي، أي بجميع ما في هذا العالم. وتعكس هذه الحروف بدورها مجموعة محدّدة من أصول المعاني، وفي النّهاية واحداً أو أكثر من أسماء الله ﷻ. واستعمال القرآن لبعض الحروف المقطّعة في بداية سور معيّنة قد يكون له علاقة بهذه الفكرة، والله أعلم. وتستدعي الأحرف المنفردة معانيها إلى الكلمات التي تتركّب منها، فالألف تستدعي



على سبيل المثال (من بين المعاني الأخرى في كل حالة) فكرة السَّمَوِّ والنَّشَاطِ
والسَّبْقِ والذِّكُورِيَّةِ إلى الكلمة، وتستدعي الباء السَّلْبِيَّةَ والتَّلْقِيَّ وتستدعي
الهاء النَّفْسَ أو فكرة الهواء، وتستدعي الرَّاء الحُرْكَه، وتستدعي القاف القُوَّةَ،
والكاف الضَّعْفَ أو النَّحُولَ، والميم النَّهَايَةَ والمَوْتَ، وَهَلُمَّ جَرًّا. للكلمات
إذاً معانٍ مختلفة تتركَّب من أصوات مألوفة ومفهومة. وهذا يعني أيضًا أن
الكلمات ذات الحروف المتشابهة في الجذر ولكن بترتيب مختلف غالبًا ما تكون
لها معانٍ متشابهة، أو أنَّ اختلاف حرف واحد يوجب اختلافًا ملائمًا في المعنى.
إنَّ «كَلَمَ» على سبيل المثال هي الجذر الثلاثي لكلمة «كلمة». وعندما نغيِّر
حرف الكاف إلى قاف (الأثقل - حرف استعلاء) نحصل على «قَلَمَ» جذر
كلمة «قلم». والقَلَمُ يدوِّن الكلمات جاعلاً إيَّاهَا ثَقِيلَةً وأكثر استمرارًا، وهذا
يتطابق بدقَّة مع طبيعة حرف القاف. وعلى سبيل مثال آخر كلمة «قنوت»
التي تعني تَضَرُّعٌ وخُشُوعٌ، وإذا استبدلنا التَّاء بالطَّاء التي هي أَثْقَلُ وأَطْغَى
منها فتكون الكلمة «قنوط» والقنوط يعني اليأس، فالإثقال الطاعني على
القنوت يؤدِّي إلى القنوط كما هو واضح من أحرفه. فزبدة القول إنَّ الكلمات
في اللُّغة العربيَّة (وربَّما في اللُّغات القديمة الأخرى) تعكس المسمِّيَّات بشكل
غامض، وليست علامات عشوائية دائمة التغيُّر ذات جانبيين. وتأتي هذه
المعاني من الصَّوْتِ وطبيعة حروف الأبجديَّة فاللُّغة العربيَّة لغة توقيفيَّة
وليست اصطلاحية.

وحسب الرَّأي السَّائد فقد وجد نوعان من العرب: العرب المستعربة
وهم عرب شمال الجزيرة العربيَّة، والعرب العاربة وهم عرب جنوب الجزيرة
العربيَّة. ويعود أصل العرب المستعربة إلى إسماعيل بن إبراهيم (عاش نحو

سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد)، بينما يرجع أصل العرب العاربة إلى أسلاف أقدم، إلى قحطان. ويدعى قحطان في سفر التكوين يُقطان، وهو ابن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح ﷺ (سفر التكوين، ١٠: ٢١-٣٠). وكذلك وفقاً لسفر التكوين فإن الجد الأعلى لسيّدنا إبراهيم ﷺ هو فالج أخو يُقطان. أول شخص تكلم العربية وفقاً لتاريخ الطبري «تاريخ الرسل والملوك» هو يعرب (جباب في سفر التكوين) بن قحطان (بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام). ويؤكد هذا سفر التكوين (١٠ / ٣١) الذي ينص على أنه في زمن أبناء يقطان: «هؤلاء بنو سام بعشائهم ولغاتهم في بلدانهم بأممهم». وتنتمي اللغة العربية إلى عائلة اللغات السامية التي تنتمي إليها اللغات الأكادية والآرامية والعبرية. وبما أن العربية هي على الأقل أقدم بثلاثة أجيال من سيّدنا إبراهيم نفسه ﷺ فإن علماء المسلمين ذهبوا إلى أنها أقدم جميع اللغات الباقية. ويمكن ملاحظة عمر العربية السحيق في احتفاظها بصيغ قديمة للغاية مثل المثني وجمع التذكير وجمع الجمع (كما في «رجل» على سبيل المثال جمعها «رجال»، ومجموعات الرجال جمعها «رجالات») والفعل المتصل بنون التوكيد. وقد فقدت حتى اللغات القديمة الأخرى كالعبرية معظم هذه الصيغ. وهناك أدلة تاريخية على هذا أيضاً: هناك كتابات عربية في الأحساء (شرقي صحراء شبه الجزيرة العربية) يعود تاريخها إلى سنة ٨٠٠ قبل الميلاد. وهناك نصوص أكادية مكتوبة في وصف العرب يعود تاريخها إلى سنة ٨٥٣ قبل الميلاد على الأقل. وتوجد حتى محفورات لكتابات عربية بدائية مبكرة وجدت في صحراء سيناء (معرضة في متحف القاهرة) كتبها عمال عرب كانوا يعملون في مناجم الفيروز الفرعونية في سيناء يعود تاريخها



إلى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد (انظر د. تحية عبد العزيز إسماعيل: العربية الفصحى أم اللغات الهندية الأوروبية وأصل الكلام). ولا يوجد سبب لافتراض أن عمر العربية يقارب عمر اللغة الأكادية التي يُعتقد اعتقاداً قابلاً للجدل أنها أقدم لغة (تعود إلى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد على الأقل). ويؤكد سفر التكوين (١٠/ ١-١٠) أن مدينة أكاد قد بناها نمرود بن كوش بن حام بن نوح ﷺ، الذي كان لذلك ابن عمّ من الدرجة الثانية ليقطان، وكان كما يبدو معاصراً له أيضاً (على الأقل حسب ما ورد من الأنساب في الإنجيل - مع أن مدرّس رباح وروايات تفسير القرآن الكريم تتفق على أن نمرود عاش إلى زمن سيّدنا إبراهيم ﷺ).

يتمّ تفسير حفظ اللغة العربية تاريخياً بحقيقة أن البدو الذين يتكلمون بها كانوا منغلزين لآلاف السنين عن الحضارات الأخرى الأقوى في مفازات شبه الجزيرة العربية المنيعّة إلى حدّ يبدوون فيه وكأنهم في جزيرة. وهناك قاموا بحراسة ثقافتهم الشفهيّة بغيره وفخر، وهموا كذلك نقاء اللغة العربية. لقد افتخر العرب حقاً بشرف اللغة العربية وسعة معانيها. ويمكن أن يشاهد هذا بسهولة في اللغة الجميلة رغم تعقيدها، وفي قاموس المفردات الواسع المستعمل في الشعر الجاهلي لا سيما في المعلقة الشهيرة. وهي قصائد حصلت على جائزة سنويّة لما أنها تمثل أبلغ نصّ للغة العربية يُعرض في شبه الجزيرة العربية، ثمّ مُنحت أعلى شرف إذ علّقت على الكعبة في مكّة، (ومن هنا جاء اسم المعلقة الذي يعني حرفياً «ما يُعلّق»).

لقد انحدر سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ مباشرة من صلب سيّدنا إسماعيل ﷺ كما ذكرناه، ولكن كونه من مكّة التي كانت تقام فيها منافسات الشعر، يجعل من

السَّهْلَ عَلَيْنَا أَنْ نَرَى كَيْفَ كَانَ ﷻ وَقَبِيلَتَهُ قَرِيشٌ يَتَحَدَّثُونَ أَدَقُّ وَأَنْقَى عَرَبِيَّةً فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

فَلَا بَدَّ أَنْ نُوَكِّدَ هُنَا أَنَّ الْقُرْآنَ يُخْبِرُنَا أَنَّ أَصْلَ لُغَةِ الْبَشَرِ كَانَ تَوْقِيفِيًّا بِوَحْيٍ - أَوْ إلهَامٍ عَلَى الْأَقْلَ - مِنْ اللَّهِ ﷻ إِلَى سَيِّدِنَا آدَمَ ﷺ. يَقُولُ اللَّهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﷻ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﷻ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﷻ﴾ [البقرة، ٢: ٣١-٣٣].

ونستخلص من هذا أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ - وَرَبَّهَا اللُّغَاتُ الْآخَرَى الْقَدِيمَةَ - كَانَتْ لُغَاتٍ تَوْقِيفِيَّةً (بَوْحِي أَوْ إلهَامٍ). كَيْفَ لَا وَقَدْ تَمَكَّنَتْ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ تَتَوَحَّدَ كَلِمَاتُهَا مَعَ مَسْمِيَّاتِهَا بِصَوْتِهَا وَشَكْلِهَا وَتَصْرِيفِهَا! وَكَيْفَ لَا وَقَدْ تَمَكَّنَتْ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ تَكُونَ وَعَاءً لِلْوَحْيِ! وَإِضَافَةً إِلَى كُلِّ هَذَا فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﷻ﴾ [الحشر، ٥٩: ٢١].

لُغَةُ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيَّةِ

إِنَّ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ نَصِفَ لُغَةَ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيَّةِ بِلُغَةٍ أُخْرَى لِأَنَّهَا فَرِيدَةٌ جَدًّا. إِنَّمَا فَرِيدَةٌ حَتَّى فِي اسْتِخْدَامِهَا لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَخْتَلِفُ عَنِ الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ (الَّذِي



لا يقلّ مجموعه عن مائتي ألف بيت من الشّعْر)، وتختلف أيضًا عن اللّغة العربيّة في الحديث النبويّ. تسبق لغة القرآن العربيّة أيضًا الترجمات العربيّة للكتاب المقدّس التي يرجع أولها إلى القرن التّاسع الميلادي، وتختلف كثيرًا عن كلّ لغات الكتاب المقدّس وترجماته. ويمكن مع ذلك إيصال بضعة حقائق وأمور عنها:

الأمر الأوّل: إنّ عربيّة القرآن لا تُلفظ أو تُقرأ بالطريقة نفسها التي تلفظ وتقرأ بها العربيّة العاميّة. تتألّف أبجديّة اللغة العربيّة بداية من ثمانية وعشرين حرفًا (مع ثلاثة حروف صوتيّة قصيرة لا تكتب، وهي الحركات). وكلّ حرف من هذه الحروف يجب أن يظهر من واحد من سبعة عشر مخرجًا من الحلق والقمّ واللّسان والأسنان والشّفتين والأنف. وهناك علم كامل مخصّص لمخارج الحروف يعلمّ للمبتدئين (هو علم مخارج الحروف). وهذا العلم هو الذي يجعل اللّغة الفصحى تلفظ بالطريقة ذاتها في كلّ صُقعٍ رغم تعاقب الدّهور.

كما أنّ عربيّة القرآن تُقرأ بشكل مختلف عن النّصوص المكتوبة بالعربيّة الفصحى والمعاصرة. وهناك قواعد محدّدة للنطق بحروف مختلفة واقترانات مختلفة بين بعض الحروف والكلمات. هذه الطّريقة في التّلاوة (وهي التّجويد أو التّرتيل) توقيفيّة منزلة مع بداية نزول الوحي بالقرآن (انظر: المزمّل، ٧٣: ٤). وكان النّبِيُّ ﷺ وصحابته رضوا الله عنهم يترّلون القرآن بها. وتفصيل القواعد ممّا لا يتّسع له هذا المقام، لذلك يكفي أن نقول: إنّ تأثيرها هو تسهيل تتابع القراءة للنّص بحيث تندقّ الكلمات معًا بسلاسة وترثم لتجنّب التّنافر عند اصطدام الأصوات، وللتأكيد على المقاطع المجهورة والمستعلية. ورغم وجود

تفاوت طبيعي في سرعة الآيات فإن كل حرف وكل كلمة منه تلفظ ببطء نسبياً متميزة بشكل كامل. وفي القرآن مواضع مختارة للوقوف أيضاً. وقف لا يتيح سكونه للقارئ التنفس فحسب (بغير تداخل مع الترتيل) بل يتيح دخول القرآن إلى أعماق قلب السامع أو القارئ. وهناك أخيراً ممدود زائدة تلازم حروف المد التي تلي اقترانات حروف أو مواضع معينة، لا سيما الألف (صوت «ااا») الذي يملأ صوت القارئ للقرآن بنداء متصل للغيب. ويُعتقد بالتالي أن التأثير الإجمالي لترتيل القرآن هو الوجد «حزن» ولكن ليس الوجد بمعنى الحزن لفقد شيء دنيوي، وإنما هو وجدٌ ناشىء عن الشوق إلى الله ﷻ من أجل أسماؤه الحسنی، من أجل التقديس، من أجل الجنة. وعلاوة على ذلك، فإن صوت اللغة بحد ذاته ليس جميلاً فحسب، وإنما هو مهيبٌ أيضاً، فيه فخامة وسموٌ وجاذبية. فهو مليء بالتدفق الموزون والتناغم والإيقاع من دون خداع ولا جلجلة ولا خفة. إنه هادئ لكن مع قوة هائلة. وربما لهذه الأسباب يكون مجرد الاستماع إلى لغة القرآن من دون حتى فهم الكلمات - و ٨٠٪ من المسلمين لا يستطيعون التحدث بالعربية - هو ما يعتقد أنه إحدى الغايات الأربع لنزول الوحي (الثلاثة الأخرى هي تطهير أنفس الناس، وتعليمهم الكتاب، وتعليمهم الحكمة). يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران، ٣: ١٦٤].

الأمر الثاني: الذي علينا بيانه عن لغة القرآن هو أنها مليئة بالصّور

الطَّبِيعِيَّة، لا سيما صور الصَّحراء والجبال والسَّماء والبحر، ويبدو أنَّها تجمع الجمال وتحبب من جديد في كلمات القرآن ذاتها، وفي الامتدادات الباهرة لبعض آياته وسوره. ولكنَّه بعد كونه ساميًا يعود باستمرار إلى اللُّغة البسيطة والمواضيع العمليَّة. فيستخدم في النهاية الأشياء الدنيويَّة والماديَّة جسرًا إلى الملَكوتيِّ والمقدَّس. وهذا يحرِّك الشَّوق ويحمل على الرِّحلة إليه.

الأمر الثالث: هو كثرة التنوُّع في تصاريـف لغة القرآن رغم مفرداته السَّهلة نسبيًّا. فهو يحوي ١٨١٠ جذرًا من مجموع سبعين ألف جذرٍ من جذور الكلمات العربيَّة الممكنة. وبعض الآيات قصيرة للغاية، وأقصر آية هي في سورة الرَّحمن (١: ٥٥) مؤلَّفة من كلمة واحدة. وأقصر الآيات المركَّبة من أحرف مقطَّعة هي (طه، ٢٠: ١؛ ويس، ٣٦: ١؛ وغافر، ٤٠: ١؛ وفصلت، ٤١: ١؛ والشورى، ٤٢: ١؛ والزخرف، ٤٣: ١؛ والدخان، ٤٤: ١؛ والجاثية، ٤٥: ١؛ والأحقاف، ٤٦: ١) وهي مؤلَّفة من حرفين. وبعض الآيات طويلة جدًّا، وأطولها «آية الدِّين» في (البقرة، ٢: ٢٨٢) وهي صفحة كاملة من خمسة عشر سطرًا طويلًا. وعلى نحو مماثل فإنَّ بعض السُّور قصيرة جدًّا، وأقصرها سورة الكوثر (رقم السُّورة ١٠٨)، وهي تتألَّف من ثلاث آيات في أقلِّ من سطرين. وبعضها طويل جدًّا، وأطولها سورة البقرة التي تصل إلى نحو خمسين صفحة. وتتماثل آيات بعض السُّور في الطُّول، وتختلف في حالات أخرى بشكل كبير. وتنتهي آيات بعض السُّور بفواصل متشابهة في الحرف والإيقاع ذاته، وأجلى مثال على ذلك سورة القمر (رقم السُّورة ٥٤) التي تضمُّ خمسًا وخمسين آية تنتهي كلّها بحرف الراء مسبوقًا بحرف صامت. وَتُسْتَخْدَم باقي السُّور فواصل أخرى متعدِّدة. وتتدفَّق بعض الآيات بإيقاع

منسجم، وبعضها الآخر بتقطيع حادّ موزون، وهو مليء بالتحوّلات المحيِّرة بين الاثنين، كلّ واحد منها له معنى خفيّ وتأثير مقصود. ولكن رغم هذه التحوّلات هناك دائماً انسجام واضح بين النبرة والبنية بحيث لا يتردّد المرء في الحكم بأنّ كلّ آية هي من الكتاب ذاته.

وفوق ذلك، في حين يشكّل القرآن وحدة واضحة، غالباً ما تحتوي كلّ سورة منه على كلمات وتراكيب لغويّة تتفرّد فيها ولا توجد في أي سورة أخرى في القرآن. وترتبط كلمة «سورة» بالتأكيد بالكلمة العربيّة «سُور» التي تدلّ على هويّة خاصّة متميّزة لكلّ سورة من القرآن. ويمكن أن يشاهد هذا حتى على مستوى الآيات المنفردة. واسم العبارة القرآنيّة المفردة هو «آية» وتعني معجزة. ويشير هذا إلى أنّ كلّ آية معجزة في حدّ ذاتها. ورغم تكرار بعض الآيات في القرآن إلّا أنّ للآيات المكرّرة معاني ودلالات مختلفة حسب السّياق الذي وردت فيه. ومن جهة أخرى، هناك آيات لا يخفى تفرّدها وإعجازها في الأسلوب والمعنى، كلّ منها بطريقة خاصّة بها. إنّ آية الكرسي (البقرة، ٢: ٢٥٥) المشهورة على سبيل المثال، هي أعظم آية في القرآن طبقاً لحديث في صحيح مسلم. وهي آية ذات منهج فريد في الحديث عن صفات الله ﷻ. ونحو هذا آية النّور (النور، ٢٤: ٣٥) التي تضرب مثلاً فريداً لنور الله ﷻ. وتختلف عن ذلك «آية الدّين» (البقرة، ٢: ٢٨٢) المشار إليها آنفاً، وهي آية تميّز بالطول لكن مع تفصيل تامّ للأحكام بلغة سهلة تصف كيفية توثيق الدّين بانسجام. وهناك أمثلة أخرى كثيرة كهذه.

الأمر الرّابع: إنّ لغة القرآن بحدّ ذاتها هي لسان عربيّ مُبين [الشّعراء، ٢٦: ١٩٥]. ورغم تنوّع تصاريف كلماتها، فإنّها تستخدم عدداً قليلاً نسبياً

من كلمات مختلفة غير معقدة (حتى ولو كانت لا تدلّ بالضبط على المعنى ذاته في العربية العامية المعاصرة). وعلاوة على ذلك، فإنّ من السهل حفظ القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر، ٥٤: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]. والدليل على هذا حفظ ملايين المسلمين للقرآن عن ظهر قلب. إنّ للقرآن في العرض والإقناع أسلوباً سهلاً ممتنعاً، وهو أشدّ قوة لآته يارس سلطاناً خفياً يجذب إليه بغير جهد. ويتضمّن مشتقات عربية جديدة كالأسماء المختلفة للجنة والنار، وتصارييف جديدة للأفعال، زيادة على جمل ذات تراكيب لغوية جديدة، بعضها ذكر مرّة واحدة فقط في القرآن كلّها، ومعانيها متبادرة للذهن، وظاهرة الوضوح في سياقاتها. إنّهُ بليغ بإيجاز بديع، لا يستخدم مصطلحات غير ضرورية للتعبير عن الشيء، فليس فيه إسهاب. وفيه مترادفات ذات معانٍ متقاربة تكشف عن الفروق الدقيقة بلا حشو. وبعبارة أخرى، عندما يكرّر القرآن المعنى ذاته بكلمات يسيرة الاختلاف فالأمر ليس هكذا في الواقع. إنّهُ بالأحرى يُظهر بعض الفروق الدقيقة الخفية. وهذا يبدو جلياً بشكل مذهل في كتب الحكيم الترمذي (٣٢٠هـ/٩٣٢م): مثل كتاب «منع التّرادف»، وكتابه الذي يشرح الفروقات بين الألفاظ المسمّى كتاب «بيان الفرق»، وكتاب الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ/١١٠٩م) المسمّى «معجم مفردات ألفاظ القرآن».

الأمر الخامس: وفيما يتعلّق بوضوح لغة القرآن فمن الملاحظ أنّ القرآن يستخدم بين الفينة والأخرى لغة العقل والمنطق، والاستقراء المنطقيّ بشكل لا مجال للخطأ فيه، لا سيما فيما يخصّ البراهين على وجود الله ﷻ (مثال: النمل، ٢٧: ٦٠-٦٥؛ العنكبوت، ٢٩: ٦١؛ الطور، ٥٢: ٣٥-٣٧؛ يونس،

١٠ : ٣١-٣٦) أو وحدانيته (مثال: الإسراء، ١٧ : ٤٠-٤٣؛ المؤمنون، ٢٣ : ٨٤-٩١)، لكن هذه اللغة تتدفق بسلاسة خالية من المحاجبات التي تميز لغة علم المنطق والقياس المنطقي، إلى درجة أن القارئ أو المستمع لن يدرك أبداً أن البراهين المنطقية الدقيقة مستخدمة في القرآن إلا إذا كان منطقياً بارعاً. وأخيراً، فإن لغة القرآن ذاتها تردّد صدى حقائق معانيه. إن الأمثال والتشبيهات والمجازات التي يستخدمها هي في غاية الكمال، ليس لأنها تتوافق بدقة مع ما تعبر عنه وتظهر حقيقة جوهره إلى التور فحسب، بل لأنها تتوافق عادة مع شيء في أعماق الإنسان. إن عمق الأفكار والفخامة والثبات في محتواه مخترنة في أغواره وجلاله وتناغم أسلوبه. ومن جهة أخرى، فإن الانتقالات المذهلة في المعاني والتحوّلات المفاجئة في الأسلوب، وطول آياته تعكس تعقيد الحقيقة المحيّر، ويثير الصدمة والتأمل. ومع أنه يمكن أن يقال الكثير هنا، فإنه يكفي أن نشير إلى أن هناك شيئاً ما في لغة القرآن ونظمه يعكس السمة المميزة والتركيب العميق للفطرة الأصلية في روح الإنسان أو بشكل أدق: الروح. والأمر كذلك بالضرورة لأنّ النفس هي وعاء لروح الإنسان، والقرآن هو التعبير عن الروح أنزل في اللغة العربية. وقد اتفق لهذا أن يصبح أقوى المبررات التي تفسّر مبادرة العلماء وقراء القرآن إلى رفض تحويل قراءة القرآن إلى نغمات موسيقية وألحان بالإجماع: فالموسيقى تؤثر على النفس والعواطف، بينما يهدف القرآن إلى إيقاظ الروح.

كلّ هذا يشرح تحدّي القرآن المباشر الذي لم ينجح أحدٌ في التصدي له أبداً، أنّه لا أحد يستطيع الإتيان بكتاب مثله (الإسراء، ١٧ : ٨٨؛ القصص، ٢٨ : ٤٩) أو بعشر سور من مثله (هود، ١٣-١٤)، أو حتى في نهاية

الأمر بسورة واحدة من مثله (البقرة، ٢: ٢٣-٢٤؛ ١٠: ٣٧-٣٨)، لأنّ القرآن فريد حقاً ليس في محتواه فحسب: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .﴾ [الفرقان، ٦: ٤٥]، بل في لغته أيضاً، وأي شخص متمكّن من اللّغة العربيّة يستطيع أن يرى هذا.

يبقى أن نقول إنّ الملايين من أذكىء النّاس على مرّ التّاريخ قضوا طوعاً ومحبةً كامل حياتهم ولا يزالون، وهم يتعلّمون القرآن ويقرأونه ويرتلونه ويتدبرونه. وبعض النّاس يختمه كلّ ثلاثة أيّام، ويستطيعون فعل هذا المائة سنة بدءاً من الطّفولة، جاعلين قراءة عشرة آلاف ختمّة طوال العمر أمراً ممكناً. ومعظم المسلمين المثقّفين المتديّنين يهتمونه مرّة في الشّهر، أي يهتمونه من خمسمائة إلى سبعمائة مرّة في حياتهم، إذا عاشوا نحواً من سبعين سنة. وإذا كان كلّ ما قلناه سابقاً غير صحيح فلا شكّ أنّ المسلمين سيشعرون عندئذ بالملل منه، ولكن هذا لا يحصل، بل تراهم على العكس من ذلك يجدون فيه معنًى ولذة جديدة في كلّ مرّة يقرأونه، فيزداد شغفهم به أكثر فأكثر. وربّما كان هذا السّيء الأكثر تميّزاً في القرآن. وقد أوضح النّبِيُّ ﷺ ذلك بقوله: «وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثَرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ» (أخرجه الترمذي).

العقبات في قراءة القرآن

إنّ نظم القرآن ولغته فريدان، وهو يختلف في ذلك عن الكتب المنزّلة سابقاً، ليس لأنّه باللّغة العربيّة فحسب. إذ عندما يبدأ النّاس، بمن فيهم المسلمون الذين لم يقرأوا القرآن طيلة حياتهم بقراءته مع التّركيز، فغالباً ما يكون ردّ

فعلهم الأوّل هو شيء من الدهشة أو الارتباك. ويبدو بعض النّاس عاجزين عن استخلاص أي مغزى منه على الإطلاق. وذلك لأنّ هناك عقبات يجب التغلّب عليها في قراءة القرآن. وليس من الصّعب التغلّب على هذه العقبات لكنّ إدراكها يساعد في التغلّب عليها.

وهناك ثلاثة أنواع من العقبات في الحقيقة تمنع النّاس من فهم القرآن. وهذه الأنواع هي: (١) عقبات في عمليّة القراءة. (٢) عقبات عند القارئ. (٣) عقبات في النّص القرآني ذاته. وفيما يتعلّق بالعقبات في عمليّة القراءة، ينبغي أن نأخذ بالاعتبار الأمور التّالية، بإيجاز:

(أ) نزل القرآن باللّغة العربيّة الفصحى بلهجة قبيلة قريش، على الرّغم من وجود بضع كلمات معروفة من أصول غير عربيّة. ولغته ليست اللّغة العربيّة العاميّة أو العربيّة الحديثة المتعارف عليها. وبسبب ثرائه اللّغوي لا يمكن ترجمته بطريقة صحيحة، وترجماته كلّها هي مجرد تقريب لبعض معانيه. ويجب تعلّم اللّغة العربيّة القرآنيّة من جديد حتى من قبل العرب المتحدّثين باللّغة العربيّة. ورغم ذلك فإنّ هذه المسألة تتعلّق عادة بعدد محدود من الكلمات العربيّة.

(ب) نزل القرآن وحياً شفهيّاً، على قوم أصحاب ثقافة شفهيّة. ومن دون تلقّيه بالسّماع وفقاً لقواعد ترتيله لا يَفُوتُ القارئ اتّساقُ الآيات فحسب، بل تَفُوتُهُ أيضاً القوّة والانسجام بين الكلمات، مع سرّ ارتباط كلمات القرآن بعضها ببعض.

(ج) يؤدّي التّعليم الحديث بالنّاس إلى توقّع قراءة نصوص بسيطة قصيرة تقدّم كلّ معلوماتها على الفور، وليست أكثر مما تبدو عليه. ولهذا



النصوص عادة ملخصات أبسط للنقاط المهمة. لكن قراءة القرآن يجب أن تكون بتدبر وتأن وعمق لأن المؤلف هو العليم سبحانه. وهكذا فإن كل المعاني اللغوية المختلفة الممكنة للكلمات مقصودة مسبقاً من الله ﷻ. والقرآن مليء أيضاً بالرموز والتشبيهات والاستعارات والمجازات والكنيات والقرائن والتلميحات والعلاقات المتشابهة بين آياته. وربما يرجع هذا إلى أن بعض الحقائق المعينة لا يمكن نقلها كاملة من خلال ظواهر معاني الكلمات وحدها. زد على هذا أنه ليس نصاً قصيراً، فهو ستمائة صفحة في معظم الطبعات العربية، ويحتاج إلى وقت وصبر للبدء بتدبره. إن معظم المسلمين المتدينين يتعلمونه بالتأكيد خلال مرحلة الطفولة. فهناك من مليون إلى عشرة ملايين مسلم في العالم الإسلامي يحفظون القرآن عن ظهر قلب، ويقضون ما بين ثلاثين دقيقة إلى ساعة كل يوم من حياتهم في قراءته.

(د) القرآن ليس نصاً مرتباً حسب تعاقب تاريخ الأحداث أو تسلسل الأفكار. الكتاب المقدس نص مرتب تاريخياً وزمناً في الأساس. فهو يبدأ بسفر التكوين وينتقل مباشرة إلى أخبار أنبياء بني إسرائيل - على الرغم من الفصل بكتب الحكمة الخالدة (مثل سفر المزامير) - ويخبرنا العهد الجديد بعد ذلك عن قصة سيدنا المسيح ﷺ ثم حواريه، وينتهي بكتاب «رؤيا يوحنا اللاهوتي»، متطعاً إلى المستقبل كما كان. لكن القرآن ليس مرتباً بالترتيب الذي نزل به الوحي، ولا يرجع إلى أحداث مرتبة حسب تاريخ الوقوع، ولا يسعى إلى سرد تاريخ، ولو كان تاريخاً مقدساً. إنه بالأحرى غير مرتبط بالوقت أو على الأقل غير ذي ترتيب زمني. لذلك غالباً ما يعود إلى المواضيع ذاتها مرة تلو الأخرى. وهو بالتساوي ليس عرضاً منظماً للفلسفة كحوارات

أفلاطون، ولا للأخلاق واللاهوت مثل تاسوعات أفلوطين، وليس أخيراً عرضاً للكون والمنطق مثل كتاب: «ما وراء الطبيعة» وكتاب «المنطق» لأرسطو. بل يحوي بالأحرى أنواعاً مختلفة من الحكمة متفرقة في كل أنحاء وعلى القارئ أن يجمعها معاً.

(هـ) القرآن نصٌّ فعّالٌ مؤثّر لا يهدف إلى التأمل وحده، بل إنّ المقصود من قراءته أن تكون سبباً للتغيير، وأداة للتوجيه. ويجب على الإنسان أن يكون عند قراءته طالباً يستجدي المعرفة، لا كناقذ فيلم يُصدّر حكماً على شيء للتسلية. ومن دون هذا الموقف والنية المختلفين عن قراءة أي كتاب عادي لا يقوم القرآن في الواقع بالتغيير أو التوجيه المقصودين، بل إنّ ربّما يؤكّد شبه القارئ المتحامل. يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء، ١٧: ٤١].

أما العقبات عند القارئ فهي تأتي من:

(أ) الاختلاف في الزمان والمكان والثقافة والظرف والخبرة والسياق بين القارئ والوحي القرآني.

(ب) إنّ الانشغال، والتشتت، ونقص التركيز، والخيال السّارح، والمقاطعة من قبل وظائف الجسم واحتياجاته، ونقص الصّبر، والنّوايا السيّئة، ونقص الانفتاح، ونقص التّواضع، والعمى عن الحقائق الرّوحيّة، كلّ ذلك يؤدّي إلى العجز عن التّفكّر في القرآن وانعدام تدبّره. ولكنّ الله ﷻ يدعو النّاس إلى التّفكّر في آياته (انظر: آل عمران، ٣: ١٩٠-١٩٢؛ الرعد، ١٣: ٣؛ النحل، ١٦: ٤٣-٤٤؛ الحشر، ٥٩: ٢١) ويدعو أيضاً إلى تدبّره (انظر: النساء، ٤: ٨٢؛ المؤمنون، ٢٣: ٦٨؛ ص، ٣٨: ٢٩؛ محمد، ٤٧: ٢٤؛ وانظر



أيضاً ق، ٥٠: ٣٧). والفرق بين الاثنين هو أن التفكير عملٌ جاهد (يتطلب وجود صورة في الذهن وفقاً لما ذكره الراغب الأصفهاني في كتابه «معجم مفردات ألفاظ القرآن»)، بينما التدبر انفعالٌ مستتر لكنه أعمق تأثيراً (تعني كلمة «دبر» حرفياً عقب الشيء وآخره، ولذلك فإن التدبر يعني أن يدير المرء ظهره، لكنها تعني أيضاً الوصول إلى ظهر الشيء). ومع ذلك يمكن لكل واحد منهما أن يبدأ في قلب المستمع إما بانهازٍ معارفٍ مشرقة تأخذ بالألباب، أو ببريقٍ من ومضات فهمٍ هادئة في سرِّ الإنسان، بحيث يفهم المرء على الفور عشرات الأمور دفعةً واحدة بعلاقتها المتعددة. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿أَمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْفَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٩: ٢٢-٢٣﴾
كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٩: ٢٢-٢٣﴾

(ج) المطالب التي يقدمها القرآن للناس: لا يطالب القرآن بالأحكام فحسب بل يلح على المبادئ الأخلاقية أيضاً التي يمكن أن تكون كثيرة المتطلبات. ولذلك فإن من المتوقع أن تجد النفس شيئاً من الانقباض منها، لأن النفس لا تريد أن يخبرها أحد بما يجب عليها القيام به أو التخلي عن منطقة راحتها، ناهيك بتغيير أساليبها تغييراً تاماً.

وأخيراً بخصوص العقوبات في نص القرآن ذاته، هناك عدد من العقوبات المتوقعة تستغرق من البعض وقتاً للاعتياد عليها. وهي تشمل:

(أ) الالتفاتات المتكررة ليس في الموضوع وحده، بل أيضًا في أسلوب القصص، إلى درجة أن ضمير الراوي للقصص يتغير: يرجع الله ﷻ أحيانًا إلى نفسه بضمير الغائب «هو»؛ وأحيانًا بضمير المتكلم المفرد «أنا»؛ وأحيانًا بضمير الجمع (المراد به التعظيم) «نحن»؛ وأحيانًا بأسمائه الحسنى. من الواضح أن الله ﷻ لا يمكن تحديده أو احتواؤه بالصّائر أو بوجهة نظر واحدة، إذ لكل واحد من هذه الالتفاتات معنى ومغزى. ويتنقل القرآن أحيانًا بين من يتحدث إليه: فيكون المخاطب تارة النبي ﷺ، وطورًا المؤمنين، وتارة أخرى الكافرين، وفي بعض الأحيان يكون المخاطب كل شخص. وكل التفات من هذه الالتفاتات يشد الانتباه إلى معنى جديد. ومن خلال هذا الأسلوب فإنه يذهل القارئ والمستمع مخرجًا إياه من أسلوب تفكيره لكي يكشف له عن بعض مكنونات النفس.

(ب) يبدو من النظرة الأولى أن القرآن يحتوي على عدد من التشابهات، والمكررات، والجميل المعترضة، والاختصارات، ومجازات الحذف. وكل أمر من هذه الأمور له معانٍ وأسرارٌ محدّدة ينبغي التغلغل فيها. فهي تجبر الناس على التوقف والتفكير بعمق، وربما يكون هذا جزءًا من سبب وجودها في مواضعها. فهي كأحجار البُلُور المَجُوفَة التي تبدو مستوية من الخارج، لكنها عندما تتكسر تكشف على غير توقع عن نموذج بُلُوريّ جميل.

(ج) يوجد عدد من الأمور يمكن أن تبدو غريبة وبعيدة الاحتمال عند القارئ المعاصر. لقد ذكرنا بعض هذه الأمور كالأوصاف الجليّة للحياة الآخرة، وبعضها سنناقشه لاحقًا كالشريعة والجهاد والقلب. وبعضها يبدو انعكاسًا لمحيط الجزيرة العربيّة في القرن السّابع الميلاديّ، كأوصاف بيئة



الصّحراء الطّبيعيّة وقصص العرب القدماء والأنبياء المذكورين في الكتاب المقدّس (وحتى صور الأعمال التجاريّة). والأمر المهمّ الذي يجب أن نضعه في أذهاننا هو أن القرآن يسعى إلى مخاطبة كلّ عقليّة إنسانيّة ممكنة، وباعث، ومستوى تعليم أو تعقيد، ناهيك عن كلّ موضوع متعلّق بالروحيّات. لذلك هو يحتوي على شيء يتحدّث إلى كلّ نوع من النّاس.

مواضيع القرآن الكريم

حول ماذا يدور القرآن؟ ما هي مواضيع القرآن؟ وفقاً لكتاب أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ / ١١١١م) «جواهر القرآن»، تتعامل كلّ آيات القرآن البالغ عددها ٦٢٣٦ آية مع واحد (وبعضها أكثر من واحد) من ستة مواضيع أساسية لا غير. وهذه المواضيع الستة هي: (١) الله ﷻ وأسماؤه وأفعاله، بما في ذلك خلقه. (٢) الحكمة الرّويّة والطّريق إلى الله ﷻ، لا سيما من خلال ذكر الله ﷻ. (٣) أوصاف حياة البرزخ والحياة الآخرة. (٤) قصص الأنبياء والرّسل والحكماء قبل الإسلام، مع أخبار الكفّار والعصاة. (٥) براهين الإيمان، وتفنيد أدلّة الكفر. (٦) التّشريعات والأوامر والمحظورات والأحكام الخاصّة بالحياة.

وفي الحقيقة فإنّه من الصّعب، إن لم يكن من المستحيل، العثور على آية واحدة في القرآن لا ترجع إلى واحد من هذه المواضيع. وسبب هذا كما يقول الغزالي هو:

«سرّ القرآن... ومقصده الأقصى دعوة العباد الى الجبّار الأعلى...»

فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع» (الغزالي: جواهر القرآن، ٣).

وبعبارة أخرى، يركّز القرآن على الأمور النّافعة للنّاس - سواء فهموها أم لم يفهموها - في دينهم، وبناءً عليه في حياتهم الرّوحية والأخلاقية والاجتماعية. ومن هنا فإنّ مواضيعه هي: (١) الله ﷻ. (٢) الطّريق إلى الله ﷻ وحقائقه الباطنة. (٣) الرّجوع إلى الله ﷻ. (٤) الذين اتّبعوا صراط الله ﷻ والذين لم يتّبعوه وما حصل لهم. (٥) الاستدلال على حقيقة الطّريق إلى الله ﷻ، ودحض حجج الجاحدين. (٦) قواعد السّلك في الطّريق إلى الله ﷻ. لا يقدّم القرآن معلومات عقيمة من النّاحية الرّوحية، ولا يحوي حقائق عبثية أو أموراً تافهة. ولا ينحرف عن غايته. فهو دائماً منسجم. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النّساء، ٤: ٨٢].

القرآن كمرآة

يحيي القرآن صورة عن الفضائل الإنسانيّة وعن قدرات الإنسان الرّوحية كذلك. لكنّه يحيي أيضاً صوراً عن نفوس النّاس ويعكسها عموماً كما هي. إذاً هو مرآة تعكس بواطنهم المتغيّرة باستمرار، وعواطفهم وخواطرهم وحديث النّفس، ويكشف للنّاس عن حقيقتهم ما لا يستطيعون رؤيته. وهذا أحد معاني الآية القرآنية:

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء، ٢١: ١٠].

ووفقاً للتفسير الكبير «مفاتيح الغيب» لفخر الدين الرّازي (٦٠٦ هـ ١٢٠٩ م) ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ لا يعني تذكيركم بالله ﷻ فحسب، بل هو أيضاً "شرفكم وصيتكم" (مفاتيح الغيب للرّازي ٢٢/ ١٤٥). وبعبارة أخرى، يشبه القرآن مرآة خارقة تُظهر للنّاس ما هم عليه، وما يمكن أن يكونوا عليه، وكيف يمكن أن يتحقّقوا به. ولكي ترى بوضوح في هذه المرآة فإنّه يجب على العقل والروح أن يكونا ساكنين، ويجب على القلب في النّهاية - كما سنناقش في الفصل الثامن - أن يكون طاهراً. يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام، ٦: ١٣].

ولا يستطيع الإنسان تدبّر القرآن وفهمه (كما وصفنا سابقاً) ولا فهم نفسه من خلال القرآن بشكل صحيح إلّا عندما يحقّق الطّمأنينة في باطنه. وهذه ليست فكرة جديدة في الواقع. فقد ورد في المزامير (٤٦ / ١٠) «اطمئنّوا واعلموا أني أنا الله». ويلخص الرّومي كلّ هذا (المنثوي ١ / ١٥٤٨ - ١٥٥٤ ترجمة د. إبراهيم الدّسوقي شتا) بطريقة جميلة كالتالي:

وما القرآن إلّا سِفْرٌ وصفٍ	لأحوال الهداة الأنبياء
همّ الأسماك غاصّت في جلالٍ	من البحر المقدّس عن رياء
كلانا عاجزٌ عن دركٍ معني	نبوّتهم وسرّ الأولياء
فإن تقصّدْ شهودهم جهاراً	فأذعنْ للكتاب بلا امتراء
وطالعهُ وأنت بلا فيود	ليُفتحَ بابُ فكرِكَ للسّماء
فإنّ الروحَ في قفصٍ كطيّر	سجين ذاق أنواع الشّقاء
وكلّ الجهل أن تبقي أسيراً	وتهمّل قصْدَ أسباب النّجاء



وَصَوْتُ الْحَقِّ يَهْتِفُ مِنْ بَعِيدٍ
لِهَذَا قَدْ فَرَزْتُ وَصَرْتُ حُرًّا
يُرِينَا النُّورَ فِي لَيْلٍ عَمَاءٍ
فَلَيْسَ سِوَاهُ دَرْبٌ لِلْبَقَاءِ

أهميّة القرآن الكريم

من المستحيل المبالغة في أهميّة القرآن بالنسبة للمسلمين وللإسلام. فالمسلمون يتلون سورة الفاتحة (السّورة الأولى من القرآن) وبعض آيات أخرى من القرآن في كلّ صلاة (والفاتحة في كل ركعة)، خمس مراتٍ في اليوم، زيادةً على تلاوته يومياً كما ذكرنا. وقبل قيام حركة الإصلاح المسيحيّة، لم يكن مسموحاً في زمنها لعامة النّاس المسيحيين بقراءة الإنجيل مباشرة، ويحوي الكتاب المقدّس حوالي ٨٠٧٠٠٠ كلمة (٦٢٣٠٠٠ كلمة منها في العهد القديم، و ١٨٤٠٠٠ كلمة في العهد الجديد). بينما يبلغ القرآن حوالي ٧٨٠٠٠ كلمة أو ٣٧٥٠٠٠ حرفاً (٣٣٢٧٩٥ حرفاً في الحواسب الحديثة). وفيه مائة وأربع عشرة سورةً فحسب، و ٦٢٣٦ آية. ومن نحو سبعين ألفَ جذرٍ مستعمل من جذور كَلِمِ العربيّة الفصحى يستخدم القرآن نحو ألف وثمانمائة فحسب، مما يُسهّل قراءته وحفظه عن ظهر قلب.

ويتضح لنا سريعاً ونحن نضع هذه الحقائق في أذهاننا أنّ القرآن هو الكتاب الأكثر قراءةً على مرّ التاريخ، وهو بالتّأكيد الأكثر حفظاً في الصّدور على مرّ التاريخ أيضاً. هناك اليوم ملايين من النّاس يحفظون القرآن غيباً بإتقان، وربما عشرة ملايين آخرين تعلّموه في إحدى مراحل حياتهم وحفظوه بطريقة ما. في الماضي كانت نسبة أعلى من المسلمين (رغم أنّ مجموع عدد

المسلمين إجمالاً أقل من عددهم اليوم) يحفظونه عن ظهر قلب، لأنّه كان محور التّعليم وأساس القراءة والكتابة.

وأخيراً، ليس هناك كتاب في التّاريخ له هذه الكثرة من التّفاسير الجادّة مثل ما للقرآن. هناك عشرات الآلاف من التّفاسير أو الشروح للقرآن من أوله لآخره. وهي تتناول القرآن من زوايا واهتمامات مختلفة منها: اللّغويّة والفقهية والتّاريخية والكلامية والفلسفية والصوفيّة وحتى العلميّة (أو مزيج من كلّ ذلك)، يصل كثير منها إلى آلاف الصّفحات. ويمكن القول إنّ أكثر التّفاسير السنيّة تأثيراً وشهرة على مرّ التاريخ هي: (١) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير بالمأثور) لمحمّد بن جرير الطّبريّ (٣١٠هـ/٩٢٢م). (٢) أحكام القرآن للشّافعيّ (تفسير فقهي) جمعه أبو بكر البيهقيّ (٤٥٨هـ/١٠٦٦م). (٣) مفاتيح الغيب (تفسير يعتني بعلم الكلام) لفخر الدّين الرّازيّ (٦٠٦هـ/١٢٠٩م). (٤) تفسير الكشّاف (تفسير لغوي) لمحمود بن عمر الرّخّشيّ (٥٣٨هـ/١١٤٣م). (٥) الجامع لأحكام القرآن (تفسير فقهي) لمحمّد بن أحمد القرطبيّ (٦٧١هـ/١٢٧٢م). (٦) تفسير الجلالين لجلال الدّين المحلّيّ (٨٦٤هـ/١٤٥٩م) وجلال الدّين السيوطيّ (٩١١هـ/١٥٠٥م)، وهو مرجع قريب المتناول في مجلّد واحد.

وكما سنناقش لاحقاً، فإنّ فرعي الإسلام الأكبرين هما السّنة والشّيعّة. وأوسع تفاسير الشّيعّة الأصيلة تأثيراً هي: (١) تفسير لعليّ القمّيّ (٣٠٧هـ/٩٨٠م). (٢) التّبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمّد الطّوسيّ (٤٥٩هـ/١٠٦٧م). (٣) مجمّع البيان لفَضل الطّبرسيّ (٥٤٨هـ/١١٥٣م). لكن توجد عشرات من التّفاسير الأخرى - سنيّة وشيعيّة - مؤثّرة



وموثوقة (عند كل طائفة) بقدر تأثير وموثوقية التفسير التي ذكرناها هنا. وحتى في يومنا هذا ما زالت التفسير تُكتب. وألفت كذلك حواشي على التفسير وحواش على تلك الحواشي. وكل هذا لكي نصل إلى القول بأنه لا يوجد كتاب في التاريخ سواء أكان إلهياً أم بشرياً، تمت قراءته وترتيبه ودُرس وكتب عنه وتم التفكير فيه وحفظه بهذا القدر كالقرآن. وهو في هذا الصدد الكتاب الأوحى والأعظم أهمية، ليس للمسلمين فحسب بل في تاريخ البشرية بوجه عام.

تأثير القرآن في الفكر الإسلامي

ينبغي أن يكون قد اتضح الآن أن القرآن يحدد رؤية المسلمين الشاملة وفلسفتهم. وأن القرآن فيه شيء عن كل شيء. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ . . . ﴾ [الأنعام، ٦: ٣٨].

ومن الواضح أن القرآن الآن هو أساس كل العلوم الدينية الإسلامية (كالعقيدة والكلام والفقه والتصوف والأخلاق). وهو كما ذكرنا آنفاً أساس العلوم اللغوية في اللغة العربية أيضاً، بما فيها العلوم الآتية: علم دلالات الألفاظ، والاشتقاق، والتأويل، والبلاغة، والمنطق، والنحو، والضبط، والصوتيات، واتساق الأصوات، والانسجام، والتلاوة، والكتابة، والخط، والمخطوطات، وصناعة الكتاب، والزخرفة، والتلوين. لكن الشيء غير المعروف جيداً هو أنه أساس كل العلوم الفلسفية الإسلامية، كعلم النفس،



وعلم الإنسان، وعلم الاجتماع، وعلم أصول المعرفة، وعلم الكون، وعلم ما وراء الطبيعة، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم الأوفاق، وعلم الحب، وعلم الزمن، وعلم المنطق، وعلم المعرفة، وهلمَّ جَرًّا. ويحاول بعض النَّاس في العالم الحديث ربطه أيضًا بالعلوم الطبيعيَّة، ولكن هذا مثارُ جدل، لأنَّ المعرفة العلميَّة تتطوَّر دائمًا وتتغيَّر. لذلك إذا توافق العلم مع تأويلات محدَّدة لآيات القرآن فإنَّه يتغيَّر عندئذ بتغيَّر النظريَّات العلميَّة، وهذا يسبِّب مشكلة كبيرة. أخيرًا، فالقرآن هو أساس الفنِّ الإسلامي لا سيما الخطِّ والعمارة. والأمر الذي لم نذكره بعدُّ هو أنَّ التلاوة بالأنغام الملائمة للقرآن فنٌّ سمعيٌّ سامٌّ. هو ليس الموسيقى كما هي، لكنَّ كثيرًا من النَّاس يستمع إليه لأجل جمال وقِّعه الفريد. وفي الحقيقة فإنَّ هناك احتمالًا كبيرًا في أن تجد شخصًا ما في آية زحمة سير في آية مدينة إسلاميَّة في العالم يستمع إلى قراءة مجوِّدة للقرآن من شريط تسجيل لواحد من القراء المصريين الكبار في القرن العشرين كعبد الباسط عبد الصَّمَد أو محمود خليل الحصري أو محمود الطَّبلاوي.

يحدِّد القرآن أيضًا وجهة النَّظر اليوميَّة للمسلمين ومواقفهم. إذ هو المرجع الأعلى لكلِّ البدهيَّات، والكلمة الأخيرة في كلِّ نقاش، وقناة التَّعبير عن كلِّ عاطفة. ولا شكَّ أنَّ كل ناحية من نواحي حياة المسلم متشابكة مع الجمل القرآنيَّة ومتأثِّرة بها. فالمسلمون يستعملون الجمل القرآنيَّة طوال النَّهار كلَّ يوم إلى درجة أنَّ هذه الجمل أصبحت طبيعيَّة حتى في حقِّ النَّاطقين بغير العربيَّة. لقد تناولنا تحيَّة القرآن «السَّلام عليكم». وينبغي أن نذكر أيضًا العبارات القرآنيَّة المنتشرة في كلِّ مكان من الثقافة الإسلاميَّة (والتي هي في الواقع صيغ دعاء أيضًا):

- * بِسْمِ اللَّهِ (أو بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ): تعني الاستعانة والتبرك باسم الله
وَتُقَالُ فِي بَدَايَةِ كُلِّ أَمْرٍ.
- * الْحَمْدُ لِلَّهِ (أو الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ): تعني الشكر العام المستحق لله ﷻ،
وَتُقَالُ فِي نِهَايَةِ كُلِّ أَمْرٍ وَمَعَ كُلِّ أَمْرٍ مَفْرَحٍ.
- * إِنْ شَاءَ اللَّهُ: تعني إن أراد الله ﷻ، وتُقَالُ عِنْدَ التَّحَدُّثِ عَنِ الْقِيَامِ بِكُلِّ أَمْرٍ
فِي الْمُسْتَقْبَلِ.
- * مَا شَاءَ اللَّهُ: تعني هذا ما أَرَادَهُ اللهُ ﷻ، وتُقَالُ لِلتَّعَجُّبِ عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ
شَيْءٍ جَمِيلٍ.
- * لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ (أو لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ): تعني لا قدرة ولا قُوَّةَ لِأَحَدٍ
إِلَّا مِنْ اللَّهِ ﷻ، وتُقَالُ خِلَالَ لَحْظَاتِ الْعَجْزِ.
- * تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ: وتعني نَتَقَرَّ بِاللَّهِ ﷻ، وتُقَالُ قَبْلَ الذَّهَابِ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ.
- * حَسْبِيَ اللَّهُ (أو حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ): وتعني يكفيني الله ﷻ، أو يكفينَا
الله ﷻ كَنَصِيرٍ عَظِيمٍ، وتُقَالُ لِإِظْهَارِ الصَّبْرِ وَالرِّضَا، أَوْ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ
التَّحْدِيَّاتِ وَالشَّدَائِدِ.
- * سُبْحَانَ اللَّهِ: وتعني التَّنْزِيهِ لِلَّهِ ﷻ، وتُقَالُ لِلتَّعَجُّبِ عِنْدَ التَّحَدُّثِ عَنْ شَيْءٍ
مُذْهِلٍ.
- * اللَّهُ أَكْبَرُ: وتعني الله ﷻ هُوَ الْأَعْظَمُ، وتُقَالُ خِلَالَ لَحْظَاتِ النَّصْرِ، أَوْ عِنْدَ
مُحَاوَلَةِ التَّغْلِبِ عَلَى شَيْءٍ أَوْ فَهْمِهِ.
- * تَبَارَكَ اللَّهُ: تعني جَلَّ اللَّهُ ﷻ (كما في القرآن: الفرقان، ٢٥: ١؛ والمملك،
٦٧: ١ ومواضع أخرى). وتُسْتَعْمَلُ خُصُوصًا فِي شِمَالِي إِفْرِيقِيَّةٍ، وَتَعْنِي
أَنَّ اللَّهَ ﷻ هُوَ مُصَدِّرُ كُلِّ بَرَكَةٍ وَأَمْرٍ جَيِّدٍ.



* إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ: وتعني نحن لله ﷻ وسنعود إليه، وتُقال في أوقات المحن أو الموت.

* يَا لَطِيفُ: وتعني يا إلهي اللطيف، وتُقال في أوقات الألم أو الأذى الشديد.
* أَعُوذُ بِاللَّهِ (أَوْ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ): وتعني أطلبُ الملجأ عند الله ﷻ، أو ألتجأ إلى الله ﷻ من الشيطان الملعون، وتُقال عند مواجهة شيء شرير أو كرهه.

* اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ: وتعني يا رب بارك بسيدنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وتُقال عند محاولة تهدئة أحدهم (مثال: أثناء الغضب) أو عند محاولة تذكُّر شيء.
* لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: تعني لا يوجد إلهٌ غيرُ الله ﷻ، وتُقال قبل الموت.

فباختصار، القرآن هو الأساس المباشر للحياة الروحية الإسلامية والأخلاق والمعرفة والعلوم واللغة ووجهة النظر والعلاقات الاجتماعية والفن والثقافة، وحتى لكلامهم.

تفسير القرآن الكريم

من الممكن أن نسيء تفسير أي نصّ طويل بعدد من الطرق المختلفة. ومن خلال سوء التفسير يمكن أن يظهر النصّ وكأنّه يقول عكس ما يقصد قوله. دعنا نأخذ على سبيل المثال (هَامِلِت) وهي أطول مسرحية لويليام شكسبير (١٦١٦م) (التي هي نصف طول القرآن فحسب). يقول هاملت فيها لأوفيليا السطور المهمة التالية: «لا يمكن للفضيلة أن تلقح سلالتنا القديمة، لكننا سنتلذذ بها.» يبدو أنّها بإخراجها من السياق كما فعلنا تقول: «لا يمكن للنمر

أن يغيّر ألوانه»، وكذلك أيضًا: «الفضيلة وهم». ما نقوله العبارة في الواقع - وبمعنى محدّد يلخّص المسرحيّة بكاملها - هو: «نحتاج إلى تغيير كامل في الطّبيعة لكي نعكس حالة السّر المتأصّلة فينا». وهذا عكس ما يبدو أنّها تعنيه، ولكن المعنى يتّضح فقط حال فهمنا لسياق المسرحيّة وخطّتها الشّاملة.

دعنا نضرب مثالاً آخر، وهذه المرّة من أحد الأناجيل (والأناجيل الأربعة معاً أقصر من القرآن). رسالتها المجملّة عن الحبّ والسّلام وديويّة الآخرين واضحة جدّاً. ومع ذلك يمكن بسهولة للمرء أن يختار حسب هواه كلمات المسيح ﷺ: «لم آت لأجلب السّلام ولكن لأجلب السّيف» (إنجيل متّى ١٠: ٣٤)؛ «وتجبرهم على الدّخول» (إنجيل لوقا ١٤: ٢٣)؛ «ولكن اتّوا إليّ بأعدائي الذين لم يريدوا أن أملك عليهم واذبحوهم أمامي» (إنجيل لوقا ١٩: ٢٧). ويمكن للمرء أن يستنتج من هذه الكلمات لا غير أن المسيح ﷺ شرّع الحرب على العالم بأكمله لكي يجبر النّاس على الدّخول في المسيحيّة أو أن يقتلوا. ويوجد الخطر ذاته في تفسير القرآن. دعنا نأخذ ما يسمّى أحياناً آية السّيف:

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

تقدّم هذه الآية تعليمات شديدة الوضوح لقتل المشركين في حرب شاملة بعد انقضاء فترة محدّدة من زمن الإنذار. ولكن إذا أكمل المرء الآيات التي أتت بعد هذه الآية فإنّه يقرأ عندئذ الآية التّالية:



﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة، ٩: ١٣].

وهذه الآية تكشف عن أن الحرب مثار الحديث كانت حرباً للدفاع
بداها المشركون ضد المسلمين. وقد ابتدأ المشركون الخيانة بنقض الصلح مع
المسلمين. وهذا موقف مختلف تماماً من الناحية الأخلاقية والقانونية. وفوق
ذلك فإن الآية ترجع إلى حالة خاصة وسياق معين، وتعميمها وبسط مداها
إلى ما وراء زمنها وسياقها إلى زمن وسياق مختلفين خطأ يَبْن. لذلك لا يمكن
للمرء أن يتخير آية من النص حسب هواه، بل ينبغي عليه أن يأخذ بعين
الاعتبار السياق التام للآيات.

ولنأخذ بعين الاعتبار مثلاً أبسط لكي نوضح هذه النقطة إيضاحاً
ما وراءه شك: يحوي القرآن عبارة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ
. . .﴾ [النساء، ٤: ٤٣]. قد يستنتج بعض الناس إذا سمع هذه العبارة مفردة أن
الصلوات قد ألغيت ولا حاجة للصلاة! فكرة غريبة جداً في أي دين. لكن
العبارة في الواقع جزء من تحريم متدرج لشرب الخمر، إذ تستمر الآية لتقول:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ
. . .﴾ [النساء، ٤: ٤٣]. فالاعتباس العشوائي والاعتباس الناقص من القرآن
يمكن أن يؤدي إلى سوء فهم كلي للنص.

ومن المبهج أن القرآن ذاته يقدم قواعد تأويله بوضوح. وفي الواقع فإن
الله ﷻ يعد في القرآن: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة، ٧٥: ١٩]. لا ندخل هنا في
تفاصيل كثيرة لهذه القواعد، باستثناء القول بأنها تشمل الأمور التالية:

١ - عند النظر كما رأينا للتو إلى آية قضية يجب على المرء أن يأخذ بعين

الاعتبار كل ما ورد عنها في القرآن (وفي الحديث)، ولا يكفي مجرد اختيار الآيات التي نفّصل. يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ...﴾ [البقرة، ٢: ٨٥]. ويحذّر في مكان آخر: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر، ١٥: ٩١]، أي أجزاء متفرقة يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعض.

٢- وكما شاهدنا سابقاً، إنّ السياق والأسباب التاريخية أو مناسبات الوحي المنفردة وهي المسماة «أسباب النزول» يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار إذا كانت قابلة للتطبيق. يُنذر الله ﷻ في القرآن بوضوح أولئك الذين يخرجون الأمور من سياقها: ﴿... يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾ [المائدة، ٥: ١٣].

٣- وحتى قبل مسائل التمام والسياق هناك مسألة اللغة العربية. إنّ أي شخص يفسّر القرآن من الواضح أنّه يجب عليه أن يعرف اللغة العربية الفصحى إضافة إلى عدد من الكلمات الأعجمية التي استخدمت في القرآن. ويجب على المرء أن يعرف بالضبط معاني الكلمات العربية الفصحى، وأنّ بعض الكلمات لها معاني متعددة، وأنّ بعض هذه المعاني (وليس كلّها بالضرورة) يمكن تطبيقه على السياق المفترض. يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿حَمَّ﴾ تنزيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿كَتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فُصِّلَتْ، ٤١: ٣-١]. ويجب على المرء أيضاً أن يعرف النحو والبلاغة والكلمات المستعملة في غير معانيها (كالإغراق ومجاز الحذف والاستعارة والكناية والمجاز المرسل وما شابه ذلك)، وبناء الجمل ودلالات الألفاظ (أي ما تدلّ عليه الكلمات من المعاني، ويمكن معرفة هذا من خلال دراسة الشعر الجاهلي) والاشتقاق



(دراسة أصل اللغة ودراسة معاني أصول الكلمات العربيّة). يقول الله ﷻ:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن، ٥٥: ٣-٤].

٤- تقريباً ٥٪ من آيات القرآن فقط يتعلّق بأحكام الفقه. وهذه الآيات واضحة المعنى عموماً. أمّا بقيّة الآيات فتتعلّق بالواقع، والفضيلة، والحكمة، والهداية، والأنبياء السابقين، والكافرين، والحياة الآخرة وما شابه. وكثير من هذه الآيات مبهم ويمكن أن يكون مجازياً أو رمزياً. يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾ [آل عمران، ٣: ٧]. لذلك من الواضح أنّه يجب على أي شخص يتصدّى لتفسير القرآن أن يعرف بالضبط ما هي آيات الأحكام ولماذا. وفوق ذلك بعض آيات الأحكام مقيّد وبعضها مطلق، وبعضها عامّ وبعضها خاص. ٥- وفي الوقت الذي تكون فيه كلّ آيات الأحكام واضحة، والأغلبية الساحقة منها ظاهر الدلالة على معناه أيضاً، فإنّ بعضها مثل «كتاباً موقوتاً» في سورة النساء تستخدم لغة المجاز. وبعض الألفاظ المبهمة ظاهر، وبعضها خفيّ. فالآية التّالية على سبيل المثال تتحدّث عن البصيرة وليس البصر - ومن الواضح أنها لا تعني أنّ العميان ملعونون: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء، ١٧: ٧٢].

٦- ومن المشروع أن تُفسّر الآيات المتشابهة رمزياً ومجازياً أو حتى بالاعتبار بالأشباه والنظائر طالما أنّ التفسير صحيح لغّه ولا يتناقض مع العقيدة أو الشريعة ولا يقتصر في التعريف على معنى أو مدرسة دون أخرى. يقول النبي ﷺ: «لكلّ آية ظهر وبطن» (صحيح ابن حبان). وقد أوضح أحد العلماء المراد بالبطن في هذا الحديث بالقول:



«وَحْدَهُ أَنْ لَا يَتَخَطَّى الْكِتَابَ أَوْ السَّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ، مَعَ عَدَمِ الْجُزْمِ بِأَنَّ الْمُرَادَ هَذَا لَا غَيْرَ، فَلَا يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ تَأْوِيلِ الْبَاطِنِيَّةِ بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ وَجْهِ الاحْتِمَالَاتِ لَا بِالْعَقْلِ مِنْ غَيْرِ قِطْعِ بَشْيءٍ مِنْهَا». وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَعَنْ أَبِيهِ وَنَفَعَ بِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا . . .﴾ [الرَّعد، ١٣: ١٧]: «الماءُ: العلم، والأوديةُ: القلوب». (عبد الرحمن العيدروس: كتاب العرفُ العاطر في معرفة الخواطر).

فَمِنْ الْمَفِيدِ أَنْ يَدْرِكَ الْمُرءِ أَثْنَاءَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَنَّ بَعْضَ عُنَاوِرِ الْكَافِرِينَ قَدْ تَوَجَّدَ فِي بَاطِنِهِ كَمَا تَوَجَّدَ خَارِجَ نَفْسِهِ، وَأَنَّ جِدْلَهُمْ يَنْعَكِسُ فِي هَذَرِ نَفُوسِهِمْ؛ وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَنُذُرَهُمْ تَعَكَّسَهَا ضَمَائِرُهُمْ (النَّفْسُ اللَّوَامَةُ)؛ وَأَنَّ الْمَدَنَ الَّتِي يَأْتُونَ إِلَيْهَا هِيَ قُلُوبُهُمْ؛ وَأَنَّ الْفَضَائِلَ وَالرَّذَائِلَ الَّتِي يَذْكُرُهَا الْقُرْآنُ هِيَ مَوَاقِفُ كَثِيرَةٍ جِدًّا نَفْسَانِيَّةٍ وَدُنْيَوِيَّةٍ تَحْدُثُ بِاسْتِمْرَارٍ فِي أَنْفُسِهِمْ. وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ أُخْرَى يَشْبَهُ فِيهَا الْقُرْآنُ مَرآةً خَارِقَةً تَظْهَرُ لِلنَّاسِ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقُوا بِهِ، كَمَا ذَكَرْنَا آنَفًا، وَكَمَا هُوَ مُتَضَمِّنٌ فِي الْآيَةِ الَّتِي اسْتَشْهَدْنَا بِهَا فِي بَدَايَةِ هَذَا الْفَصْلِ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء، ٢١: ١٠].

٧- تَرْتِيبُ الْوَحْيِ: بَعْضُ الْآيَاتِ تَنْسَخُ بَعْضَ الْآيَاتِ أَوْ تَحُلُّ مَحَلَّهَا. وَبَعْضُ الْآيَاتِ تَخْصُّصُ آيَاتٍ أُخْرَى فَحَسَبَ. يَقُولُ اللَّهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة، ٢: ١٠٦]؛ لِذَلِكَ يَجِبُ عَلَى أَيِّ شَخْصٍ يَفْسِّرُ الْقُرْآنَ أَنْ يَعْرِفَ تَرْتِيبَ نَزُولِ كُلِّ آيَاتِ الْأَحْكَامِ.



قد يبدو هذا أكثر من أن يستوعبه الإنسان، ولكن الواقع أنّ هذه المواضيع كانت تُدرّس للأطفال أو المراهقين كأدوات أساسية للتفكير في مناهج التعليم القديم الابتدائي أو المتوسط في العالم الإسلامي وفي الغرب على حدّ سواء. وكانت ثلاثية التعليم القديم - أي مواضيع النحو والجدل (بما في ذلك المنطق) والبلاغة الثلاثة - تعتبر مجرد بدايات للتعليم السليم. وهي التي كانت تمكّن المرء من تعلّم كيفية طلب العلم والتفكير بشكل صحيح، وكانت هذه العلوم تعتبر ابتدائية بحيث أنّها مهّدت لانتشار الكلمة الإنجليزية «trivial» بمعنى ثانوي أو غير هام. ولذلك من المؤسف أنّ الذي يبدو صعب الفهم اليوم فيما يخصّ تأويل النصوص لا سيما القرآن كان يعتبر في الماضي طبيعياً ومعقولاً.

وبعد كلّ هذا فإنّ هناك عدداً من الأمور الأخرى يجب على مفسري القرآن معرفتها، كمعرفة ما روي عن النبي ﷺ من تفسير، وأن يكونوا قد درسوا التفسير القديمة، وأن يعرفوا ما هي الآيات العامة؛ وما هي الآيات الخاصة؛ وأن يعرفوا الأشباه والنظائر في القرآن؛ وأن يفهموا أنّه لا يوجد هناك في القرآن إسهاب؛ وأن يعرفوا أصول الفقه عموماً؛ وأن يعرفوا قوانين المنطق؛ وهلمّ جرّاً. وهذه الأمور مشارٌ إليها بوضوح في كتب مثل: «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (٩١١هـ/ ١٥٠٥م). لكن المقصود هنا: في الوقت الذي يستطيع فيه أي شخص قراءة القرآن ابتغاء مستويات مختلفة من الحكمة، فإنّ قلة من الناس مؤهلون لاستنباط الأحكام الشرعية منه، ولا ينبغي لأحد غير مؤهل أن يحاول ذلك. والأمر يشبه الطبّ: بوسع أيّ شخص أن يقدر الطّب ويستفيد منه، ولكن قلة من الناس فقط يصبحون أطباء مؤهلين. وينبغي

دراسة القرآن لسنوات كثيرة على مدرّسين أكفاء. وهذا ينطبق بوجه خاصّ على التّأويلات التي يمكن أن تؤدّي إلى إيذاء الآخرين أو إنزال العقاب بهم. وقد حذّر النّبِيُّ ﷺ من هذا على وجه الخصوص بقوله:

«مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأِيَهُ (وفي رواية: بَغَيْرِ عِلْمٍ) فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد).

ولكن هناك لحسن الحظّ ملجأٌ مُنجيًّا (أي منطقة آمنة) من هذه العاصفة لأيّ شخص لديه أسئلة عن القرآن. فالعالم العربيّ يملك في الحقيقة أقدم ثلاث جامعات في العالم، وكلّها جامعات إسلاميّة. وهذه الجامعات هي: جامعة الزيتونة في مدينة تونس (أسست سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م)، وجامعة القرويين في مدينة فاس بالمغرب (أسستها امرأة عربيّة سنة ٨٥٩ م)؛ وجامعة الأزهر في مدينة القاهرة بمصر (أسست سنة ٩٧٥ م). ويعتبر الأزهر بشكل خاصّ الآن المعقل الأكبر والأعلى مقامًا لطلب العلم عند أهل السنّة، وهو أيضًا أحد أكبر الجامعات في العالم، حيث يضمّ أربعة آلاف معهد للتعليم ونصف مليون طالب جامعي، وأكثر من مليوني طالب في المدارس الرّافدة. لذلك فإنّ أفضل شيء هو الرّجوع إلى مراكز التّعليم هذه، وإلى مدرّسيها، والأساتذة الذين درسوا هناك أو إلى أساتذة المعاهد الأحدث كدار العلوم في ديوبند والمدارس التابعة لها الفرعيّة في شبه القارة الهندية الذين يستخدمون منهجه ذاته.

حفظ القرآن الكريم

ربّما من الجدير في النّهاية أن نذكر شيئاً عن حفظ القرآن، لأنّه يبدو أنّ بعض النّاس مشوّش حول هذا الموضوع اليوم. إنّ القرآن الّذي في أيدينا اليوم هو القرآن ذاته الّذي أنزله الله ﷻ على نبيّه سيّدنا محمّد ﷺ حرفياً. وهذا فريد بين الكتب العالميّة المنزلة، وربّما حتى بين عامّة الكتب (وحتى في الكتاب المقدّس لا يوجد طبعة تطابق الطبعة التي قبلها). وكما يعرف كلّ ناشر، يتم تحرير الكتب عادة أو تحوي أخطاءً صغيرة في النسخ، والتّنضيد أو الطّباعة، حتى في عصرنا الرّقمي.

إنّ العمليّة التي حفظ القرآن من خلالها مدوّنة جيّداً ومدهشة تاريخياً. فأتثناء حياة النّبي ﷺ كلّما نزلت آيات جديدة كان صحابته ﷺ يدوّنونها على اللّخاف، والأحجار، وألواح الخشب، وجريد النّخل، والرّقوق، والجلود، ثمّ يعيدون قراءتها عليه ﷺ (لأنّ النّبي ﷺ كان لا يكتب ولا يقرأ). ولا تُستثنى بدايات الوحي الأولى من ذلك، فقد كتبت بهذه الطّريقة ذاتها. أسلم الصّحابي الّذي أصبح خليفة فيما بعد: عمر بن الخطّاب ﷺ في مكّة سنة ٦١٦م، أي قبل ستّ سنوات من الهجرة إلى المدينة، (الحدث الّذي يميّز بداية التّقويم الإسلاميّ) بعد مشادّة مع شقيق زوجته سعيد بن زيد ﷺ وأخته فاطمة ﷺ اللّذين كانا يقرءان سورة طه من رَقٍّ (ابن هشام، السيرة النّبويّة). وهذا يدلّ على أنّ القرآن كان يدوّن منذ سنوات الوحي الأولى.

لقد عمل نحو خمسة وستين من الصّحابة ﷺ كتاباً للوحي لدى النّبي ﷺ في أوقات مختلفة. وكان النّبي ﷺ يشرف بنفسه خلال حياته على التّرتيب

الدقيق للآيات والسُّور. وقد حرّم في حياته ﷺ كتابة أي شيء ليس من القرآن (بما في ذلك أحاديثه) مع القرآن، وذلك من أجل تجنّب التداخل. لذلك فإنّ القرآن بكامله كان متاحاً في شكل مكتوب خلال حياة النّبِيِّ ﷺ.

وبسبب تواصل نزول الوحي إلى ما قبل وفاة النّبِيِّ ﷺ في سنة إحدى عشرة للهجرة (١١هـ/ ٦٣٢م)، لم يُجمَع هذا الوحي في كتاب منفرد أثناء حياته ﷺ. وقد قتل عدد من صحابة النّبِيِّ ﷺ ممن كان يحفظ القرآن كلّ في المعارك بعد وفاته ﷺ. كان الصحابة ﷺ جامعةً بالمعنى الأصلي للكلمة: (أي «أمة من المُعلِّمين والعلماء»، وهذا تعريف «الجامعات» في الموسوعة البريطانية، الطبعة الحادية عشرة، ١٩١١م). فهم لم يقتصروا على معرفة القرآن ودراسته فحسب، بل كانوا خبراءاً باللغة العربيّة الفصحى، لأنّ اللّغة العربيّة كانت مركز ثقافة العرب الشفهيّة قبل الإسلام ومصدر فخرهم. لذلك عندما أخذ الموت يتخطّفهم الواحد تلو الآخر وقع الخوف من ضياع القرآن، لذلك كلّف خليفة النّبِيِّ ﷺ الأوّل أبو بكر الصديق ابن أبي قحافة ﷺ (مدّة خلافته: ١١-١٣هـ/ ٦٣٢-٦٣٤م) أحد كتّاب الوحي، وهو زيد بن ثابت ﷺ - وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلب ببراعة - بجمع كلّ الصُّحف المتفرّقة في مجلد واحد. كان زيدٌ في سنّ الشباب تقريباً، وكان النّبِيُّ ﷺ يثق به، وكذلك المجتمع المسلم الأوّل كلّ بلا أدنى ريب. وكان أحد القلّة الذي حازوا شرف شهود تنزّل أمين الوحي جبريل ﷺ لعرض القرآن كاملاً مع النّبِيِّ ﷺ خلال رمضان.

ورغم حفظ زيد ﷺ الجيّد للقرآن عن ظهر قلب، فإنّه بدأ بجمع الصُّحف والموادّ التي كانت قد كتبت بحضور النّبِيِّ ﷺ والتأكّد منها، ولم



يقبل أي صحيفة لم يُقسم على صحتها شاهدان. وكان أبو بكر ؓ قد أصدر أمراً عاماً للمسلمين داعياً أي شخص مؤهل للمشاركة، وجرت العملية في مسجد النبي ؓ في المدينة. وقد أثمر هذا الجهد جمع كامل للقرآن، بالترتيب الصحيح، في مجلد واحد، رغم اختلاف أحجام الصفحات. «وقد سُمي: الصُّحُف». وقد دُفِعَ بعد إتمام جمعه إلى زوج النبي ؓ السيدة حفصة ؓ لتحفظه.

ولم يأت عهدُ الخليفة الثالث عثمان بن عفان ؓ إلا والإسلام قد انتشر في أصقاع كثيرة نائية من آسيا إلى إفريقيا. ووصلت الأخبار إلى عثمان ؓ بأن القرآن يُقرأ بلهجات عربية متعددة في أماكن مختلفة. ولذلك قرّر عثمان ؓ أن يجعل القرآن في كتاب حقيقي «مصحف»، وأن يحفظه كما نزل، بلهجة قبيلة قريش (قبيلة النبي ؓ). فأمر عثمان ؓ بكتابة نسخ من الكتاب وأرسلها إلى المدن الكبرى. ولكي يتأكد كلياً من النص المكتوب أعاد بشكل مستقل عملية الجمع والشهادة التي قام بها أبو بكر ؓ، وجعل صحابة النبي ؓ الباقين مع لجنة من اثني عشر من علماء الصحابة يشرفون عليها، بمن فيهم زيد بن ثابت ؓ فقاموا بالمهمة. وقابلوا تلك النسخة (التي أكملوها) على صحف حفصة ؓ فكانت هي ذاتها. وقام عثمان ؓ أيضاً بمقابلتها مع مجموعة المواد المكتوبة التي كانت عند زوج النبي ؓ السيدة عائشة ؓ. ثم أمر ؓ بإحراق كلّ الصحف المتبقية من القرآن أو جعلها موافقة لما في مصحفه (خوفاً من خطأ النسخ). ثم أمر بكتابة عدد من النسخ من هذه المصاحف. وأرسلت إلى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والبحرين ومصر والجزيرة (في العراق الشمالي اليوم) واليمن (وقد حفظ بعضها حتى اليوم). واحتفظ عثمان ؓ بمصحف

لنفسه وترك النسخة الأصل في المدينة. ولم يوفر كل جيل من المسلمين منذ ذلك الحين أي جهد لضمان أن القرآن لم يتغير، ولضمان أن لا يُنشر أي قرآن غير صحيح مائة بالمائة. حقاً إن القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو طبق النسخة الأصلية التي في المدينة، ولا يوجد تفاوت فيه بين مناطق الإسلام.

وقد أدى هذا إلى تطوير الكتابة العربية تدريجياً لكي تحافظ على القراءات الصحيحة للنصوص القرآنية، لأن كثيراً من غير العرب دخلوا الإسلام واحتاجوا إلى مُعين لهم يساعدهم في النطق بالنص على الوجه الصحيح. وابتكر المسلمون أيضاً علماً كاملاً للأصوات - هو علم مخارج الحروف - لكي يتأكدوا من أن القرآن يقرأ دائماً ويلفظ بالطريقة الصحيحة (أو الطرق الصحيحة حيث إن القراءات العشر المتفاوتة قليلاً كانت محفوظة في الذاكرة ومعتبرة بها). ولذلك في الوقت الذي تخضع فيه كل اللغات الأخرى للهجات المحلية، وللمكان والزمان (مثال: الإنجليزية الإنجليزية، والإنجليزية الأمريكية، والإنجليزية الأسترالية، والفرنسية الفرنسية، والفرنسية الكندية، وهلم جرا)، فإن لغة القرآن تكتب وتقرأ وتُنطق بالطريقة ذاتها في كل زمان، وفي كل مكان، ومن قبل كل عرق - وهذا على حساب جهد شاق من المجتمع الإسلامي بأكمله في كل مكان. وزيادة على ذلك، تتم قراءة أجزاء من القرآن بصوت عال ثلاث مرات على الأقل في اليوم (في ثلاث من الصلوات الخمس) في كل مسجد في العالم كل يوم منذ زمن النبي ﷺ - بالطريقة ذاتها بدون اختلاف.

وباختصار، لا يوجد نص في التاريخ كان محل هذا القدر الكبير من العناية والإحكام في حفظه كالقرآن. ورغم هذا، فقد حاول على مدى القرنين



الماضيين من السنين وابل متواصل من المستشرقين القول بأنّه كانت هناك تغييرات في القرآن. لكن ادعاءاتهم جميعاً لم تأت بشيء، بل أظهرت أنّها ناجمة عن شكّ حذر، وحماس في التبشير، أو حتى ربّما مجرد النكّاية (انظر تاريخ النصّ القرآني لمحمّد مصطفى الأعظمي). لقد حفظ القرآن بالأحرى بطريقة معجزة، حتى أنّ قصّة حفظه محفوظة. وقد جرّم الله ﷻ بهذا في وعده القاطع في القرآن ذاته قبل أربعة عشر قرناً، وهذا في حدّ ذاته أحد براهين القرآن. يقول الله ﷻ:

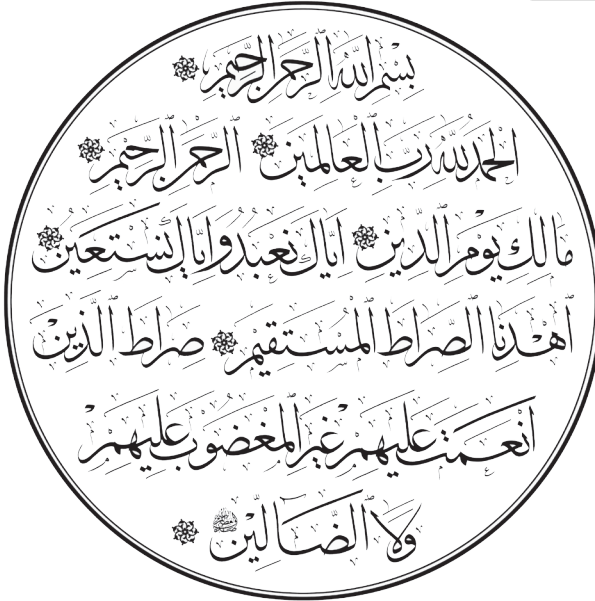
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر، ١٥: ٩].



لِمَ يجب أن نعرف هذا كلّ؟

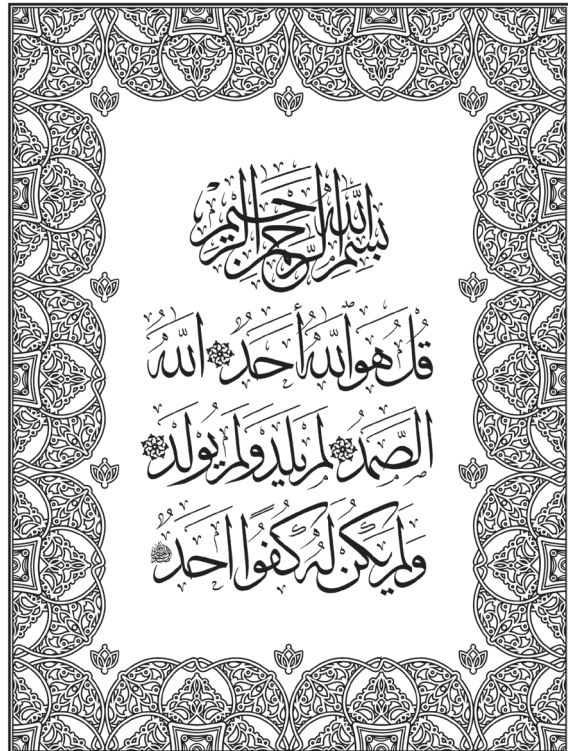
لعلّ هذا كلّ يضيق عن الاستيعاب، لكنّ من المهمّ للغاية أن يكون واضحاً. هناك حروب وأعمال إرهابيّة في كلّ أنحاء العالم يشنّها المتطرّفون مدّعين أنّ القرآن هو المصدر لجرائمهم وأفعالهم الشريرة. وأحد أسباب هذا هو ببساطة الجهل بالقرآن. يستمع المتطرّفون إلى شيوخ جهلاء غير أكفاء يقدّمون لهم روايتهم الخاصّة وتأويلاتهم الانتقائيّة للقرآن أو الحديث، راّدين إجماع علماء المسلمين عبر العصور. ولن تُحلّ هذه المعضلة إلّا إذا فهم النّاس أنّ التفسير الصحيح للقرآن يستغرق جهداً كبيراً وعلماً واسعاً. يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر، ٣٥: ٢٨].

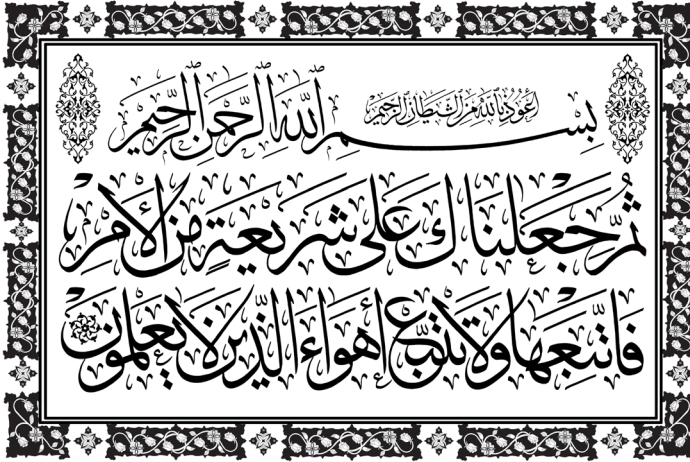




الفاتحة، ١

الإخلاص، ١١٢





الجاثية، ٤٥ : ١٨



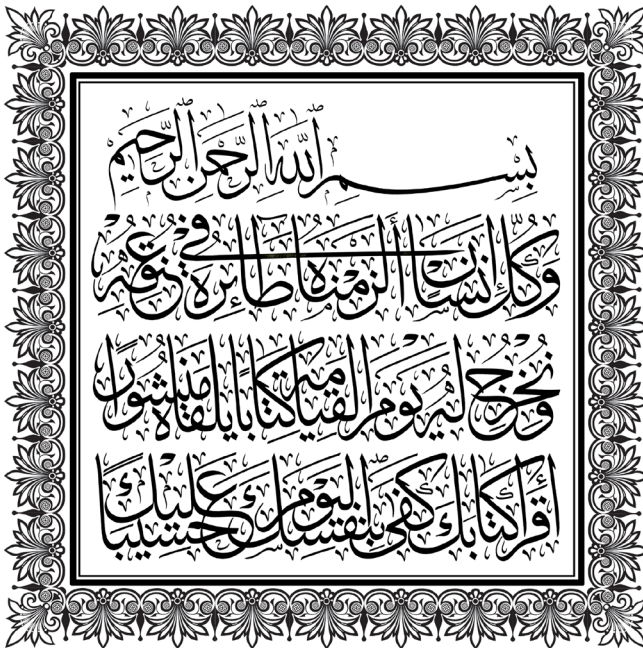
النساء، ٤ : ٥٨

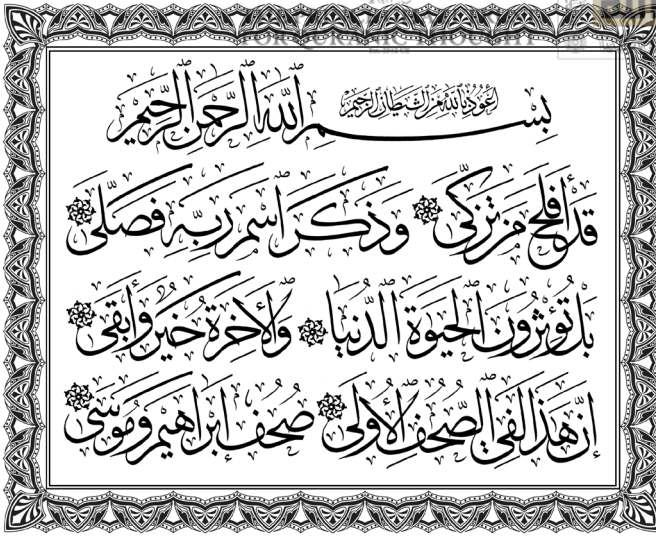


هود، ۱۱: ۱۱۸-۱۱۹



الإسراء، ۱۷: ۱۳-۱۴





الأعلى، ٨٧: ١٤-١٩



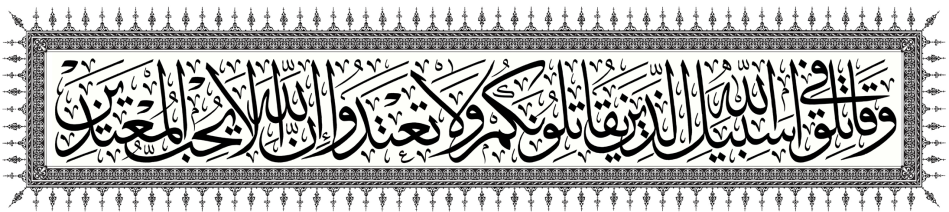
طه، ٢٠: ١٤

طه، ٢٠: ٤٩-٥٠





الحديد، ٥٧: ٢٠



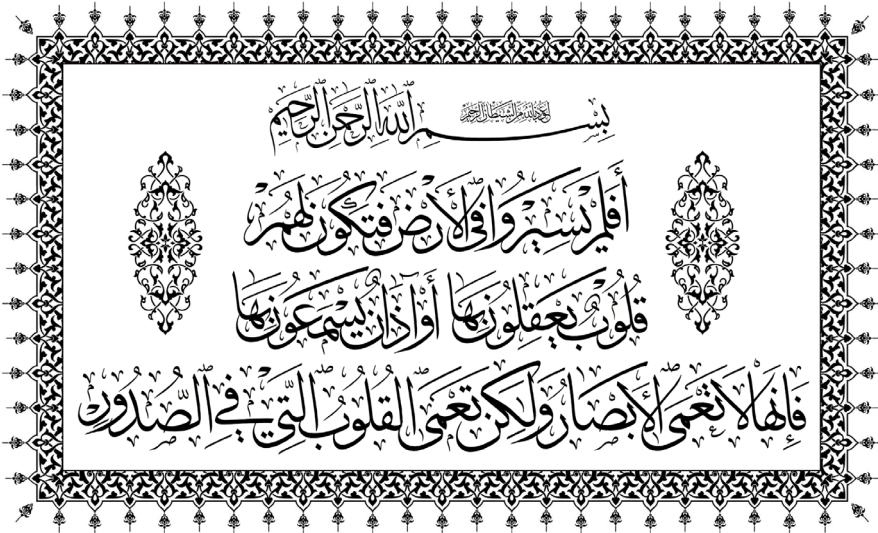
البقرة، ٢: ١٩٠



الأنبياء، ٢١: ١٠



الأنبياء، ٢١: ١٠٧



الحج، ٢٢: ٤٦

الفصل السابع

مَنْ هُوَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ؟

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

[الأنبياء، ٢١: ١٠٧]



من هو سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ بالنسبة للمسلمين؟

ليس المقصود مَنْ كان سيّدنا محمد ﷺ؟ فلقد تناولنا ذلك قبل قليل. ولكن من يكون ﷺ؟ ومن هو سيّدنا محمد ﷺ للمسلمين اليوم باعتباره قدوة؟ ومن هو ﷺ بالنظر إلى حقيقته الروحية الخالدة؟

يميل الناس الذين لا يفهمون النَّبِيَّ ﷺ من غير المسلمين وبعض المسلمين إلى السؤال عن ماهيّة النَّبِيِّ ﷺ فقط. وهذا يضيع جوهر البحث. إذ الجواب على هذا السؤال يقود إلى حقائق تاريخيّة وإلى تفاصيل يمكن إساءة تأويلها عندما تخضع لدوافع مريبة، أو عند عدم فهم السّياق أو الظّرف.

لكن يرى المسلمون النَّبِيَّ ﷺ مثلاً مجسّداً للفضيلة الإنسانية والكمال الروحيّ. هذا هو الجواب عن السؤال: مَنْ هو ﷺ بالنسبة لهم؟



الفضائل الإنسانية

ولد سيدنا مُحَمَّدٌ ﷺ عام ٥٧٠ ميلادية تقريباً، في بلدة عربية صحراوية صغيرة اسمها «مكة»، كانت تدعى في الأصل «بَكَّة» (انظر القرآن الكريم: آل عمران، ٣: ٩٦؛ والمزامير ٨٤: ٥-٦). كان النَّبِيُّ ﷺ من بني هاشم من قبيلة قريش التي استقرَّ جدُّها الأعلى سيدنا إسماعيل عليه السلام في هذه القرية الصحراوية (انظر سفر التكوين: ٢١/ ٢١؛ ٢٥: ١٨). لم يكن للنَّبِيِّ ﷺ إخوة أو أخوات. توفي والده ﷺ قبل ولادته، ثم توفيت أمه عندما كان ما يزال طفلاً صغيراً. ونشأ بالتالي يتيماً رباه في البداية جدّه لأبيه عبد المطلب، ثم عمّه أبو طالب عندما توفيَّ جدّه. ورغم أنه كغيره من معظم العرب في زمانه لم يتعلَّم ﷺ القراءة ولا الكتابة، فقد نشأ ﷺ وأصبح تاجراً يسافر طويلاً في طرق الصحراء على ظهور الجمال يتاجر بهال غيره لكي يكسب قوته. وكان أميناً بطبيعته بحيث أن أهل مكة سمّوه «الأمين»، أي الجدير بالثقة. وعاش ﷺ حتى سنّ الأربعين حياة هادئة. وفي سنّ الأربعين وبينما كان يتعبّد منفرداً (كعادته) بدأ ﷺ يتلقّى الرّؤيا والوحي (وهو القرآن). وقد دفع هذا الوحي سيدنا مُحَمَّدًا ﷺ إلى دعوة الناس في مكة إلى إصلاح عاداتهم السيئة. ودفعه بوجه خاص إلى دعوة المكّيين إلى التوقّف عن عبادة أصنام من الحجارة وإلى عبادة الله الواحد فقط. كما دعا إلى التوقّف عن وأد بناتهم والعناية بالأيتام، والإنصاف في معاملة النساء، وإعطاء الصدقات للفقراء والضعفاء، وتحرير رقاب عبيدهم كعمل صالح. ردّ زعماء مكة على رسالته بالعداء لأنّهم فهموا أنّ تلقّيها لن يغيّر طريقتهم في الحياة فقط، بل سيغيّر ميزانهم الاجتماعية والاقتصادية أيضاً. فأرسلوا إليه وفداً للتفاوض مع العرض التالي:

«إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا،... وإن كنت تريد مُلْكًا ملَّكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رِئًا تراه ولا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطَّبَّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِّكَ منه» (ابن هشام: السيرة النبوية).

استمرَّ إصرار النَّبِيِّ ﷺ على الدَّعوة. فردَّ عليه زعماء مَكَّة عندئذٍ بسوء المعاملة والعنف ضده وصدَّ أتباعه. وتعرَّض كثير من الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ إِلَى الْمَذَلَّةِ وَالْمَقَاتِعة وَالْأَزْدِرَاءِ وَالسَّبَابِ وَالْأَذَى، وأخيرًا إِلَى التَّعْذِيبِ أَوِ الْقَتْلِ. وبعد نحو اثني عشر عامًا من تحمُّلِ الْعَدَوَانِ بِصَبْرٍ (بها في ذلك ثلاث عشرة محاولة اغتيال لِلنَّبِيِّ ﷺ).

وفي سنة ٦٢٢م، هاجر النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بِلْدَةِ تَبْعُدَ (٥٠٠ كيلومتر) شَمَالِ مَكَّةَ (تَعْرِفُ الْآنَ بِالْمَدِينَةِ) الَّتِي دَعَاهُ ﷺ رُؤُوسَاؤُهَا وَأَتْبَاعُهُ إِلَى الْإِنْتِقَالِ إِلَيْهَا وَالْإِسْتِقْرَارِ فِيهَا. وَهَنَّاكَ نَظْمُ النَّبِيِّ ﷺ أَتْبَاعُهُ فِي مَجْتَمَعٍ وَلأَوَّلَ مَرَّةٍ - بَعْدَ تَلَقِّي الْوَحْيِ (الْحَجَّ، ٢٢: ٣٩-٤٠) أَمْرًا بِفَعْلِ هَذَا - مَقَاوِمَةً مُسَلَّحَةً إِذْ كَانَ رُؤُوسَاءُ كُفَّارِ مَكَّةَ حِينَهَا يَشْنُونُ حُرُوبًا مُسْتَمِرَّةً عَلَيْهِ ﷺ وَعَلَى أَتْبَاعِهِ، وَيَحْرَضُونَ الْآخَرِينَ عَلَى فَعْلِ هَذَا أَيْضًا.

وخلال ثمانية أعوام أصبح سيدنا محمد ﷺ أقوى قائد في شبه الجزيرة العربية. لم يكن ﷺ ينتصر دائمًا في غزواته، لكنّه كان يكسب القلوب باستمرار. وتدفَّقَ الْمُعْتَنِقُونَ لِلْإِسْلَامِ بِشَبَاتٍ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. فَقَادَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَئِذٍ أَتْبَاعَهُ إِلَى تَحْرِيرِ مَكَّةَ. وَرَغْمَ الْوَحْشِيَّةِ الَّتِي لَا دَاعِيَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الْكُفَّارِ، وَسَفْكَ الدِّمَاءِ وَالْمَرَارَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِ ﷺ وَبِأَتْبَاعِهِ، لَمْ يَسْفِكْ ﷺ قَطْرَةً دَمٍ وَاحِدَةً فِي فَتْحِ مَكَّةَ وَلَمْ يَنْتَقِمْ أَبَدًا. وَرَفَضَ ﷺ حَتَّى تَوْبِخَ أَهْلَ مَكَّةَ لِحُظَّةِ انْتِصَارِهِ. وَقَالَ



لهم: «أقول لكم ما قاله أخي يوسف: ﴿... لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ...﴾» [يوسف، ١٢: ٩٢]. اذهبوا فأنتم الطلقاء!» (البهقي: السنن الكبرى).

عاش سيّدنا محمد ﷺ عامين آخرين أو ما يقاربهما حتى ٦٣٢ م. وحتى بعد انتصاره قضى حياته ﷺ كما كان يفعل دائماً: في الصّلاة والعبادة، يقاسي الجوع (كان يشدّ حجراً على بطنه ليخفّف ألم الجوع)، ويقاوم النّوم وهو يقوم اللّيل يصليّ حتى تورّمت قدماه الشريقتان. وتصدّق ﷺ بكل ما يملكه تقريباً (ما عدا أشياء شخصيّة قليلة) واحتفظ بثوب واحد زائد. كان ﷺ يحبّ الطّهارة والنّظافة، وكان يحافظ على نظافته بدقّة. وكان له ﷺ ثلاثة أولاد أحبّهم، كلّهم توفوا وهم صغار، وأربع بنات، ثلاث منهن توفين في حياته ولم يتركوا عقباً. وكانت عنده حتى سنّ الخمسين أو ما يقاربها زوجة واحدة هي السيّدة خديجة ﷺ، التي كانت تكبره بخمسة عشر عاماً. تزوّجا عندما كان عمره ﷺ خمسة وعشرين عاماً، وكان عمرها يومئذ أربعين عاماً، وتشاركا بزواج منسجم لمدة خمسة وعشرين عاماً حتى وفاتها ﷺ. وتزوّج سيّدنا محمد ﷺ بعد وفاتها عدّة مرّات، أغلبها لكي يقوي الأحلاف القبليّة (أو كما في حالة زوجته الثّانية السيّدة سودة لمساندة أرملة). قال ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» (أخرجه الترمذي). وقال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً» (أخرجه الدارمي) فعلم النّاس بالأسوة والفعل قبل القول.

أحبّ النّبيّ ﷺ النّاس عامّة. وكان بالتأكيد ﷺ لطيف المعشر ورحيماً يسارع إلى العفو حتى في الحرب. كان يغضب أحياناً، ولكنّه ﷺ لم يكن يرفع صوته أو يحتدّ. كان ﷺ سهلاً، لطيفاً، ودوداً، دمثاً، متواضعاً، يحبّ التوسّط في كلّ الأمور. ونصح قائلاً: «أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ

الْخُلُقِ» (أخرجه الترمذي). وكان ﷺ يمزح أحياناً مع الذين حولوه ولكن ذلك لم يحط من قدره ﷺ أبداً. وعندما أتت إليه أم أيمن بركة ﷺ، وكانت سيّدة مرموقة من أهل بيته منذ أن كان ﷺ طفلاً، تسأله: يا رسول الله احمليني، قال: «أَحْمِلُكِ عَلَى وَلَدٍ نَاقَةٍ»، فقالت يا رسول الله إنّه لا يطيقني ولا أريده، فقال: «لا أَحْمِلُكِ إِلَّا عَلَى وَلَدٍ نَاقَةٍ» (ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير). فابتسم ﷺ فأدرت أن كلّ جمل هو ابن ناقة. وحتى في دعابته، لم يكن يكذب أبداً. كان يمزح ولا يقول إلّا حقاً. قال ﷺ: «أكبر الكبائر الشُّركُ باللهِ والقتلُ وعُقُوقُ الوالدينِ وشهادةُ الزُّورِ» (أخرجه البخاري). وقال ﷺ أيضاً: «مَنْ عَشَنَّا فَلَيْسَ مِنَّا وَالْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ فِي النَّارِ» (أخرجه أبو داود). ولم يدّعِ ﷺ أبداً أنّه ليس بشراً فانيّاً. وقد أمره الله ﷻ في القرآن بأن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف، ١٨: ١١٠]. وكان ﷺ يحبّ فعل الخير. قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يُحبّ لجاره ما يُحبّ لنفسه» (أخرجه مسلم).

تقدّم هذه التفاصيل عرضاً موجزاً للفضائل الإنسانية التي عرفه المسلمون بها أي من هو ﷺ بالنسبة لهم. وفي القرن الأخير، شرح القائد الهندي العظيم المهاتما غاندي ذلك كالآتي:

«أردت أن أعرف أفضل ما في حياة الرّجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر. لقد أصبحت مقتنعا كلّ الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته في تلك الأيام في نظام الحياة، بل كان ذلك من خلال البساطة الشديدة للرّسول، وفناء حظوظ النّفس، مع صدقه في الوعود، وإخلاصه لأصحابه

وأتباعه، وجرأته، وثقته المطلقة بالله وبرسالته. هذه الصفات هي التي مهّدت أمامه الطريق، وتخطّت المصاعب وليس السيّف» (تجاري في السجن: الجزء ٢٩).

الكمال الروحيّ

بقي أن نستدرك أنّ كلّ ما قاله النَّبِيُّ ﷺ وفعله كان له دافع واحد: كان يقوم به ابتغاء وجه الله. يقول الله ﷻ له: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأَنْعَام، ٦: ١٦٢].

كانت محبة الله ﷻ أساس تقوى النَّبِيِّ ﷺ لله. عندما تقع في حبٍّ أحدٍ فإنّك تفكر به وتتحدّث عنه دائماً، أو تحاول أن تكون معه. ومحبة الله تشبه هذا. قالت السيّدة عائشة ؓ زوج النَّبِيِّ ﷺ عنه بأنّه: «كان يذكُر الله في جميع أحيانه» (أخرجه مسلم). فقد كان ذكر الله المتواصل يميّز حياته. ولم ينسَ ربّه أبداً، ولم يخلُ عنه مهما مرّ به من الشدائد والصّعاب. هذا هو الكمال الروحيّ، وهذا هو سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ في حقيقته الروحيّة. ومن هنا يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب، ٣٣: ٢١].

مهمّة سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ

دين الإسلام هو آخر دين عالميّ. ويعني هذا أنّه الدين الأخير الذي يمكن لأيّ كائن بشريّ - بغضّ النظر عن الطّائفة أو الجنس أو الأمّة التي ولد فيها

- أن يختار (أو هو مدعو) للدخول فيه. وقد وُصفت رسالة سيدنا محمد ﷺ في القرآن بأنها تحقيق لنبوءات الإنجيل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف، ٧: ١٥٧].

ما هي هذه الأوصاف التي وردت في التوراة والإنجيل بالضبط؟

١- يرى علماء المسلمين أن أحدها ما ورد في سفر التثنية (١٨: ١٥):
«ربكم الله سيعث لكم نبياً مثلي من أوسطكم، من إخوانكم. وستسمعون». من الواضح أن النبي المذكور هنا لا يمكن أن يكون سيدنا عيسى المسيح ﷺ، لأن سيدنا عيسى المسيح ﷺ لم يكن من إخوان أبناء إسرائيل (أي منحدرًا بالفعل من إسماعيل أخي إسحاق)، ولكنه من نسل إسرائيل من خلال أمه المباركة. وقد أشير إلى هذا النبي ذاته في إنجيل يوحنا (١: ٢١ و ٢٥) عندما سُئل يحيى: «هل أنت النبي؟» (الذي ليس المسيح ﷺ وليس إلياس ﷺ أيضًا)، فأجاب ﷺ بأنه ليس ذاك النبي. والشيء ذاته صحيح بالنسبة لكل الأنبياء الآخرين المذكورين في الكتاب المقدس الذين أتوا بين سيدنا عيسى وسيدنا موسى ﷺ (حيث إنهم كلهم كانوا يهودًا أيضًا). وإلى جانب ذلك، فإن عيسى ﷺ لم يكن كموسى ﷺ. يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمَتْهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ۖ﴾ (النساء، ٤:



١٧١). بينما كانت ولادة سيّدنا موسى ﷺ بطريقة طبيعيّة، وقد تزوّج، وأنجب أطفالاً، وتلقّى الوحي، وقاد قومه، وقاتل في المعارك، وتوفّي بطريقة طبيعيّة. وكان سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ أكثر شَبَهًا بسيّدنا موسى ﷺ في كلّ هذه الصّفات.

٢- يرى علماء المسلمين في نبوءة سيّدنا يعقوب وهو على فراش الموت حول شخص عظيم سيأتي بلقب شيلون (في سفر التكوين ٤٩/ ١٠ - وانظر أيضًا التلميح إليها في القرآن: (البقرة، ٢: ١٣٣)) إشارةً إلى سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ: «لا يزول قضيبٌ من يهوذا ومشترعٌ من بين رجليه حتى يأتي شيلون: وله خضوعُ الشّعوب». كان الأنبياء والملوك العبرانيّون من سيّدنا داود ﷺ إلى سيّدنا عيسى المسيح ﷺ جميعًا من بين صلب يهوذا، وبعدهم القضيب (الذي يرمز إلى السّلطة الدنيويّة/ الزّمنيّة) والمشرّع (للأحكام المنزلّة) اجتماعًا في رجل واحد في التاريخ: هو سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ، وإليه كانت طاعة الشّعوب في البلاد التي صدرت فيها النّبوءة - في فلسطين أو مصر.

٣- يرى علماء المسلمين أنّ هناك كثيرًا من الإشارات الواضحة الأخرى إلى سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ في الإنجيل (بما في ذلك فقرات كثيرة في المزامير؛ وسفر التّثنية ٣٣: ٢؛ «راكب الجمل» في أشعيا، ٢١: ٧؛ ١٣-١٦؛ أشعيا ٢٩: ١٢؛ أشعيا ٤٢: ١١-١٧، واسمه مذكور بشكل خاصّ بالعبريّة في أغنية سليمان ٥: ١٦ وفي حبقوق ٣: ٣).

٤- وأخيرًا فإنّ علماء المسلمين يرون القرآن الكريم وسيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ روح الحقيقة («الفارقليط» وهو حرفيًا المساعد أو الشّفيّع) مشيرين إلى كلمات سيّدنا عيسى ﷺ في الإنجيل: «إنّ لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم لا تستطيعون أن تتحمّلوا الآن، أمّا متى جاء ذاك روح الحقّ سيرشدكم إلى

سبيل الحقّ لأنّه لا يتكلّم من نفسه، بل كلّ ما يسمع يتكلّم به» (إنجيل يوحنا ١٦: ١٣-١٢). وهذا لأنّ هناك إشارة في القرآن إلى هذه البشارة:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾
 [الصف، ٦١: ٦].

أحمدُ إذن هو الاسم القرآني لسيدنا مُحَمَّد ﷺ يوم القيامة عندما يكون شفيعاً للناس عند الله ﷻ. وهذا حقيقة معنى كلمة «الفارقليط» أي الشفيع. وفوق ذلك، فإن نبوءة سيدنا عيسى ﷺ أيضاً «لأنّه لا يتكلّم من نفسه بل كلّ ما يسمع يتكلّم به»، قد تحققت بمجيء سيدنا مُحَمَّد ﷺ. لأنّ تلك هي بالضبط الكيفيّة التي تلقى بها سيدنا مُحَمَّد ﷺ القرآن ونقله. وهذا موصوف في القرآن نفسه كالتّالي:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾
 [النجم، ٥٣: ٥-٣].

كلّ هذا يشرح لماذا سمّي سيدنا مُحَمَّد ﷺ: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب، ٣٣: ٤٠]؛ فالخاتم يعني الأخير ولكن أيضاً التّمام. ويشرح أيضاً لماذا يُعدّ الإسلام آخر دين عالمي، ولماذا بالتّالي يعتقد المسلمون أنّ الإسلام قد حلّ محلّ جميع الأديان الأخرى: من الواضح أنّ خاتم الأنبياء تعني الدّين الأخير (حيث إنّ الأنبياء الصّديقين فقط يأتون بالأديان الحقيقيّة). وهذه كانت رسالة سيدنا مُحَمَّد ﷺ. يقول الله ﷻ في القرآن:



﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿[الأحزاب، ٣٣: ٤٥-٤٦].

محبة النبي ﷺ

يحبّ المسلمون سيّدنا مُحَمَّد ﷺ كجزء من إيمانهم. يقول الله ﷻ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ [الأحزاب، ٣٣: ٦]. وهذا الحبّ ليس بسبب أهميّة رسالته ﷺ وحسب، بل هو بالأحرى بسبب الطّريقة التي أدّى بها هذه الرّسالة؛ بسبب محبّته لهم، وبسبب محبة الله ﷻ له ﷺ. وهذا موضوع واسع في الأدب الإسلاميّ المختصّ بالأدعية والصلوات.

وكان هناك عبر التّاريخ (وما يزال إلى اليوم) آلاف، إن لم تكن ملايين، من القصائد والمدائح الجميلة التي كتبها المسلمون محبةً بسيّدنا محمد ﷺ. والقصيدة الأشهر هي «البردة» للشّاعر البربريّ شرف الدّين البوصيري (٦٠٨-٦٩٣هـ / ١٢١١-١٢٩٤م). وربّما كان كتاب الصّلوات الأشهر هو «دلائل الخيرات» لمحمد بن سليمان الجزولي (٨٠٧-٨٧٠هـ / ١٤٠٤-١٤٦٥م). ويكفي هنا مع ذلك أن نقبس كلام الله ﷻ:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة، ٩: ١٢٨].

وستستمر المحبة بعد الموت حتى يوم الحساب، إذ يعتقد المسلمون أنّ النَّبِيَّ ﷺ سيشفع لهم يوم القيامة ليغفر الله ذنوبهم. فالنّبيّ ﷺ إذن رحمة

للمسلمين ليس في هذا العالم وحسب، بل في الآخرة أيضًا. وبالتالي فإن المسلمين يصلّون ويسلمّون على نبيّهم ﷺ باستمرار. وقد أمروا بذلك حتّى في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب، ٥٦:٣٣]. وهذا مقترنًا بإرشادات النبي ﷺ الرّحيمة لكلّ الكائنات الحيّة - وهو موضوع السّاعة - ولكلّ البيئّة الطّبيعيّة والروحيّة يفسّر كلام الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء، ٢١:١٠٧]. وتقدّم هذه الكلمات، بعناية إلهيّة، القاعدة الذهبيّة التي يمكن أن يقارن بها أي شيء يُنسب اليوم إلى النبي ﷺ، أو إلى دين الإسلام عمومًا.

أقوال النبيّ ﷺ

إنّ أقوال سيدنا محمد ﷺ (وهي الحديث، جمعه أحاديث) وأوامره هي المصدر الأشدّ أهميّة في التشريع الإسلاميّ (الشريعة) بعد القرآن. وهذا لأنّ الله ﷻ يقول في القرآن: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ [الحشر، ٥٩:٧].

والأحاديث مصدر مهمّ لمعرفة تفاصيل العبادات في الإسلام والإرشادات الأخلاقيّة والعقيدة والثّقافة والمعرفة عمومًا. وبالتالي فإنّ دراسة الحديث أساس للدراسات الإسلاميّة، ولا يمكن لدين الإسلام أن يُفهم بشكل صحيح من دون أخذ الحديث بعين الاعتبار. لقد استشهدنا بعدد منها سابقًا؛ ونتابع القول بأنّها عمومًا روائع في البلاغة، وكثير منها أمثالٌ مُحكمة في الحكمة وصفاء الخلق وهداية القلوب. ونكتفي هنا بالاستشهاد بحديث

واحد فقط كمثال (وهو نموذج في تأكيده على التحلي بالأخلاق والحث على فعل الخير):

«مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ. وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ يتلُونَ كتابَ اللهِ ويتدارسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَخَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» (أخرجه مسلم).

لكن دراسة الحديث ربما تكون جزءاً من الدراسات الإسلامية الأشد تعقيداً وجدلاً، ومن المحتمل أن تكون خطيرة كما سنرى لاحقاً. وذلك لأن هناك أكثر من خمسمائة ألف نص من الأقوال المنسوبة إلى النبي ﷺ، وكثير منها موضوع. وقد أخذ علماء المسلمين أكثر من مائتي ألف حديث مأخذ الجد بشكل كافٍ لتستحق جدارة المزيد من الفحص. ويذكر أن السيوطي قد حفظ هذا القدر عن ظهر قلب. لكن أغلب هذه الأحاديث (ربما أكثر من الثلثين) هي طرق للحديث ذاته مروية بأسانيد مختلفة أو بألفاظ متقاربة. ويبقى من أربعين ألفاً إلى ستين ألف حديث هي أحاديث مفردة معتبرة بشكل كامل. إن تحديد الأحاديث الصحيحة علم مهم ومعقد ومتواصل في الإسلام. لقد قسم المسلمون الأحاديث إلى فئات كثيرة ومختلفة بشكل دقيق، تراوح

من الحديث الموضوع إلى الحديث الصحيح. وهو تخصص للمختصين يستلزم أحكاماً ومناقشات مرتبطة بعلوم اللغة العربية والمنطق والطبقات والتاريخ وعلم النفس والأخلاق. ولا يستلزم معرفة نصوص (متون) الأحاديث فحسب، بل معرفة سلاسل الإسناد أيضاً.

وهناك نحو عشرين ألفاً من الرواة المختلفين من الرجال والنساء تظهر أسماءهم في سلاسل الإسناد، وقد درس علماء الحديث كلاً منهم على حدة - متى عاشوا، وإلى أين رحلوا، ومن لقوا، وعمن رَوَوْا، وما إذا كذبوا ولو مرةً، وما إذا كانوا يتمتعون بقوة الحفظ - لكي يعرفوا إن كان بالإمكان اعتبارهم ثقات. قال التاج السبكي في الحافظ الذهبي: «وأما أستاذنا أبو عبد الله فبحر لا نظير له... وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، كأنما جُمِعَتْ له الأمة في صعيد واحد فنظرها، ثم يُجَبِّرُ عنها إخبار من حضرها» (طبقات الشافعية ٩/ ١٠١).

وهناك إجمالاً أكثر من خمسين من المصنّفات في الحديث ذكرت فيها الأحاديث بالأسانيد يرجع إليها علماء المسلمين بانتظام، ووراء ذلك نحو مائتين من المصنّفات الأخرى في الحديث. ويُعتقد أن آخر المصنّفات التي خرّجت أحاديث لم تُخرّج من قبل هي «السّنن الكبرى» لأبي بكر البيهقي (٤٥٨هـ / ١٠٦٦م). ومن بين الخمسين مصنفاً المستخدمة بانتظام تسعة أصولٍ يعتمد عليها العلماء في غالب الأحيان هي: الموطأ للإمام مالك، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجه، وسنن الدارمي، ومسند أحمد. وهي تحوي نحو خمسين ألف حديث مختلف.

ومن الكتب التسعة هناك مصنفان يعتبران عموماً - مع بضعة استثناءات معروفة قليلة جداً - في أعلى مراتب الصحة. وهذان المصنفان هما: الجامع الصحيح لمحمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ / ٨٧٠م)، والجامع الصحيح لتلميذه مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ / ٨٧٥م).

يحتوي صحيح البخاري سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعين حديثاً، تصل بعد حذف المكرر إلى ألفين وستمائة واثنين من الأحاديث تقريباً. ويحتوي صحيح مسلم نحو اثني عشر ألف حديث ترجع بعد حذف المكرر إلى نحو أربعة آلاف. وقد ألقت شروح مطولة لكلا الصحيحين، أشهرها ربما كتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ / ١٤٤٩م) وهو شرح لصحيح البخاري أشبه بالموسوعة عنوانه فتح الباري، وشرح الإمام يحيى النووي (٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) لصحيح مسلم.

ويبلغ عدد الأحاديث المذكورة في كلا الصحيحين ٢٣٢٦ حديثاً تقريباً، ومن الواضح أنها في أعلى درجات الصحة، وتسمى المتفق عليه، لكن ربما الأكثر صحة منها كلها هي الأحاديث المنتقاة من مجموع الأحاديث كلها مما رواه عشرة أو أكثر من الرواة المختلفين بأسانيد صحيحة. وتسمى هذه الأحاديث «المتواترة» أي التي رواها جمع غفير. وبعض الأحاديث في البخاري ومسلم تدرج تحت هذه الفئة. ومن الواضح أنه من المستحيل أن تكون هذه الأحاديث المتواترة موضوعة، ولأنها قطعية الثبوت فإنه يُستدل بها في إثبات العقائد، ولكن لا يوجد عدد كبير منها. إذ يروي السيوطي مائة وأحد عشر حديثاً منها فحسب في كتابه (قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة). وأورد الكتّاني (١٣٤٥هـ / ١٩٢٧م) في كتابه «نظم المتناثر في

الحديث المتواتر» ثلاثمائة وعشرة أحاديث لكن بين السيوطي والكتّاني خلاف في ذكر بعض الأحاديث.

وأخيراً فمن الضروري أن نلاحظ أنّه خلافاً للآيات القرآنيّة التي كان آلاف المسلمين يترّلوها حرفياً منذ وقت نزولها فحفظت جميعها، فإنّ الأحاديث كان يتذكّرها الآحاد عموماً كلّ على حدّة. ولذلك ليس من شرط الحديث بما فيه الحديث المتواتر أن يروى حرفياً بلفظه، بل كانوا أحياناً يروون معانيها. وقد أخذ العلماء هذا دائماً بعين الاعتبار، حيث إنّ بعض الصّحابة رّبما فهموا بعض الأحاديث بطريقة تختلف عن فهم بعض، أو ربّما وهموا في معرفة السّياق، أو حتى أخطأوا في فهم دلالة بعض الكلمات. ومن المشهور أنّ السيّدة عائشة رضى الله عنها زوجة النّبي رضى الله عنه انتقدت مرّة بعض كبار الصّحابة رضى الله عنهم على خطئهم وسوء تطبيقهم لحديث مهمّ عن مكانة النّساء، مُظهرة بدقّة مدى أهميّة هذه المسألة. فعندما ذكر عند السيدة عائشة رضى الله عنها أنّ المرأة والكلب والحمار يقطع الصلاة قالت: «شبهتمونا بالحرر والكلاب؟!... والله لقد رأيت النّبي رضى الله عنه يصلي وإني على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة (أخرجه البخاري ومسلم).

الاقتداء بالنّبي رضى الله عنه

إضافة إلى الأحكام الشرعيّة، تشكّل كتب الحديث قاعدة السنّة النّبويّة، وهي ما اعتاد النّبي رضى الله عنه فعله. وكما رأينا سابقاً، يُعدّ سيّدنا مُحَمَّدٌ رضى الله عنه الأسوة الحسنة للبشر، ومثال الفضيلة الإنسانيّة والكمال الرّوحي. كما قال شاعر عربي:

مُحَمَّدٌ بَشَرٌ وَلَيْسَ كَالْبَشَرِ بل هو يَأْقُوْتَةُ والنَّاسُ كَالْحَجَرِ



لذلك فإنّ أتباع سنّته، لا سيما في أمور تتعلق بالعبادة وتحقيق التقوى هو أفضل طريقة لكي يصبح المرء محسنًا (أي يصل إلى مقام الإحسان). وقد رأينا في الفصل الثاني أنّ الله ﷻ يحبّ المحسنين. ولذلك فاتباع السنّة بإخلاص هو مرادف للإحسان بل إنّه يزيد من محبة الله ﷻ. يؤكّد الله ﷻ هذا في القرآن في قوله:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران، ٣: ٣١].

وهذا يفسّر سبب محاولة المسلمين محاكاة سيّدنا محمد ﷺ في كلّ شيء فعله. ويفسّر سبب اعتبارهم لهذا السلوك مثالاً للفضيلة والكمال الروحيّ، أو على الأقل أفضل طريق للتحقّق بهما: فالإخلاص في تطبيق الإحسان هو أفضل طريقة لتعلّمه وتغيير سلوك صاحبه.



لِمَ يجب أن نعرف هذا كلّ؟

من المهمّ أن نعرف كلّ هذا لعدد من الأسباب.

أولاً: من الجليّ أنّه لا أحد يستطيع أن يفهم دين الإسلام من دون فهم شيء عن النبيّ ﷺ. جوهر دين الإسلام مبني على الشهادتين وليس فقط على الشهادة الأولى «لا إله إلّا الله» دون الثانية «مُحمّدٌ رسول الله». وهناك عملة ذهبية من القرن الثامن الميلادي صكّها أوفًا ملك مرسيا (٧٥٧-٧٩٦م) ما يدعى اليوم إنجلترا، أغلب الظنّ لغايات تجارية محفوظة في المتحف البريطاني

تحمل نقش «لا إله إلا الله» بالعربية. يوضح هذا الفرق بين الإسلام وكل الأديان الأخرى. ربّما تعتقد بعض الأديان الأخرى أنّه «لا إله إلا الله»، وبعض الأديان تؤكّد على ذلك، لكنّ المسلمين يميّزون بالاعتقاد بأنّ سيّدنا مُحَمَّد ﷺ هو رسول الله. لذلك لا أحد يستطيع أن يفهم أيّ شيء عن الإسلام من دون أن يعرف شيئاً عن سيّدنا مُحَمَّد ﷺ.

ثانياً: بدءاً بالقديس يوحنا في دمشق (٧٤٩م) وانتهاء بالمصابين بالرّعب من الإسلام من الجناح الأيمن اليوم كان هناك سوء فهم متواصل - إن لم يكن جدلاً سلبياً نشيطاً مقصوداً - من قِبل الكتّاب المستشرقين المسيحيين واليهود عن سيّدنا مُحَمَّد ﷺ وأفعاله ودوافعه ﷺ. وقد تسرّب سوء الفهم والتّمثيل هذا إلى عمق الثقافة ووسائل الإعلام والنّفسيّة الغربيّة. وهو مفصّل جيّداً منذ عام ١٩٦٠م في دراسة ممتازة قام بها نورمان دانييل بعنوان (الإسلام والغرب: صُنْع الصّورة). لذلك من المهمّ أن نعرف أنّه عندما يفكّر المسلمون بسيّدنا مُحَمَّد ﷺ فهم يرون عموماً شخصاً مختلفاً تماماً عن الصّورة الكاذبة التي بناها غير المسلمين أو رأوها. يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس، ١٠: ٤٣]. فإذا رأى غير المسلمين الشّخص ذاته كما يراه المسلمون فسيكون لديهم بلا أدنى شكّ وجهة نظر مختلفة كلياً عن النّبِيِّ ﷺ. هي بالأحرى شبيهة بحالة بعض أتباع الديانات السّابقة للمسيحيّة التي يمكن أن تؤوي أنماطاً عن سيّدنا عيسى المسيح ﷺ: لا يستطيع المسيحيون أنفسهم تمييزها على الإطلاق.

ثالثاً: يشعر المسلمون بإهانة عظيمة عند ازدراء شخص سيّدنا مُحَمَّد ﷺ. ولا يمكن للنّبِيِّ ذاته ﷺ في حقيقته الرّوحية أن يتأثّر بهذا، لذلك فإنّ



سبب الشعور بالإهانة هو المحبة التي يُكنُّها المسلمون لسيّدنا محمد ﷺ، وهي كما رأينا أنفأ، جزءٌ من إيمانهم. ويعلم المسلمون في الوقت ذاته جيّدًا أنّه عندما يتعرّض قدوتهم للإهانة، فإنّ كلّ مسلم على وجه الأرض - يؤمن بالدين الذي أتى به - مستهدف، ويهان عمدًا ويُجرّد من إنسانيّته. وأنّ الإبادة الجماعيّة لأكثر من مائة ألف بوسنيّ مسلم بريء خلال السنوات ١٩٩١-١٩٩٥م (حسب الكتاب البوسني للموتى) سبقها بالتأكيد هذا النوع بالضبط من تشويه السمعة والتّجريد من الإنسانيّة.



الفصل الثامن

ما هو القلب؟

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

[الحج، ٢٢: ٤٦]



ما هو الإنسان؟

ذكرنا سابقاً أن كل إنسان في القرآن مكوّن من ثلاثة عناصر رئيسية الجسم والنفس والروح (تختصّ بـ «الأنا» ولها الضمير) وروحاً «هي التي نفخها الله في آدم ﷺ». وذكرنا أن للنفس ملكاتٍ محدّدة واضحة، كالذكاء والإرادة والشعور (يقرن علماء الغزالي أحياناً هذه الثلاثة بالمقدرة على الذكاء والغضب والرغبة على التوالي)، والنطق والخيال والذاكرة. الجسم واضح بشكل كاف، ومن الواضح أن قدراته تشمل الحواس الخمس: البصر والسمع والشمّ والذوق واللمس. وهو يفنى بالموت، الذي هو انفصال الروح والنفس عن الجسد. والروح هي النواة الشخصية المفردة للكائن البشري، وهي خالدة. وهي



التي نفخها الله في سيّدنا آدم ﷺ والتي تأتي لكل جنين بعد ١٢٠ يومًا تقريبًا، وبعض العلماء شبّهوا سريان النّفس والرّوح في الجسم مثل الماء في أغصان الشجر، فإذا انقطع الماء عن الغصن مات، وإذا انقطع الماء عن الشجرة ماتت الشجرة. والماء هنا يمكن أن يأتي كسائل ونشبه هذا السائل بالنّفس، ويمكن أن تكون غازًا ونشبه هذا الغاز بالرّوح، لكن يلاحظ أنّ العين لا تستطيع أن ترى الماء الذي في الشجرة ولا الغاز إذا خرج من الشجرة.

أمّا النّفس فإنّها تتكوّن في القرآن من ثلاثة أجزاء كبرى، أو ربّما ثلاثة تطوّرات (حيث إنّ النّفس تبقى واحدة)، وهي: النّفس الأمّارة بالسّوء (يوسف، ١٢: ٥٣)، والنّفس اللّوامة (القيامة، ٧٥: ٢)، والنّفس المطمّنة ﴿(الفجر، ٨٩: ٢٧). وبعبارة أخرى، تختصّ النّفس بـ«الأنا» والضمير وشيء ينظر إليهما. والرّوح هي ما وراء كلّ شخصيّة الفرد، ولا يمكن التعبير عنها إلّا بكلمات يسيرة. يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء، ١٧: ٨٥]. ويمكن أن توصف النّفس بأنّها شاهد من داخل الإنسان على جوارحه، وقبطان سفينة الجسم، بينما يمكن وصف الرّوح بأنّها الشّاهد الفرد الأعظم على بواطن الجسم والنّفس معًا، وهي أشبه بالرياح والحياة في أشرعتها. يقول الله ﷻ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف، ٧: ١٧٢].

والشيء الذي يشهد على النفس من ظهور بني آدم من ظهورها فالروح هي الشاهد على النفس. قال الإمام القرطبي في تفسيره: «وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها» (تفسير القرطبي ٧ / ٢٧٥). فمن هنا نرى أن في القرآن جنتين لكل واحدة منهما مباركة (انظر: الرحمن، ٥٥: ٤٦) ويعتبرهما بعض الشراح جنتين للنفس والروح على التوالي. وبعبارة أخرى، هناك حالة من السعادة الكاملة لكل موضوع من الإنسان المجرد: النفس والروح.

ما هو القلب؟

ذكرنا أيضًا أنه بالإضافة إلى القلب الجسمي الذي يضخ الدم إلى كل أنحاء الجسم، يملك الإنسان قلبًا روحيًا غير مادي يرتبط بالقلب المادي، ولكن على مستوى أعلى من الواقع. وهذا القلب الروحي هو في الواقع المدخل أو الجسر بين النفس والروح. وله في القرآن أربع درجات، وهي بالترتيب الصاعد: الصدر، والقلب، والفؤاد، واللب، ويُعتبر اللب أحيانًا الفؤاد والعقل معًا. فالصدر يتميز بالنفس، واللب يتميز بالروح. فهذا هو القلب الذي ينظر الله ﷻ إليه. يقول النبي ﷺ فيما استشهدنا به سابقًا: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (أخرجه مسلم). وهو لذلك الجزء الذي يجب على الناس إصلاحه!

وزيادة على نظر الله ﷻ إلى هذا القلب، فإن الإنسان ذاته ينظر إلى الحقائق الروحية ويكتسبها من خلال هذا القلب ذاته أيضًا. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾
 [الحج، ٢٢: ٤٦].

وهذا أصحّ فيما يتعلّق بالفؤاد، لأنّه في الوقت الذي يعقل فيه القلب (أو على العكس يصبح أعمى) فإنّ الفؤاد يرى بالفعل (روحياً). يقول الله ﷻ في حقّ النّبِيِّ ﷺ في القرآن: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [التّجم، ٥٣: ١١].

وقد شهد عدد لا حصر له من العلماء والعارفين من المسلمين عبر التّاريخ على حقيقة القلب الرّوحيّ. وعلى سبيل المثال فقد كتب سهل التّستريّ (٢٨٣هـ/ ٨٩٦م) أحد قدماء المفسّرين للقرآن في قصيدة له:

قلوبُ العارفين لها عيونٌ	تَرى ما لا يراهُ النّاظرونَا
والسنةُ بأسرارٍ تُناجِي	تَغيبُ عن الكِرَامِ الكَاتِبِينَا
وأجنحةٌ تطيرُ بغير ريشٍ	إلى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَا
فأورثنا الشّرابُ علومَ غيبٍ	تَشِفُّ على عُلُومِ الْأَقْدَمِينَا



ومنذ أن نشر الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت كتابه «نقد العقل الخالص» عام ١٧٨١م، لم يأخذ الفلاسفة والأكاديميون الغربيون هذا النوع من علم ما وراء الطّبيعة مأخذ الجدّ. ولكن كانت الرّؤى الرّوحيّة والكشف قبل ذلك أصلاً دينياً معروفاً. نجد في كتاب أفلاطون (الجمهوريّة) على سبيل المثال سقراط يقول:

«بمتابعة (دراسات فلسفيّة معيّنة) فإنّ عضواً محدّداً في نفس كلّ

طالب؛ يتطهر ويستنير، بعد أن كان أعمى ومدمراً بالتعلقات الأخرى.
وهو مع ذلك يستحق الإنقاذ أكثر من ألف عين لأنه بهذا العضو وحده
يدرك الحقيقة. (e-٥٢٧).

وعلى نحو مماثل يقول السيّد المسيح ﷺ: «مباركون أصحاب القلوب
الطاهرة لأنهم سيرون الله» (إنجيل متى ٥: ٨). ولكن من الواضح في القرآن
أنه لا يمكن رؤية الله ﷻ (في هذه الحياة على الأقل) رغم أن الوقائع الروحية
والحقائق من عند الله يمكن شهودها من خلال البصيرة. يقول الله ﷻ:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١٠٣﴾
﴿جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا...﴾
[الأنعام، ٦: ١٠٣-١٠٤].

المعرفة الذاتية

ينبغي أن نلاحظ أيضًا أن بصيرة القلب هي مصدر المعارف الذاتية بقدر ما
هي مصدر معرفة للحقائق «والوقائع الخارجية عن الإنسان». وقد مررنا في
الفصل الرابع أن الله ﷻ إنما خلق الناس من أجل أن يعرفوه. وذكرنا لاحقاً
في الفصل السادس أن القرآن يساعد الناس على معرفة أنفسهم، وبقي أن
نذكر أن معرفة النفس هي الطريق المؤدي إلى معرفة الله ﷻ ومعرفة الحقائق
الروحية. وقد خلق الله ﷻ الأنفس بالفعل بمعرفة فطرية به كشهادة تنشأ من
معرفتهم الذاتية. فكما ذكرنا قبل قليل يقول الله ﷻ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ



أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿٧﴾ [الأعراف، ٧: ١٧٢].

وقد أمر الله ﷻ الناس بحفظ هذه الشهادة والمعرفة الذاتية في هذه الحياة.
يقول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ . . .﴾ [النساء، ٤: ١٣٥].

ويقول الله ﷻ فوق ذلك:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا . . .﴾ [الأنعام، ٦: ١٠٣-١٠٤].

وربما لهذا السبب كان معبد (دلفي) الشهير في اليونان القديمة يحمل نقش «اعرف نفسك». وفي جميع الأحوال فإن الله ﷻ وعد بأنه من خلال التدبر في الكون والمعرفة الذاتية سيعرف الناس الحقيقة:

﴿سَرُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت، ٤١: ٥٣].

صدأ القلوب

ليس كل قلب يبصر. إذ تعتمد قدرة القلب على الإبصار على أعمال المرء.
يقول سيدنا مُحَمَّدٌ ﷺ:

«إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ نُكِنَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلَوْ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّأْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ ﷻ: ﴿كَأَلَّا بِلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين، ٨٣: ١٤]» (أخرجه الترمذي).

وبعبارة أخرى، فإن القلب لا يبصر إلا عندما يكون على درجة كافية من النقاء. وطريق الكشف عن البصيرة هو ملازمة التقوى والتوبة الدائمة. وخلافًا لذلك فإن عمى القلوب هو نتيجة المعاصي والعبودية للنفس، أو الرضا عنها على الأقل، وهو مثل كسوف كامل للشمس. وبما أن القلب هو محل الإيمان فإن ما تكتسبه الروح من المعارف يزيد الإيمان، والعكس بالعكس. يقول الله ﷻ:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾
[الفتح، ٤٨: ٤].

جلاء صدأ القلوب

كيف يمكن للمرء أن يجلو قلبه، لكي يزيل صدأ الذنوب الذي ران عليه طيلة حياته؟. يقول أبو الدرداء ؓ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جِلَاءً، وَجِلَاءُ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللَّهِ»



(أخرجه البيهقي في شعب الإيمان). واقتبسنا في الفصل السابق كلام الله ﷻ
عن نبيه سيدنا محمد ﷺ:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب، ٣٣: ٢١].

هذا الوصف الوحيد في القرآن للنبي ﷺ الذي يستخدم تحديداً تعبير
الأسوة الحسنة. إنه يصف حالاً وفعلاً وهما جزء من سنة النبي ﷺ إن لم يكونا
جوهرها. فالحال هي حال حب، ورجاء لقاء الله ﷻ، والنجاة في الآخرة يعني
بالضرورة الحب. والفعل هو الإكثار من ذكر الله ﷻ. فاتباع النبي ﷺ يعني
إذن ذكر الله كثيراً، بقدر ما يستطيع المرء، لكن بشرط المحبة.

ويبدو بوضوح أن أهم وصية روحية في القرآن هي ذكر الله أو تسبيحه
بطريقة ما مع إخلاص النية، بما في ذلك تلاوة القرآن كما رأينا سابقاً. وبشكل
موازٍ فإن معظم السنة يتألف إما من الأذكار أو الأدعية أو التي تكرر تقريباً
قبل كل عمل ضروري مشروع أو مهمة أساسية يمكن تخيلها أو بعدها.
وتشمل هذه كل شيء منذ لحظة الولادة إلى لحظة الموت؛ من بداية كل يوم من
الأسبوع إلى نهايته؛ من الاستيقاظ صباحاً إلى الخلود إلى النوم ليلاً؛ من سماع
صياح الديك صباحاً إلى رؤية القمر ليلاً؛ من ارتداء المرء ثيابه إلى خلعه؛ من
تناول الطعام والشراب إلى الذهاب إلى الحمام؛ من تهدئة الغضب إلى الجماع؛
من السعال إلى العطاس إلى الضحك إلى التثاؤب؛ من مغادرة المنزل إلى
دخوله؛ من تحية أحدهم إلى وداعه؛ من قبل بدء المرء صلاته إلى ما بعد انتهائه
منها؛ من قبل البدء بحديث إلى ما بعد الانتهاء منه، وهلم جرا.

وكما لاحظنا سابقاً، قالت السيِّدة عائشة ؓ، زوجة النَّبيِّ ﷺ عنه: «كان النَّبيُّ ﷺ يذكرُ اللهَ على كُلِّ أحيانه» (أخرجه مسلم). وقال النَّبيُّ ﷺ نفسه: «لِيَكُنْ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ» (أخرجه الترمذي).

ويفسِّر هذا تعريفُ النَّبيِّ ﷺ للإحسان في إجابته لأفضل الملائكة جبريل ؑ، كما رأينا في الفصل الثاني. فقد عرَّف النَّبيُّ ﷺ الإحسان بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (أخرجه البخاري). عبادة الله ﷻ وكأنَّ المرء يراه تعني بالضرورة ملازمة ذكره في كُلِّ الأحيان، أو كثيراً بقدر الإمكان، مع الحبِّ، حتى خارج الصَّلوات المفروضة. ومن هنا فإنَّ الإحسان يعني الاشتغال بذكر الله ﷻ قدر الإمكان، إن لم يكن باستمرار، وهذه هي السُّنة بالضبط.

وهذا يوضح لماذا كانت العبادة الرئيسيَّة للعارفين المسلمين الذين يسمَّون أحياناً الصُّوفيَّة هي ذكر الله ﷻ باستمرار: فالغاية من التَّصوُّف المعروف بالضبط، هو الإحسان، أي أن تعبد الله كأنك تراه. وبالتأكيد فإنَّ من المنصف القول بأنَّه لا أحد على مرِّ تاريخ الإسلام قد بذل طاقة أكثر في الاشتغال بذكر الله ﷻ باستمرار إلى الله للوصول إلى الإحسان أكثر من الصُّوفيَّة. فالصُّوفيَّة عبارة ما: هم أهل الاختصاص بالإحسان، كما يختصَّ علماء الكلام بالإيمان، والفقهاء بالإسلام. إنَّ أي دراسة للطُّرق الصُّوفيَّة الكبرى المعتمدة: كالطَّريقة القادرية والشاذليَّة والنقشبندية والباعلوية والتيجانية وغيرها أو كتاباتها ستُظهر هذا بوضوح.

ولا شكَّ أنَّ ذكر الله ﷻ يؤدي إلى الاطمئنان بلا ريب. وعندما لا يذكر العبدُ الله ﷻ في نفسه فإنَّ النَّفس دائماً توسوس له بأفكار بغیضة. يقول الله



﴿ في القرآن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق، ٥٠: ١٦]. إنها توسوس له بأشياء شريرة تجاه غيره من الناس، أو حتى عن الله نفسه، وتحاول أن تجعله يرتكب بعض الفواحش، ومن هنا جاء اسمها ووصفها: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ...﴾ (يوسف، ١٢: ٥٣)، كما ذكرنا آنفاً. والفشل في ذلك يجعلها تشكو بأنانية من نفسها: وكيف تُعامل بظلم، وكم هي عظيمة، نافثةً نفسها كالطاووس (رغم أن الطاووس أطف من «الأنا»)، مزهوة بانتصاراتها اليسيرة. إن أي شخص يراقب أفكاره في عزلة لمدة كافية يعاين هذا. لذلك يُحذر الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَیْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف، ٤٣: ٣٦]. ولكن عندما يكون ذكر الله ﷻ حاضراً في القلب فإن حديث النفس - أو الأفكار المتدفقة من «الأنا» - يخف، فيحصل القلب على بعض السكينة والراحة في النهاية. يقول الله ﷻ:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد، ١٣: ٢٨].

وبدلاً من أن تكون مع نفسك الذميمة تكون مع الله بفكرك على الأقل، يقول الله ﷻ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ...﴾ [البقرة، ٢: ١٥٢]. وذكر الله ﷻ يشفي القلب على مر الزمان ويجعله سليماً. وهذا بالنسبة لمعظم الناس ما يعول عليه في النهاية، عندما يغادرون أجسادهم ويتكون العالم وراءهم. يقول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء، ٢٦: ٨٨-٨٩]. ولكن وراء ذلك، فإن ذكر الله الدائم يمكن أن يثمر عند بعض الناس الكشف والإلهام. يقول الله ﷻ في الحديث القدسي:

«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا» (أخرجه البخاري).



لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟

من المهم أن نعرف ذلك كله عن القلب لعدد من الأسباب:

١- من المهم أن نعرف عن القلب لأنه يسمح للإنسان أن يفهم أنه يجب عليه تزكية النفس، وأن يتغلب على أهوائه وضعفه. يقول الله ﷻ: ﴿... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن، ١٦: ٦٤]. وفي القلب تكمن عظمة الإنسان في الواقع، وكل شيء يعمل به البشر يفعلونه في قلوبهم أولاً من خلال النية. القلب هو أكثر النواحي سموًا عند البشر. وهو يتطلب عملاً روحياً متواصلاً لا سيما بالدعاء. وكما كتب هنري وادسورث لونغفيلو (في مزموّر للحياة عام ١٨٣٨م):

لا ترولي خبر الأعداد إذ تبدو	كثيرة ما لأحزانٍ بها عدُّ
إن الحياة لحلمٌ فارغٌ ظهرت	والنفس ترقُد في موتٍ له حدُّ
وليس كل الذي تهوى كما يبدو	إن الحياة لحقٌّ ظاهرٌ جدُّ
والقبر ليس بغايةٍ لها أبداً	أنت التراب ونحو التراب قد تعدُّ
لم يرولي أحدٌ للنفس من خبرٍ	(يشفي فؤادي من جمر به وقد)



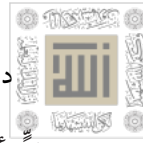
فَمَا خُلِقْنَا لِلذَّاتِ وَلَا جَزَعٌ وَمَا هُمَا غَايَةٌ لِلْعُمُرِ أَوْ قَصْدٌ
لَكُنْ لِنَعْمَلْ فِي جِدٍّ فَيُفْلِنَا غَدٌ وَقَدْ زَادَنَا عَنْ يَوْمِهِ الْبُعْدُ
فَلَا تَتَّقُ بَغْدٍ مَهْمَا دَعَاكَ وَدَغٌ مَيِّتًا لِيَدْفِنَ مَيِّتًا مَا لَهُ لَحْدٌ
وَاسْتَغْنِمِ الْوَقْتَ وَاعْمَلْ غَيْرَ مُتَكِلٍ فَالْحَاضِرُ الْحَيُّ وَقْتُ مَا لَهُ حَدٌ

٢- من المهم أن نعرف القلب لأنه يشرح التناقضات الظاهرة بين الإيمان والذكاء وبين الإيمان والشر. والتناقض الأول هو وجود عباقرة من دون إيمان، وأناس من الواضح أنهم غير أذكياء لكن عندهم كثير من الإيمان وربما هذا هو إيمان العجائز الذي يُقال عنه. التناقض الثاني هو وجود أناس أحياناً يعملون أعمالاً صالحة وليس عندهم إيمان، وعلى العكس من ذلك، هناك أناس أشرار للغاية عندهم إيمان أنهم بحسب الظاهر متدينون جداً.

تُوضَحُ معرفة القلب أولاً: أن الإيمان ليس مسألة عبقرية عقلية - ولا يعتمد على الذكاء العقلي - بل بالأحرى على الطيبة المثمرة. لذلك فإن كون المرء بالغ الذكاء - أو غير ذكي - لا علاقة له بالإيمان. ثانياً: إن هذه المعرفة توضح أن أولئك الذين يفعلون الشر ولديهم إيمان هم في الحقيقة يفقدون هذا الإيمان تدريجياً من خلال أفعالهم. وعلى العكس من ذلك، فإن الناس الذين يعملون أعمالاً صالحة - لأسباب تتعلق بالإيثار لا بمجرد العجب - يكتسبون الإيمان تدريجياً، وهم يقومون بجلاء قلوبهم.

٣- من المهم من الناحية الدنيوية أن نعرف القلب لأن معظم الناس اليوم تعلموا الاعتقاد بأنهم في الأساس عقل وجسم معلق به فحسب. ويظنون أن العقل هو مجرد برجة وتجارب متراكمة. ويعتقدون أن هذا يتم من الناحية العضوية داخل ممرات عصبية في الدماغ الذي في الجمجمة، تماماً

كما يتألف الحاسب أو الهاتف النقال من شريحة صغيرة داخله. لذلك عندما نطفي الحاسب بشكل دائم أو يتحطم، فأنت تموت. ويبدو أنّ وراء هذا أدلة طبيّة ذات وزن معتبر، حيث إنّ كلّ أجزاء الجسم ما عدا الدماغ (بما في ذلك القلب المادي) يمكن استبدالها جراحيًا، وحيث إنّ ضرر الدماغ يرتبط بفقد الذاكرة، فمن الناحية الأساسية سواء قلنا ذلك أم لا، نحن نميل لا شعوريًا إلى الاعتقاد بأننا نحرك حواسيب عضويّة. وهذا يعني أنّ تفاعلنا بكامله مع الواقع الموضوعي مقيّد بأجسامنا ومعتمد في التواصل على الحواس الخمس. ومع ذلك فكلّنا - أو ربّما كثير منّا - مرّ بتجارب لا تلائم هذا النموذج من أنفسنا. فعلى سبيل المثال، يبدو لكثير من الناس أنّهم يعرفون مسبقًا الشخص الذي يتّصل بهم عبر الهاتف، حتى ولو لم يتّصل أبدًا في ذلك الوقت، أو لم يتوقّع منه الاتصال حينئذ. وكثيرًا ما يقول الشخص الذي يتلقّى المكالمات: «آه، كنت للتوّ أفكر بك». وهذا يبدو صحيحًا بوجه خاصّ بالنسبة للأشخاص الذين يتبادلون حبًّا صادقًا فيما بينهم. ويتكوّن في أحيان كثيرة أيضًا لدى المرء شعور حيال أمر ما ثمّ يحدث هذا الأمر أو يثبت أنّه صحيح. ويظهر هذا الشعور أحيانًا غير صحيح أو مجرد حلم في اللحظة، ولكنه غالبًا ما يكون صحيحًا. ومن المدهش كيف تُطوّر الحيوانات الأليفة حاسة سادسة خاصّة بأصحابها إلى درجة أنّها تعرف متى يعودون إلى المنزل: وقد أجريت دراسات علميّة في الواقع حول هذا (انظر على سبيل المثال كتاب: «الكلاب التي تعرف متى يعود أصحابها إلى المنزل، وكتاب الإحساس بكونك محطّ الأنظار لروبرت شيلدريك» ثمّ توجد ألفة وأحلام أو رؤى هاجسة بشدّة: ترى أحيانًا الأمر الذي سيحصل في حلم، وأحيانًا ترى رمزًا له. وفي أغلب



الأحوال فإنك تشعر بشكٍّ أو تشاؤم حول أمر من الأمور من دون سبب واضح. وتحسّ أحياناً بخطر قادم. يملك الآن علماء النفس وعلماء الإحصاء بعض التفسيرات العلميّة الرائعة لكثير من هذه الظواهر، لكن ليس لجميعها. ويبدأ كثير من الناس، بواسطة تجاربهم وأخطائهم، بإدراك أي نوع من أنواع حدسهم المختلفة ينبغي عليهم أخذه مأخذ الجدّ. إنّ معرفة القلب مهمّة، لأنّها تقدّم لك نموذجاً يساعدك على النّظر إلى الحدس بالمزيد من الانفتاح والموضوعيّة. وهذا مهمّ بوجه خاصّ في الحدس القويّ فيما يتعلّق بالأخطار الوشيكة. وباختصار، فإنّ معرفة القلب تساعدك في استخدام حسّك السّليم.



الفصل التاسع

ماهي الحياة الدنيا؟

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ
وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ
ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

[الحديد، ٥٧: ٢٠]



الحياة الدنيا هي عكس حياة القلب. وهذا لأن القلب داخل والحياة الدنيا خارج: ومن الواضح أن الداخل والخارج هما نقيضان. ولا نعني «بالحياة الدنيا» الحياة في الدنيا والعالم - التي من الواضح أنها ثمينة بما لا يقاس، والتي تشمل حياة القلب - لكن حياة العالم: الحياة التي هي كلها دنيوية. في الآية التي استشهدنا بها آنفاً، يحذّر الله ﷻ من عدم جدوى الحياة الدنيا، ويعرّفها بأن لها خمس مستويات تتدرّج صعوداً في السوء: (١) اللّعب، (٢) اللّهُو، (٣) الزينة. (٤) تفاخُرٌ متبادل، (٥) تكاثُرٌ في الأموال والأولاد. ويمكن فهم هذه المستويات على الشكل التالي:



١- اللَّعِب: هو ضروري، طبيعي وحيادي. إنه الطريقة التي يتعلّم من خلالها الأطفال، ويسترخي الكبار. ولكنه يمكن أن يصبح عقبة عندما يقطع أمراً آخر مهماً أو خطيراً نقوم به.

٢- اللّهُو: انقطاع مؤقت في التركيز والانتباه، إنه نوع من إهمال الواجب غير مقصود.

٣- الزّينة: تتضمن شهوة شيء في غير محلّه: ويعني ذلك محبة شيء لا ينبغي لك أن تحبه، أو محبة شيء لسبب خطأ أو لسبب سطحي. وبعبارة أخرى، إن الزّينة تعني الاستمتاع بالجمال الظاهر والحياة الدّنيا على حساب محبة الجمال الحقيقي الذي هو الفضيلة وصلاح القلب. يقول الله ﷻ في مكان آخر من القرآن:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران، ٣: ١٤].

٤- التّفَاخر: إذا كانت الزّينة تعني الشهوة في غير محلّها، فإن التّفَاخر المتبادل يعني العزّة في غير مكانها. وفي حين يكون الشّغف حبّاً لشيء خارجي، فالتّفَاخر هو حبّ لشيء داخلي. والشهوة - كما ناقشنا - جيّد إلى الحدّ الذي يكون فيه الشّيء جيّداً، وسيءٌ إلى الحدّ الذي يكون فيه الشّيء سيئاً. والأمر ذاته ينطبق على العزّة. عندما تكون العزّة حبّاً للقلب وما فيه من الفضائل تصبح كرامة. وعندما تكون من جهة أخرى حبّاً «للأنا» تصبح عُجباً وتكبّراً. وهذا النوع من العزّة هو أساس كلّ الذّنوب بل وأساس الأمور البغيضة. وهو

الذي أدّى إلى طرد الشيطان من رحمة الله ﷻ، كما في القرآن الكريم، عندما رفض السجود لسيّدنا آدم ﷺ. قال الشيطان لله ﷻ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص، ٣٨: ٧٦]، فالعزّة إذن أسوأ من الشهوة، لأنّه في الوقت الذي تبتعد فيه الشهوة عن القلب تكون العزّة هي «الأنّا» التي تنبعث في الواقع لتعارض القلب.

٥- التّكاثُرُ في الأموال والأولاد: الأموال والأولاد هنا يمكن أن تؤخذ لتشمل كلّ الأشياء الدنيويّة. والكلمة العربيّة «تكاثر»، تعني هنا أيضًا التّنافس، وتعني الجشع والرّغبة في اكتساب المزيد، ولا يُقصد بها في هذا السّياق التّنافس الشّريف، بل معنّى يتضمّن الجشع، والغيرة، والإرادة الضعيفة، والبغض، وأخيرًا العدوان. فالتّكاثر هو من أسوأ عواقب العزّة بالإثم، وهو ما يؤدّي إلى جميع أنواع العنف في نهاية المطاف.

فقد حصلنا إذن في هذه الآية الواحدة على وصف رائع لسلسلة ما تعنيه الحياة الدّنيا (من النّاحية النّفسيّة)، بدءًا بالطّيبة منها نسبيًا وانتهاء بالفاسدة. وهذا يفسّر لماذا تُعدّ الحياة الدّنيا سلبية وغير مجدية في عدّة آيات من القرآن. قال النّبِيُّ ﷺ: «أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ، وَأَزْهَدُ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ» (أخرجه ابن ماجه).



وتُلخّص هذه الآية الواحدة أيضًا مراحل الحياة المتتابعة، وأعمار النّاس، من خلال نشاطاتها وأخطائها. اللّعب نشاط الأطفال الصّغار. واللّهو نشاط الأطفال الأكبر سنًا، وهو يُبعد بطبيعته المرء عن التّركيز والواجب. والزينة هي نشاط المراهقين بعد البلوغ والشّباب اليافعين، حيث يزداد اهتمامهم



بالجنس الآخر ويبلغ ذروته، ويريدون الظهور بمظهر جذاب. والتفاخر المتبادل هو عيب الأشخاص المستقرّين الواثقين، الأشخاص الذين يكسبون عيشهم، ويصبحون مشهورين في العالم. والتكاثر في الأموال والأولاد هما من عيوب الناس الذين تجاوزوا أكثر من نصف أعمارهم والكبار، الذين أصبحوا ضعفاء بدنيًا، ولم يعد باستطاعتهم المنافسة من الناحية العضويّة، أو الذين تقدّمت بهم السنّ بحيث أصبح لهم أحفاد (وتشمل كلمة الأولاد هنا الأحفاد) الذين يتنافسون من أجلهم. في مسرحية شكسبير (كما تشاء) (الفصل ٢ المشهد ٧)، تلخّص شخصيّة تُدعى جاك براءة وروعة مراحل الإنسان السبعة (حسب عادات عصره ورمزيّة الكواكب السبعة المعروفة، أعني عطارد والقمر والزّهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل على التّوالي) كالآتي:

«إنّ العالم مسرح، والنّاس فيه ممثلون،
لكلّ واحد فيه مدخل ومخرج،
وشخص واحد في وقته يلعب أدوارًا مختلفة،
ودوره الذي يلعبه هو سبعة أعمار،
في البدء يقوم بدور الطّفل الوليد،
وهو يصرخ ويصق لعابه بين ذراعي مرضعته،
يليه دور التّلميذ الذي يبدو حاملاً محفظته
وبالكاء يعلو وجهه المنور وهو يزحف كالحلزون إلى المدرسة رغماً
عنه
يليه أيضًا العاشق المتيمّ المحترق بأتون الحبّ الذي يضمّره لعشيقته



ومن ثم يأتي دور الجندي المتحرّق إلى القتال واقتناص الشرف
والشّهرة

التي سرعان ما تتبخّر بعد أن تكون قد رمت به في فوّهة المدفع
ويلي هذا الدّور دور القاضي صاحب النّظرات القاسية، واللّحية
المشدّبة، والبطن المستدير، والأحكام المبتدلة،
بعد كلّ هذه الأدوار يأتي دور الرّجل المسنّ، النّحيل الجسم تعلقو أنفه
نظارتان، وقد غار صوته الأَجش،
أمّا المشهد النّهائي الذي ينهي هذه الدّراما التّاريخيّة الغربيّة والمليئة
بالأحداث فإنّه عبارة عن طفولة ثانية،
إنّها حالة من النّسيان التام، يصبح فيها الإنسان فاقد الأسنان والعينين
والذّوق، إنّه فاقد لكلّ شيء».

(تعريب ج. يونس).

لكن الآية القرآنيّة المفردة التي استشهدنا بها آنفاً (الحديد، ٥٧: ٢٠)
لا تلخّص أزليّاً مراحل الكائنات البشريّة فحسب، بل الطّروف الدّاخليّة
والمخاطر الروحيّة لكلّ مرحلة، باستثناء مرحلة الشّيخوخة حيث لا يكون
الضّعف ذنباً في الإسلام، زيادة على كلّ المعاني التي ناقشناها سابقاً. فمرى
هنا فضل كلام الله ﷻ على فضل أحد أذكى الأدباء في التاريخ وهو شكسبير،
وسبحان الله.



ما الذي يُفترض بالنّاس فعله إذن؟ ما هي الأمور العمليّة من هذه التّعاليم؟



هي ببساطة: لا نضيع وقتك! الحياة الدنيا كالنباتات التي نثرها ناثراً البذور، لكنها سرعان ما تذبل، وتراها تصفر، وتصبح قشياً. وبعبارة أخرى، الحياة قصيرة جداً، وإذا استمرت، فإنها تتحول إلى شيخوخة وضعف ثم تتلاشى. إن فكرة أن الناس يملكون وقتاً يدخرونه هو مجرد وهم تسببه فورة الشباب والصحة. كتب الشاعر والكاتب الأمريكي إدغار آلان بو (١٨٤٩م) في (حلم داخل حلم):

وَمَنْ عَدَّ أَيَّامِي جَمِيعًا بِأَسْرَهَا	مَنَامًا فَلَمْ يُخْطِئْ فَإِنِّي حَالِمٌ
عَلَى سَاحِلٍ أَمَاجُهِ قَدْ تَكَسَّرَتْ	وَوَسْطَ هَدِيرٍ صَاحِبٍ أَنَا قَائِمٌ
وَأَمْسُكَ حَبَاتٍ مِنَ الرَّمْلِ فِي يَدِي	بَدَتْ ذَهَبًا قَدْ أَخْرَجَتْهُ الْمَنَاجِمُ
فَتَنَسَّلُ مِنْ بَيْنِ الْأَصَابِعِ خِلْسَةً	إِلَى كُلِّ عُمُقٍ لَيْسَ فِيهِ مُزَاحِمُ
فَأَبْكِي بِكَاءٍ كَالنَّحِيبِ مَنَادِيًا	إِلَهِي! وَهَلْ لِي قُدْرَةٌ وَشِكَايِمُ
أَأَمْسُكُهَا كَيْ لَا تَفَرَّ بِقَبْضَةٍ	أَشَدَّ وَقَدْ خَانَتْ قُوَايَ الْعِزَائِمُ
إِلَهِي! أَلَا اسْتَطِيعُ حِفْظَ حُبِّيَّةٍ	تَخَطَّفَهَا عَاتٍ مِنَ الْمَوْجِ ظَالِمُ
أَلَيْسَ الَّذِي يَبْدُو لَأَعْيُنِنَا سَوَى	مَنَامٍ رَأَاهُ حَالِمٌ وَهُوَ نَائِمُ

إن الحياة الدنيا في الواقع سريعة الزوال، ولذلك لا يوجد وقت للهدر خلالها. والموت أسرع، ومن الممكن دائماً أن يكون على مسافة نبضة قلب منّا. وهو يسعى إلينا، ويصير أقرب إلينا في كل لحظة، أيّا كانت أعمارنا. يذكرنا الله ﷻ في القرآن: ﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ ﴿ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ [القيامة، ٧٥: ٣٤-٣٥]. هذه هي الحقيقة المروعة التي يجب علينا كلنا أن نواجهها.

وربما لهذا السبب تقول الآية التالية للآية التي استشهدنا بها آنفاً: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الحديد،



٥٧: ٢١]. ويشبه هذا الآية التي تقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران، ٣: ١٣٣). ومرة أخرى في مكان آخر: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ...﴾ [الذاريات، ٥١: ٥٠].



لم يجب أن نعرف هذا كله؟

يقضي الشخص العادي في دول كثيرة، لا سيما الطالب العادي، الآن وقتاً كل يوم في تسلية النفس أطول من أي فترة أخرى في تاريخ العالم. وهذا يعني القول بأن الشخص العادي يقضي ما بين ستّ ساعات أو أكثر يومياً - ربع حياته؛ وثالث وقته مستيقظاً - كل يوم في مشاهدة التلفاز أو الأفلام؛ أو تصفّح الانترنت أو المحادثة؛ والوسائط الاجتماعية؛ وألعاب الفيديو؛ والمواد الإباحية ووسائل ترفيهه للبالغين؛ والموسيقى المصوّرة أو موسيقى البوب أو المذياع. ويصل هذا إلى أكثر من ٤٠ ساعة في الأسبوع، وهو طول أسبوع عمل بدوام كامل، ويعني إعطاء مدّة حياة كاملة من العمل والاستهلاك للأفلام والتلفاز، ووسائل الإعلام وعمالة الانترنت مجاًناً. وهو إدمان خفيّ، وشكل من أشكال العبوديّة الداخليّة للخيال والتّفاهات. إنّ الحياة الدّنيا هي التي تجاوزت حدّ اللّعب واللّهو إلى شغف وتفاخر في غير محلّه، وربّما زرعت بذور العنف الاجتماعي. والحياة الدّنيا هي النّوع البعيد كلّ البعد عن الواقع. وتعني بالضرورة جعل التّرفيه ديناً والدّين ترفيهاً.

يدعو الإسلام إلى تحوّل نموذجي بخصوص قيمة الحياة وقرب الموت.



ينشأ ضعفنا الاعتيادي من توهمنا الصّامت أنّه بسبب كوننا ما زلنا على قيد الحياة، وأن الموت يأتي فقط إلى الأشخاص الآخرين، فلا يهمنّا الأمر شخصياً. ولكنه يهمنّا بالطّبع، وسيهمنّا عاجلاً أو آجلاً ولا بدّ. كتب الغزالي:

«وأوقاتك عمرُك، وعمرُك رأسُ مالك، وعليه تجارُتُك، وبه وصولُك إلى نعيم دار الأبد في جوار الله ﷻ، فكلّ نفس من أنفاسك جوهرة لا قيمة لها، إذ لا بدّل له، فإذا فات فلا عودَ له. فلا تكن كالحمقى المغرورين الذين يفرحون كلّ يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم، فأئي خيرٍ في مال يزيد وعمرٌ ينقص!» (أبو حامد الغزالي، بداية الهداية ١).

كلّ شخص يحتاج بالطّبع إلى الاسترخاء والراحة لساعة أو ساعتين يومياً. لكنّ ستّ ساعات يومياً، من دون التمارين الرياضيّة، والنموّ الفكريّ أو التفاعل الإنسانيّ الهادف - ناهيك عن عدم ذكر شيء عن الدّين، والعائلة، وأعمال البرّ والواجبات والنّشاطات الاجتماعيّة - فهذا هدر لوقت الإنسان لم يسبق له مثيل، وللحياة حتماً. وله أيضاً عواقب نفسيّة، وثقافيّة، واجتماعيّة، وطبيّة، واقتصاديّة، وسياسيّة سلبية عميقة. يقول سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» (أخرجه الحاكم).



الفصل العاشر

ماهي الشريعة؟

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[الجاثية، ٤٥: ١٨]



ألف أستاذ عربي مسيحي من جامعة كولومبيا في نيويورك عام ١٩٧٨م كتاباً رائعاً سمّاه «الاستشراق»، تأسف فيه من هيمنة الغرب الماديّة على العالم الإسلامي بحيث أنّ أنماط هذه الهيمنة السّليبيّة آمن بها العرب والمسلمون أنفسهم. وهذا صحيحٌ في عصرنا بالنسبة للشريعة بحدّ ذاتها. لقد ربط الغرب الشريعة بممارسات العصور الوسطى من إذلال النساء وبترا الأطراف، إلى درجة أن أيّ شخص الآن يسعى إلى تطبيق الشريعة يبدأ بفعل ذلك بدقّة، وكأنّ ذلك هو الاختبار لصدق إيمانه. لكنّ الشريعة هي في الواقع جسم واسع وتعددي من الفكر والتشريعات والإجراءات التي تختلف للغاية عمّا شاع الاعتقاد به. ومن المرجح أنّه يوجد في أيّ قضية مطروحة آراء عديدة مختلفة - حتى في المذهب الفقهيّ الواحد - وكلّها يهدف، كما سنناقش، إلى خير الفرد والمجتمع. لكن هذا الخير بالطّبع ليس فكرة عشوائيّة وذاتيّة



مبنية على تغيير الافتراضات الثقافية، بل هي مبنية في النهاية على الوحيين في الإسلام، وهما: القرآن والحديث.

معنى كلمة «شريعة»

من المفيد للغاية أن نبحث في أصل مصطلح «الشريعة». فهي لها نفس جذر الكلمة العربية الحديثة: الشارع. ويعود جذرها حرفياً إلى الطريق الذي يصبح مع مرور الوقت واضحاً ومطروحاً جيداً، الطريق الذي تشقه الحيوانات في الطبيعة لكي تصل إلى ثقب مائي. وتوجد في الصحراء طرق بالطبع هي حرفياً طرق للنّجاة، فالماء يعني الحياة لكل الكائنات الحيّة. لذلك فإنّ المعنى المكتسب لكلمة «شريعة» - الأحكام الفقهية المستنبطة من القرآن وحديث سيّدنا محمد ﷺ - وهو يعني ضمناً قانوناً هو وسيلة للنّاس من أجل الوصول إلى الفلاح في هذه الحياة الدّنيا والحياة الأخرى، والذي من دونه يتيه النّاس في مهامه الجهل إلى أن يهلكوا. وهذا يعني عندئذ القول بأنّ كلمة «شريعة» ذاتها في العربية تحمل معنى جميلاً وعميقاً ومؤثراً.

ترد كلمة «شريعة» واشتقاقاتها اللّغويّة في الواقع خمس مرّات فقط في القرآن: مرّتين كفعل إيجابيّ مرّة في (الشّورى، ٤٢: ١٣)، وسلبية مرّة في (الشّورى، ٤٢: ٢١)؛ ومرّة في مثل يعود إلى طريقة سباحة الحيتان في (الأعراف، ٧: ١٦٣)؛ ومرّة في صيغة «شُرّعة» في (المائدة، ٥: ٤٨)؛ ومرّة فقط كاسم يرجع إلى أحكام الفقه الشّرعّي الشّريف أيضاً. وهذه المرّة وردت في آية استشهدنا بها آنفاً: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية، ٤٥: ١٨]. تؤخذ كلمة أمر عادة على أنّها تعني

أمرًا دينيًا، لكنّها تعني حرفيًا مسألة أو همًّا أو شأنًا. وهذا يستلزم القول عندئذ بأن كلمة «شريعة» مبنية على طبيعة الأشياء، بنفس القدر الذي تتوافق فيه الشّعائر الدينيّة مع طبيعة الكائنات البشريّة (كما ناقشنا في الفصل الثاني). فالشريعة إذن ليست مجموعة عشوائية استبدادية من الأحكام المبهمة، بل هي خريطة طريق من الله ﷻ تتوافق مع الاحتياجات الروحية والعملية للنّاس والمجتمع لكي يصلوا إلى الجنّة في الآخرة وبنفس الوقت يعيشون حياة آمنّة سعيدة قدر الإمكان. زد على هذا أنّها ترجع في صيغة شرعة إلى الأحكام الفقهية في الأديان الأخرى أيضًا:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة، ٥: ٤٨].

فإذا كانت الشريعة قانونًا إلهيًا في الدين الإسلامي خاصّة، فإن الكلمة تتضمن أيضًا أنّه كانت هناك تشريعات إلهية تشبهها في الأديان الأخرى جديرة أيضًا بالاحترام، وتتوافق أيضًا مع الاحتياجات الروحية والعملية.

الشريعة كنظام أخلاقي

القوانين نظام تحاسب عليها وتعاقب عليها في هذا العالم. والمبادئ الأخلاقية هي نظام يحاسب عليه ويعاقب عليه الله ﷻ في الآخرة، بالنسبة للمؤمنين على



الأقل. والشريعة نظام أخلاقي قبل أن تكون نظاماً قانونياً. وهذا يعني أن معظم ما يعتبر ذنباً لا تعاقب عليه الشريعة أو أي قانون لكن ربها يعاقب الله عليها في الآخرة، إذا كذبت على سبيل المثال (ليس في القسم أمام القاضي) على أحد الأصدقاء لا يعاقبك القانون على كذبك، لكن الله ﷻ سيحاسبك عليه إن لم تتب، وجزء كبير من الشريعة يدور عندئذ حول الذنب وليس حول الجريمة. وعلاوة على ذلك، فإن أحكام الصلاة والصيام والحج، وهلم جرا، هي جزء من الشريعة، لكنها لا تعتبر قانوناً بالمعنى الغربي. ومن هنا فإن تسمية الشريعة بالقانون الإسلامي هو في الواقع أمر مضلل تماماً.

وفوق ذلك، حتى في تلك الميادين التي تعمل فيها الشريعة عمل النظام القانوني، فإن الشريعة، ولتخفيف أعباء التكاليف، تحوي عن قصد نسبياً حالات تتعمد التزام الصمت فيها تجاه معظم الأمور، مما يعني أن الأصل فيها الإباحة، مع فتح باب التأويل بشكل واسع أمام العديد من الاحتمالات. ووفقاً لذلك، صنّف علماء المسلمين في معظم المذاهب الفقهية كل فعل تحت فئة من خمس فئات وفقاً للشريعة:

- ١- الواجب (فرض): وهو الذي تثاب على فعله وتعاقب على تركه.
- ٢- المكروه: وهو الذي تثاب على تركه ولا تعاقب على فعله (يضيف بعض علماء الأحناف عددًا من الأقسام له).
- ٣- المباح: وهو الذي لا تعاقب ولا تثاب على فعله أو تركه (إلا إذا فعلته بنية حسنة، ففي هذه الحالة تثاب عليه). وسنلاحظ أن كل شيء من حيث المبدأ مباح إلا إذا ورد نص إلهي بتحريمه على وجه الخصوص.
- ٤- المستحب: وهو الذي تثاب على فعله ولا تعاقب على تركه.

٥- الحرام: وهو الذي تعاقب على فعله وتثاب على تركه.

ومن الملاحظ أيضاً أنه طبقاً للشريعة، كما قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيّات» (أخرجه البخاري ومسلم)، لكنّ كلّ عمل يكون شرعيّاً أو غير شرعيّ وفقاً لدرجة تحقيقه للمعايير التي تعرّفه. كلّ هذا يعني عندئذ القول إنّ أوّل شيء تهمّد الشريعة إلى القيام به هو توضيح الأمور للمسلمين، باعتبارها دليلاً لإرشادهم في الحياة وفي الدنيا. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ
لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل، ١٦: ٨٩].

غاية الشريعة

وضعت الغاية النهائيّة للأحكام الشرعيّة في آية واحدة تستخدّم بطريقة إيجابيّة فعل (شرع) الماضي كالتالي:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا
بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾
[الشورى، ٤٢: ١٣].

يمكننا أن نفهم من هذا أنّ غاية الشريعة النهائيّة تتألف من جزئين هما:
إقامة الشعائر الدينيّة، وتحقيق التماسك الاجتماعيّ.

وبعبارة أخرى، فإنّ غاية الأحكام الشرعيّة إقامة التوازن الروحي
والنفسى والبدني والوصول إلى الانسجام في المجتمع. ويتوافق هذان الأمران



مع السّلامة الروحيّة والذّنيويّة واحتياجات الكائنات الإنسانيّة والمجتمعات. ويؤكّد الفقيه الشّافعيّ الكبير العزّابن عبد السّلام (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) في كتابه «قواعد الأحكام» على أنّ كلّ أحكام الله ﷻ إنّما جاءت لمصلحة عباده، فبشرى لمن يقبل النّصيحة ويتوب من ذنبه. وقال ابن قيم الجوزيّة (٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م):

«فإنّ الشّريعة مبناها وأساسها على الحِكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد. وهي عدلٌ كلّها، ورحمة كلّها، ومصالح كلّها، وحكمة كلّها. فكلّ مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرّحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشّريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل» (إعلام الموقعين عن ربّ العالمين).

وبنحوٍ أخصّ، فقد درس علماء الإسلام كالإمام أبي حامد الغزالي في كتابه «المستصفى»، وأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشّاطبيّ (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) في كتابه «الموافقات»، كلّ أمر في القرآن على حدة، واستخلصوا من هذه الأوامر خمسة أهداف أساسيّة للشّريعة: هي «مقاصد الشّريعة». وتترجم هذه المقاصد من حيث الممارسة إلى خمسة حقوق أساسيّة لكلّ النّاس. وهذه الحقوق هي: (١) حقّ الحياة. (٢) حقّ الدّين (يضع بعض العلماء هذا الحقّ أولاً). (٣) حقّ بناء عائلة، وإنجاب الأطفال، والشّرف، (ويقسم هذا الحقّ أحياناً إلى قسمين: العائلة وإنجاب الأطفال، والكرامة). (٤) حقّ العقل. (٥) حقّ المملكيّة. مع كلّ الحريّات والحماية التي يتضمنها كلّ حقّ من هذه الحقوق. ويمكن أن تعتبر الآية التّالية في القرآن تلخيصاً لها:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل، ١٦: ٩٠].

إذن:

- ١ - العدل هو أساس حق الحياة، ولكل الحقوق بالتأكيد.
 - ٢ - يتضمّن الإحسان (الذي عرفناه في مناقشتنا بأنّه: أن تعبد الله كأنك تراه) حقّ الدين.
 - ٣ - الكرم تجاه الأقرباء، وهذا يشير إلى حقوق العائلة والأطفال.
 - ٤ - ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ تشير إلى حق الشرف (الذي يتعلق في المجتمعات الإسلامية بالعائلة).
 - ٥ - المنكر يعرف بأنّه ارتكاب المعاصي، ومن هنا هو ضدّ المعرفة، لأنّ الآثام تجعل راناً على القلب (انظر الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن) ويعود إلى حقّ العقل.
 - ٦ - والبغي هو الاعتداء على الغير ومن هنا يشير إلى حقّ الملكية وأيضاً بدليل أقوى إلى حقّ الحياة.
- إنّ أهداف الشريعة هذه مهمّة لكي نفهم غاية الأحكام أو روح التشريع، ولكي نتأكد من أنّ الأحكام الشرعية تعكس هذا. وهي لا تُستخدَم، كما يعتقد بعض الناس اليوم، لتحلّ محلّها. فهي أيضاً أساس حقوق الإنسان في الإسلام (كما هو مشاهد تقريباً في إعلان القاهرة ١٩٩٠م لحقوق الإنسان في الإسلام، الذي تبنّته أربعة وأربعون دولة إسلامية). وهذه الحقوق هي في الإسلام فقط حقوق منحها الله ﷻ بغير شرط، وليست حقوقاً إنسانية مبنية على أعراف الناس. وينبغي أن يتّضح في النهاية أنّ الشريعة عموماً، وهذه



الحقوق خصوصاً لم توضع لكي تسبب الشقاء للناس، بل لكي تجعل الأمور بشكل كلي سهلة يسيرة عليهم. يقول الله ﷻ:

﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ [البقرة، ٢: ١٨٥].

مذاهب التشريع الإسلامي

تأتي كلمة «jurisprudence» الإنجليزية أساساً من المصطلحين اللاتينيين «prudentia juris» اللذين يعنيان دراسة التشريع أو معرفة التشريع أو علم التشريع. وتعني حسب معجم أو كسفورد الإنجليزي نظرية التشريع أو فلسفة التشريع. ونأخذها في السياق الإسلامي على أساس أنها تعود إلى الطريقة التي تستنبط بها أحكام التشريع من المصدرين الأساسيين: القرآن والحديث. إنها تعني ماهية التشريع، وهو ما يعرف بعلم «أصول الفقه».

لقد انقطع بعد وفاة النبي ﷺ نزول الوحي المباشر إلى الأرض إلى الأبد. وتوقف البلاغ الفوري الوارد من الله ﷻ عن أي شيء، ولم يعد أحد يستطيع أن يدعي سلطاناً من الله ﷻ لرأيه الخاص. وتوقف الحكم المستمد من سلطان الله ﷻ عن الوجود في الأرض، ومنذ ذلك الحين بقي للناس القرآن والأحاديث المروية يرجعون إليها. ولم يشكّل هذا مشكلة كبيرة بالنسبة لصحابة النبي ﷺ رضي الله عنهم لأنهم كانوا يملكون ذكريات عن النبي ﷺ (رغم أنهم كانوا يختلفون من وقت لآخر حول مقاصد الأمور التي شاهدوها أو معانيها)، كما ذكرنا سابقاً في حديث عائشة رضي الله عنها بالنسبة إلى قطع الصلاة. وكما ذكرنا سابقاً. إن آخر الصحابة المشهورين توفي هو أنس بن مالك رضي الله عنه الذي ولد في



٦١٢ ميلاديّة ونشأ في بيت أهل النَّبِيِّ ﷺ منذ أن كان عمره عشر سنين، وتوفي في ١٢/٧/٩٣ هـ. وآخر الصحابة على الإطلاق وفاءً هو أبو الطّفل عامر بن وائلة الذي توفي في مكّة نحو سنة (١٠٢ هـ/ ٧٢١ م). ولقد أدّى موت هؤلاء الصحابة ﷺ إلى أزمة فكريّة معيّنة، حتى بعد أن تمّ جمع الحديث. لذلك كان من اللازم حلّ عدد من المسائل المهمّة حول القرآن والأحاديث.

لم تكن هذه المسائل تتعلّق بسلطة القرآن والحديث، بل تتعلّق بالأحرى بكيفيّة فهمها. ومع ذلك كانت تلك المسائل مهمّة للغاية، وتشمل المواضيع التّالية: ماذا يحدث عندما يوجد تناقضات ظاهرة أو نَسَخٌ في القرآن أو في الحديث أو بين الاثنين؟ ماذا يحدث عندما توجد روايات للحديث مختلفة، يبدو أن بعضها يناقض بعضاً؟ وهل المنطق والتّناقض مفاهيم مشروعة عند تطبيقها على ما شرّعه الله ﷻ؟ كيف يمكن فهم الفروق والخلافات بين صحابة النَّبِيِّ ﷺ رضوان الله عليهم حول نقاط عديدة؟ وملخص هذه المسائل ماذا نفعل بتعارض وتناقض الأدلّة؟

وأضف إلى هذه المسألة الكبرى الأسئلة التّالية: ماذا نفعل بالأُمور التي لم تُذكر لا في القرآن ولا في الحديث؟ كيف نعرف ما إذا كانت الأُمور المذكورة في القرآن أو الحديث خاصّة مقتصرة على سياقها أم عامّة؟ ما هي سياقات كلّ آية أو حديث، وكيف تؤثر على التّعليقات الخاصّة التي وجّهها النَّبِيُّ ﷺ لأشخاص مختلفين؟ ما هي الآيات التّشريعيّة في القرآن وما هي الآيات التّوجيهيّة؟ ما هي الحقيقيّة وما هو المجاز؟ وكيف نعرفهما؟ ماذا يحدث عندما يكون المعنى المجازي المعروف للغة العربيّة يختلف عن معناه الحرفي؟ ماذا يحدث عندما تكون الكلمات مشتركة بين عدد من المعاني،



وكيف نعرف ما هو المعنى (أو المعاني) الصحيح؟ كيف لنا أن نعرف أننا نفهم الكلمات العربية بالطريقة ذاتها التي فهمت بها في زمن نزول القرآن؟ ما هي السنّة من أفعال النبي ﷺ التي يجب اتباعها، وما هي الخاصّة بظرف معيّن أو من خصائصه ﷺ؟ ما هو مدى قطعيّة الحديث في الثبوت أو قوّته لكي يصحّ أن يكون أصلاً لاستنباط الأحكام؟ هل خبر الواحد كاف للتّشريع؟ على مَنْ بالضبط تطبّق الأحكام؟ من هو المؤهل لتأويل النصوص واستنباط الأحكام؟ من هو المسؤول عن تنفيذها؟ وكيف، وتحت أيّة شروط؟ ماذا نفعل بالأحكام التي تبدو ظالمة أو هل أن العدل بحدّ ذاته مفهوم ذاتي لا معنى له خارج الأحكام التّشريعيّة؟ إذا كان الأمر كذلك، ماذا بالنّسبة للأحكام التي من الواضح أنّها تناقض مبادئ العدل كما فصّلت في القرآن والحديث؟ هل يوجد منهج للتأويل متلازم في القرآن والحديث؟ لماذا توجد تأويلات مختلفة وكيف ينبغي للمفسّرين المختلفين أن ينظروا إلى بعضهم البعض وآراء بعضهم البعض؟ إذا أجمع كلّ علماء المسلمين على تفسير واحد هل يصبح هذا الإجماع ملزماً؟ ماذا لو أجمعوا ثمّ اختلف الجيل اللاحق؟ أو ماذا لو أجمعوا ثمّ اختلفوا لاحقاً؟ وهل ممّ جرّاً. لقد انشغل كثير من التّاريخ التّشريعي والفكري بشكل مفهوم بهذه المسائل بالغّة الأهميّة. وأدّت بهم إلى خلافات وجدالات لا حصر لها. فإن قيل إنّ الإسلام بسيط، فهو صحيح أن الإسلام بسيط فهمه وممارسته، ولكن هذه المسائل التي تؤدّي إلى استنباط الأحكام ليست بسيطة، ولا يستهين بها إلّا جاهل.

طوّر كثير من العلماء - ما بين سنة ٩٠ إلى ١٣٠ هـ - في القرون الأولى للإسلام مناهجهم المتكاملة للتّعامل مع كلّ هذه المسائل. ويُدعى كلّ منهج

من هذه المناهج «مذهباً» وجمعها «مذاهب». وتعني حرفياً نقطة ذهاب أي انطلاق، وبالتالي اتجاهاً. وهذا وصف ممتاز لها، حيث إنها تحدّد كيفية الشّروع اعتماداً على القرآن والحديث.

عندما بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ معاذ بن جبل رسولاً له إلى اليمن، سأله ﷺ: «كيف تُقضي إذا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟» قال: أقضي بكتاب الله. قال: «فإن لم تَجِدْ في كتابِ الله؟» قال: فبسنة رسول الله. قال: «فإن لم تَجِدْ في سنة رسول الله؟» قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «الحمد لله الذي وَفَّقَ رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسولَ الله» (أخرجه أبو داود والترمذي والتّرمذي)، وفي هذا موافقة صريحة من النَّبِيِّ ﷺ على هذا المنهج. وهكذا عُرِفَ هؤلاء العلماء الذين طوّروا مناهجهم في التّفسير بالأئمة المجتهدين وشملوا أمثال:

الزّاهد الكبير الحسن بن يسار البصري (١١٠هـ/ ٧٢٨م)؛ عبد الرّحمن بن عمرو الأوزاعي (١٥٧هـ/ ٧٧٤م)؛ الزّاهد سفيان بن سعيد الثّوري (١٦١هـ/ ٧٧٨م)؛ الليث بن سعد (١٧٥هـ/ ٧٩١م)؛ تلميذ الشّافعي: أبو ثور إبراهيم بن خالد (٢٣٩هـ/ ٨٥٤م)؛ داود الظّاهري (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م)؛ المفسّر الكبير للقرآن محمّد بن جرير الطّبري (٣١٠هـ/ ٩٢٣م)؛ وكلّ واحد من هؤلاء العلماء كان مستقراً في إقليم معيّن من العالم الإسلامي، ومثّل إلى حدّ كبير منهج تفكير العلماء الأقدمين في منطقته. ولكن أربعة مذاهب فقط سادت في العالم السّني، وما زالت سائدة حتى اليوم، هي:

مذهب أبي حنيفة النّعمان بن ثابت (١٥٠هـ/ ٧٦٧م)؛ مذهب مالك بن أنس (١٧٩هـ/ ٧٩٦م)؛ مذهب محمّد بن إدريس الشّافعي (٢٠٤هـ/ ٨٢٠م)؛ ومذهب أحمد بن حنبل (٢٤١هـ/ ٨٥٥م).

وقد جعل أبو حنيفة ومذهبه الأولوية عمومًا في ترتيب أهمية مصادر

الشريعة:

١- القرآن.

٢- الحديث الصحيح والمشهور.

٣- الإجماع وآراء صحابة النبي ﷺ رضوان الله عليهم الشريعة، وبوجه خاص الفقهاء منهم كابن مسعود ؓ.

٤- القياس والاستحسان بناءً على القرآن والسنة.

عاش أبو حنيفة في العراق، وكان يعتقد أنه مهما كانت الأحاديث كثيرة، فإنه ينبغي على العلماء أن ينظروا إلى الكيفية التي فهم بها الرواة الأحاديث التي سمعوها في الواقع (أي صحابة النبي ﷺ رضوان الله عليهم)، لأنهم كان لديهم خبرة مباشرة وعلم بالظروف والسياق ومقاصد الأحاديث. وبعبارة أخرى، فإن أبو حنيفة قد قبل حقيقة أن فقهاء الصحابة ؓ كانوا في موقع يمكنهم من فهم الأحاديث أفضل من موقع قرون المسلمين اللاحقة الذين يملكون نصوصًا منعزلة فقط، وحتى هذه النصوص لم تكن مستخدمة حرفيًا بدقة.

يبقى المذهب الحنفي أكبر المذاهب السنية حيث إن خمسين بالمائة من السنة يتبعون المذهب الحنفي. وهو في الأساس مذهب كل آسيا الوسطى السنية بما في ذلك شبه القارة الهندية. وكان المذهب الرسمي للخلافة والسلطنة العثمانية الشاسعة (٦٩٩-١٣٤٣ هـ/ ١٢٩٩-١٩٢٣ م)، وهو بالتالي أكثر المذاهب تطورًا وجمعًا من كل المذاهب. وعلاوة على ذلك، فقد قسم الفقه الإسلامي إلى العبادات (أحكام العبادات) والمعاملات (أحكام متعلقة بالعلاقات



الاجتماعية والمالية)، بحيث أن معاقل الشافعية كإندونيسيا وماليزيا ومصر والأردن تبنت أحياناً بعض جوانب من الفقه الحنفي للعلاقات الاجتماعية وأحكام الأحوال الشخصية، لأنها أسهل في التطبيق.

عاش مالك بن أنس حياته في المدينة (التي كان النبي ﷺ قد استقر بها وتوفي فيها). وجعل الأولوية في الاستدلال لعمل علماء المدينة، لأنه كان يعتقد أن عمل الناس في المدينة في زمنه - الذي لا يفصله عن النبي ﷺ إلا جيلان - يعكس سنة النبي ﷺ بغاية الدقة، ولذلك فإن الأدلة عنده على الترتيب الآتي:

١ - القرآن الكريم.

٢ - سنة النبي ﷺ كما تفهم من الأحاديث وأقوال الصحابة ﷺ وعمل أهل المدينة.

٣ - الإجماع.

٤ - القياس.

٥ - المصلحة المرسلة.

وضع الإمام مالك أول كتاب في الفقه الإسلامي مرتب بشكل منهجي، وهو الموطأ، وما يزال هذا الكتاب مصدراً أساسياً للحديث النبوي الشريف بين علماء المسلمين اليوم. ويتبع مذهبه نحو عشرين بالمائة من أهل السنة، معظمهم في شمال إفريقيا وغربها.

وكان تلميذ الإمام مالك محمد بن إدريس الشافعي من بطن من قریش في مكة يلتقي نسبه مع نسب النبي ﷺ، لكنه سافر في أنحاء العالم العربي. اختلف الشافعي مع أستاذه السابق مالك. ورأى أن الحديث وحده لا يمكن



أبدًا أن ينسخ القرآن. ونظر بعد القرآن إلى نصوص الأحاديث نفسها معتمدًا في الحكم على صحتها على النظر في الأسانيد والمتون. ويعتبر كتابه «الرسالة» أول عرض متكامل لمنهج أصول التشريع الإسلامي، أي أصول الفقه. وهو نص إبداعي بالنسبة لكل أولئك الذين يدرسونه. يقول فيه:

«على أن ليس لأحد أن يقول في شيء حلّ ولا حرم إلا من جهة العلم، وجهة العلم: الخبر في الكتاب أو السنة، أو الإجماع أو القياس» (الرسالة). ويقول أيضًا متحدّثًا عن النبي ﷺ: «ويُسَنُّ السنة ثم ينسخها بسنّته، ولم يدع أن يبين كل ما نسخ من سنّته بسنّته. . . ولم نجد عنه حديثين مختلفين إلا ولهما مخرج، أو على أحدهما دلالة بأحد ما وصفت، إما بموافقة كتاب أو غيره من سنّته أو بعض الدلائل» (الرسالة).

وبالتالي فقد قدّم في الاستدلال:

- ١ - القرآن.
- ٢ - الحديث الصحيح.
- ٣ - إجماع العلماء.
- ٤ - أقوال الصحابة رضوان الله عليهم (في المذهب القديم للشافعي).
- ٥ - القياس المبني على الكتاب والسنة.
- ٦ - الاستصحاب.

وبسبب تقديم العمل بنصوص الأحاديث على تأويلاتها السابقة، دعا الشافعيون مذهبهم، مذهب الحديث (مدرسة الحديث الفقهية). وربع أهل السنة تقريبًا شافعيون في عباداتهم على الأقل.

وقد انبثقت من مدرسة الحديث الإمام أحمد بن حنبل الذي تعرّض للاضطهاد وكان مثلاً في الثبات. وقد رأى ابن حنبل أنّ الحديث الضعيف مقدّم على الرّأي والقياس. ورأى أنّ أي حديث مروي يمكن أن يكون النّبِيُّ ﷺ قاله حقاً، ولو بإسناد ضعيف (فهو بالتّالي إلهامٌ لا يُخطئ) فهو أفضل من اللّجوء إلى الرّأي، الذي لا يخلو في نظره من خلل جوهريّ. وبالتّالي فقد جعل هو ومدرسته (نحو خمسة بالمائة من أهل السنّة فقط تحديداً) ترتيب الأدّلة على النحو التالي:

١- القرآن.

٢- الحديث الصّحيح.

٣- إجماع أهل القرون الأولى.

٤- أقوال الصّحابة ﷺ.

٥- الحديث الضّعيف.

٦- القياس المبني على الكتاب والسنّة.

يتّضح من كلّ ما جاء سابقاً أنّ لكلّ مذهب فقهي وراء منهجه افتراضات - مستنبطة بذكاء، ومقبولة عقلياً - وكلّها مبنية على القرآن والحديث. وهناك عشرات من العلماء اللّامعين في كلّ قرنٍ قاموا بالنّظر فيها، ودراستها والعمل بها، وتطويرها. ويتّضح بالتّالي، أنّ هذه المناهج المختلفة أدّت باللزوم إلى آراء مختلفة في قضايا عديدة.

وفي الواقع فإنّ ما اتّفقَ عليه من الأحكام عامّة، بل وفي كلّ مذهب، لا يزيد على عشرة بالمائة من مجمل الأحكام، وهي التي اعتبرت قطعيّة، غير قابلة للجدل. واعتبرت آراء العلماء في القضايا الأخرى مبنية عمومًا على



الرأي ظنيّة. ورغم وجود - أو ربما نتيجة لهذا - بعض الجدل عبر التاريخ بين المذاهب السنية الرئيسيّة الأربعة، إلّا أنّها عدّت كلّ مذهب آخر منها شرعيّاً، وتبنّت موقفاً جماعياً من الاحترام لبعضها البعض. قال الشافعي نفسه: «(نعتقد أنّ) مذهبنا صحيحٌ يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب». وقد قوى هذا الاعتراف المتبادل مذهب أهل السنّة كنظام متكامل في ذاته، يقبل تعدّد الآراء في الفكر والتّشريع. وأصبحت دراسة الأصول الشرعيّة بناءً على مناهج المذاهب تعرف بأصول الفقه وهي تعني حرفياً الأسس التي قام عليها الفقه.

لقد ابتكر مصطلح «أصول» بعد رسالة الشافعي على الفور تقريباً، قبل أن يؤلّف شمس الأئمة محمد بن أحمد السرخسي (٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م) كتابه الشهير «الأصول» - المعروف «بأصول السرخسي». وهذا يفسّر لماذا يُعرف أولئك الذين اتّبّعوا نظام المذاهب «بالأصوليين». (تُساء أحياناً ترجمة كلمة «أصول» إلى الإنجليزية إلى كلمة «fundamentalism»، وهي خطأ تماماً في بيان مضمونها، وينبغي ترجمتها إلى كلمة «principlism». ومنذ آلاف السنين من بداية القرن الثالث للإسلام وحتى القرن الثالث عشر (يعني من نحو سنة ٨٠٠ إلى ١٧٥٠م أو ما يقاربها) من المستحيل العثور على عالم سني واحد كبير ومعروف عالمياً لم يتم رسماً إلى مذهب واحد من هذه المذاهب (أي لم يكن بالتالي «أصولياً»)، وهذا واضح من أسمائهم وكناهم كابن رجب الحنبلي والنووي الشافعي وهكذا. والإسلام «الأصولي» هو التراث الفقهي والفكري العظيم للإسلام السنّي بعينه على مرّ التاريخ الإسلامي.

ينبغي أن نلاحظ أن كل ما ذكرناه آنفاً يرجع إلى كيفية استنباط الأحكام من المصادر الأولى وفقاً لمنهج منطقي ثابت. وهو يرجع إلى ماهية الأحكام. وما ينبغي أن يكون مثالاً في الظروف الطبيعية في القرن السابع. وهنا تكمن عقبة أخرى: الظروف تتغير. وهي تتغير بأربعة طرق تحديداً: في الزمان؛ والمكان؛ والأشخاص؛ والأحوال. أدرك العلماء اللاحقون هذا، وأشاروا إلى أن الأحكام لا يمكن استنباطها من النصوص مرة واحدة للأبد، من دون أن نأخذ بعين الاعتبار السياقات التي تُطبّق فيها، والسياق الذي بالتأكيد كانت فيه نافذة في المقام الأول. ويتطلب هذا بدوره فهماً حقيقياً لسياقات الزمن الحاضر وحقائق الواقع. وهذا هو الميدان الذي يقصر فيه علماء الإسلام المعاصرون. فهم لا يفهمون في الواقع سياق الناس اليوم وطبيعة العصر الذي نحن فيه، ويظنون أنهم يفهمونه. ولا يعرفون ما يجري في الواقع. وما يجري متعلق بكيفية التشريع. وإن لم تفهم الكيفية، فإن تطبيق حكم واحد على الجميع سيؤدي على الأرجح إلى الخطأ. ولذلك في حين تكون الأحكام المستنبطة بحد ذاتها صحيحة في كثير من الأحيان، فإن تطبيقها في عالمنا غير صحيح، لأنها لم تأخذ التغير الطبيعي للسياق بعين الاعتبار. إن تطبيق حكم مشتق كما هو الحال غالباً لا يحقق في الواقع هدف الحكم (تحقيق المناط)، ولذلك وهو في الحقيقة غير صحيح. فهو يبدو مثل طالب يقدم جواباً بطريقة القص واللصق من الويكيبديا على سؤال يختلف عن السؤال الذي وجه له. ومن الواضح أن هذا يحتاج إلى تغيير وتصحيح، ويجب على علماء الإسلام أن يدرسوا مواضيع كالتاريخ والفلسفة والعلم والتكنولوجيا والطب، لكي تعكس الأحكام التي يصدرونها غاية الشريعة الحية، وليس مجرد صيغة كتاب منها.

وكما سنناقش في الفصل التالي، فقبل تشكيل عصبة الأمم على سبيل المثال (في ١٩٢٠م) كانت الحالة الطَّبِيعِيَّة للعلاقات السياسيَّة بين الأمم حالة تنافس عدائي، إن لم تكن حربًا. كانت العلاقات هجوميَّة بشكل معلَّن، وإن استطاعت أمة توسيع أراضيها وامتلاك جزء من منطقة أمة أخرى مع عدم المحاسبة عليها، كان هذا يعتبر أمرًا رائعًا. وكان يتم عادة البحث عن أي ذريعة لفعل مثل هذا. بل لم يزعج كثير أنفسهم في إيجاد الذرائع. وتوجد أمثلة لانهاية لها على ذلك.

وبطريقة مشابهة، كان يفترض في العالم الإسلامي، أن تكون حالة العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين الجهاد - حيث إن الأمم بنيت عمومًا على الدين أيضًا - إلا إذا كان هناك معاهدة سلام محدَّدة بين الدولتين. واليوم، كلَّ الدَّول هي أعضاء في الأمم المتَّحدة، والسَّيْرُط المفترض بينها جميعًا هو السَّلام بالتَّحْدِيد. وتُنظَّم المعاهدات العالميَّة نواحي كثيرة من السَّلوْك الدَّولي. لذلك فإنَّ الجهاد ليس حالة طَّبِيعِيَّة في السَّلوْك الدَّولي اليوم، ولا يمكن اعتباره سلوكًا مشروعًا (إلا إذا تعرَّضت الدَّول المسلمة بالطَّبع إلى الغزو والاحتلال من قبل قوى خارجيَّة): ومن الواضح أنَّ تطبيق فتاوى كتبت في سياق الغزو المغولي غير صحيح وغير شرعي في يومنا هذا.

ومن الجدير بالذكر أخيرًا أنَّ العلماء الأصوليين قاموا بتنقيح مبادئ السَّريعة الإِجرائيَّة وتحويلها إلى قواعد فقهية. وهذه قواعد عامَّة موجزة تميَّز نماذج في السَّريعة يمكن استخدامها للمساعدة في إصدار أحكام عمليَّة إنسانيَّة. والقواعد الخمس الرئيسيَّة هي (وَفَقًّا للفقيه المصري تقي الدين السبكي (٧٢٧-٧٧١هـ/ ١٣٢٨-١٣٧٠م) في كتابه الأشباه والنظائر:



- ١- الأمور بمقاصدها.
 - ٢- الضرر يزال.
 - ٣- العادة مُحْكَمَة.
 - ٤- المشقة تجلب التيسير.
 - ٥- اليقين لا يزول بالشك.
- وهذه القواعد يمكن أن تكون نافعة للغاية، ولو أنها تمثل بحسب الظاهر ابتعاداً عن الانشغال المباشر بالقرآن والحديث.

ابن تيمية وبداية الحركة المناهضة للمذاهب الأصولية

من الواضح أن علوم الأصول قد أصبحت علماً متشابكاً، وربما معقداً على مرّ القرون. وما يزال يثير المزيد من التعقيد، وقد يصل أحياناً إلى استنتاجات بدت تناقض مباشرة أحاديث صحيحة معينة. وهذا يمكن أن يكون لعدد من الأسباب، منها: تقديم القرآن أو الأحاديث الأخرى، اعتبار الحديث ضعيفاً أو منسوخاً، اعتباره خاصاً لا عاماً، مقيداً لا مطلقاً، أو اعتبار معناه مجازياً لا لغوياً، وهلّم جرّاً. وهنا يدخل ابن تيمية.

كان تقي الدين أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ / ١٣٢٨م) واحداً من أبرز وأذكي علماء الحنابلة في الشام. عاش في فترة مضطربة، وقضى جزءاً من حياته يحارب غزوات التتار، زيادةً على محاربته للنصيريين والإسماعيليين - الذين اعتبرهم كفاراً. وكان لديه بالتالي وجهات نظر خاصة بالجهاد. واحتج أيضاً ضد كثير من الممارسات كان يعتقد أنها دخلت إلى الإسلام من خلال الطرق الصوفية



أو تصوّف العوام، ولم تكن في نظره جزءاً من السنّة. ولكنّه احتجّ أيضاً ضدّ عقائد الأشاعرة والماتريدية الأصيلة. وزعم بشكل خاصّ أنّ نصوص القرآن التي تفيد التشبيه، مثل «اليد» «والعين» «والوجه» «والجنب» «والاستواء على العرش» (انظر في القرآن الكريم: الفتح، ٤٨: ١٠؛ البقرة، ٢: ١١٥؛ الطور، ٥٢: ٤٨؛ الزمر، ٣٩: ٥٦؛ الحديد، ٥٧: ٤ وغيرها) ينبغي أن تفهم حرفياً على ظاهرها لكن من دون السّؤال عن الماهيّة أو الكيفيّة. وهذا، كما زعم، لم يكن رأيه فحسب، بل المذهب الحقّ الوحيد، وكان واجباً على العلماء أن يتفقوا معه حول هذا الأمر، من دون تنازل منه، ومن دون السّماح باحترام تعدّد الآراء بين العلماء. أمّا الذين سبقوه فقد كان يميل إلى اعتبارهم على خطأ بيّن. وقد تحدّى في النهاية صرّح الأصول ذاته. وقد كانت للمذاهب في ذلك العصر (بما في ذلك مذهب الحنبلي) أحكامٌ وقواعد فقهية صارت معالم لكلّ مذهب. ويشبه ذلك الموقف إلى حدٍّ ما وصفَ تينيسون في قصيدته التي بعنوان: «تسألني لماذا» (١٨٤٢):

كُلُّ مِنْهُمْ حُرٌّ مُخْتَارٌ	فِي أَرْضٍ يَفْلَحُهَا الْأَحْرَارُ
نَبِيهَا أَخْيَارٌ أَوْ أَشْرَارُ	وَيُحِيطُ بِهَا مِنْ كُلِّ جَوَا
يَتَكَلَّمُ طَوْعًا مَا يَخْتَارُ	فِيهَا يُمَكِّنُ لِلْمَرْءِ بَأْنَ
تَنْعُمُ بِالْأَمْنِ وَالْاِسْتِقْرَارِ	أَرْضٌ بِنِظَامٍ يَحْكُمُهَا
شُهِرَتْ بِالْمَجْدِ مَدَى الْأَعْمَارِ	أَرْضٌ عُرِفَتْ بِالْعَدْلِ وَقَدْ
تَنْتَقِلُ بِبُطْءٍ وَاسْتِمْرَارِ	تَتَسَّعُ بِهَا الْحُرِّيَّةُ إِذْ
يَحْمِلُهَا مِنْهُ بَلَا اسْتِهْتَارِ	وَرَثَهَا السَّلَفُ إِلَى خَلْفِ
زَعِيمًا أَوْ يَحْظَى بِقَرَارِ	أَرْضٌ لَا يَجِدُ بِهَا الْمُنْشَقُّ



لَكِنْ بَتَفَاوُتِ دَرَجَاتٍ قَدْ يَصِلُ إِلَى تِلْكَ الْأَطْوَارِ
قُوَّةُ بَعْضِ الْأَفْكَارِ بِهَا خَرَجَتْ تَتَوَسَّعُ فِي إِصْرَارِ
وَتُلَاقِي وَقْتًا وَمَكَانًا تَتَشَرُّ بِهَا بَعْضُ الْأَثَارِ

ومع ذلك، فإنَّ بعض الأحكام التي تراكمت عبر العصور في كلِّ مذهب كانت أحياناً تناقض بعض الأحاديث. إضافة إلى ذلك رأى ابن تيمية أنَّ هناك ممارسات دينية معينة لا يمكن اقتفاء أثرها بالسنة المروية في الحديث فاعتبر أنَّ كلاً منها «بدعة» أي أمور محدثة لا أصل لها في الدين استناداً إلى حديث «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» (رواه مسلم). كما أنَّ ابن تيمية رأى أنَّ هناك ممارسات دينية معينة لا يمكن متابعة اقتفاء أثرها إلى السنة المروية بالحديث، فاعتبرها كلها بدعاً أي أموراً محدثة لا أصل لها في الدين. لذلك دعا إلى العودة إلى ما اعتقد أنَّه كان من سنن القرون الثلاثة الأولى للمسلمين، وهم السلف الصالحون (ومن هنا جاءت كلمة «سلفي» لتصف أتباع هذه الحركة). وكالشافعي (في كتابه «الرسالة»)، اعتقد ابن تيمية أنَّ كلَّ تناقض ظاهر بين أحكام الكتاب والسنة قد تمَّ حلُّه في مكان ما من الحديث. وكما فعل الطبري، فإنَّه قَصَرَ تفسير القرآن على التفسير بالمأثور، أي بالاعتماد على ما يمكن العثور عليه في الحديث أو أقوال السلف، جاعلاً القرآن خاضعاً كلياً للحديث (كما نصَّ على ذلك في كتابه: مقدِّمة في أصول التفسير). ولكن ابن تيمية، خلافاً للشافعي والطبري، لم يترك مجالاً لإمكانية إباحة ما لم يُنصَّ عليه في الحديث. ودعا إلى عدم التقيّد بالخمسمائة سنة من الدراسة والفكر الإسلامي التي تفصل بين عصره وعصر السلف الصالحين، باعتبارها غير ملزمة. وبعبارة دقيقة، فإنَّ ابن تيمية قد أسس حركة مناهضة للأصول، رغم



أنها تدعى في بعض الأحيان «حركة اللا مذهبية» لكن حقيقتها أنها لا ترفض مذاهب الأفراد فحسب، بل الأصول التي قامت عليها مناهجها.

وكان عمل ابن تيمية بهذا المعنى يشبه مارتن لوثر قليلاً. أدان لوثر علناً ما اعتبره تجاوزاتٍ للكنيسة في العصور الوسطى، وأراد الرجوع مباشرة إلى الكتاب المقدس حسب فهمه له، من دون اعتبار لمنهج التّأويل الكاثوليكي المعروف. واعتبر ابن تيمية (وأتباعه) كما اعتبر لوثر بعده هذا تطهيراً للدين من البدع الجديدة التي تسَلَّت إليه. ولكن بالاستغناء من حيث المبدأ عن المناهج التي حلّت مشكلتين أساسيتين في النصوص - مشكلة تعارض الأدلة، ومشكلة الصمت عن ظرف جديد لم يسبق - فقد بقيت كل المسائل القديمة من دون حل. فإن تعمّد إهمال الحلول القديمة لم يذهب بالمعضلات القديمة. إضافة إلى هذه الأمور، وبسببها، ظهرت مشاكل جديدة. وتشمل هذه المشاكل المبالغة في التبسيط؛ وإخراج القضايا المعقدة من سياقاتها؛ والانتقاء الناقص أو الالتقاط العشوائي للنصوص من دون الأخذ بعين الاعتبار ما ورد في مجموع القرآن والأحاديث حول الموضوع المطروح. وقد أدّى هذا بدوره إلى نزاعات - من الناحية الأصولية على الأقل - أصبحت منذ ذلك الحين سمة للحركة المناهضة للأصول. وتشمل هذه النزاعات:

١- اتّباع أفراد المفكرين (كابن تيمية نفسه) بدلاً من اتّباع المذاهب أو اتّباع المنهج. وهذه قضية هامّة، لأنّه لا أحد في الإسلام معصوم عن الخطأ بعد النّبِيِّ ﷺ. ويعني أيضاً عدم امتلاك منهج للتعامل مع التعارضات والتباينات الظاهرة في الحديث. ويعني هذا بالتأثير أن «السلفية» ليست مجرد تطبيق موضوعي للحديث، بل يعني بالأحرى تطبيق مذهب ابن تيمية



بناءً على الحديث أو بالأحرى على الأحاديث التي انتقاها ابن تيمية. وبعبارة أخرى، فهو في الواقع مذهب خامس يرفض قطعياً أي رأي غير رأيه ويعتبر رأيه قاطعاً بحيث أن مؤسسه يصبح معصوماً عن الخطأ فعلياً.

٢- رفض أي خوض في علم الكلام، ورفض مذهب الأشاعرة والماتريدية. وهذا لا يأخذ بعين الاعتبار مسألة الغاية من ذكر بعض تفاصيل العقيدة في القرآن، وكما ناقشنا سابقاً (في الفصل السادس)، يدعو الله ﷻ الناس إلى تدبر القرآن (النساء، ٨٢: ٤؛ المؤمنون، ٢٣: ٦٨؛ ص، ٣٨: ٢٩؛ محمد، ٤٧: ٢٤؛ وانظر أيضاً: ق، ٥٠: ٣٧)، والتفكر في آياته. وهذا أيضاً يجهل أو يتجاهل أن بعض الصحابة لهم خوض في هذا الكلام بدءاً من سيدنا علي ﷺ وابن عباس ﷺ، وبعض الصحابة الآخرين، وحتى الإمام أبو حنيفة وأحمد بن حنبل تكلّموا في علم الكلام (النحل، ١٦: ٤٣-٤٤؛ الحشر، ٥٩: ٢١؛ الرعد، ١٣: ٣؛ آل عمران، ٣: ١٩٠-١٩١).

٣- جعل علم الحديث الذي هو علم للمتخصّصين، قضية تحزّب وتعصّب لعامة الخطباء، بل ولكلّ مسلم عادي، وجعلها تغلب على كلّ علم في الإسلام، بما في ذلك تفسير القرآن والفقه. وأصبح أصحاب الحركة المناهضة للأصول يدعون أنفسهم في بعض الأحيان «أهل الحديث»، وكأنه ضمناً أن المذاهب الأخرى ليست مبنية على الحديث. ولكن من الصعب العثور على حديث صحيح لا يشمل صوفياً أو أشعرياً - ماتريدياً في سلسلة رواته. وإذا كانوا كلّهم ضالّين وكاذبين - كما ادّعى لاحقاً بعض مناهضي الأصول - فلن تبقى عندئذ إلا بضعة أحاديث ثابتة، ويصبح بالتالي كلّ ما بُنيت عليه الحركة التي تناهض الأصول وتدّعي الانتساب للحديث باطلاً.

٤- رفض الإجماعات السابقة، ورفض إقرار تعدد الآراء بين العلماء.

٥- إنكار كل الممارسات المستجدة مما لم ينص عليه في الحديث، واعتبارها بدعاً. حيث إن علم الحديث لم يدوّن بشكل كامل - أو بشكل خالٍ من الغموض - ولا يشمل ما لم يدوّن من الروايات أو الممارسات النبويّة الشريفة، ولا يأخذ بعين الاعتبار بأنّه حتى في الكلام يقع قدر كبير من التّواصل المعتمد على وسائل غير الألفاظ (كالسّياق، والموقع المادي، ومزاج المجموعة، ونبرة الصّوت، وتعابير الوجه، وإيماءات الجسد). وهذا أدّى بطبيعته إلى إسقاطات بمفارقات زمنيّة تعود إلى القرن الأوّل من الإسلام. وعلاوة على ذلك، يجب على كلّ علماء المسلمين أن يدرسوا علم النّحو، رغم أنّ دراسة النّحو هو في الواقع بدعة من النّاحية التعريفية (أي شيء جديد، مخترعٌ دخل على أصول الدين) أعيد بناؤه لاحقاً وصياغته من القرآن والحديث والشّعر العربي. ولذلك كما جادل العلماء الأصوليون بأنّه يجب أن يكون هناك نوعان من البدع: بدع حسنّة وبدع سيّئة. ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأنّ جمع المصحف وتدقيقه وضبطه لم يأمر به النبي ﷺ وإنما حدث في زمن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، ثم سيدنا عثمان رضي الله عنه، حيث أمرا به - داعيك من الحديث الذي لم يكتب ولم يجمع إلّا بعد جيلين - فهل يعتبر هذا بدعة أيضاً؟ طبعاً لا! فيجب أن نفرّق بين البدعة السيّئة التي تدخل شيئاً جديداً على العبادات وبين البدعة الحسنة التي تقوّي العبادات أو تخدمها: فمن المعروف أنّ عمر رضي الله عنه صلّى التراويح جماعة وقال عنها: «نعمت البدعة هذه» (رواه البخاري).

٦- رفض ديوان الشّعر الجاهليّ برمته كمرجع دلالي واشتقاقي للغة

العربية، على أساس أن الشعراء كانوا وثنيين، واستبداله بفهم الصحابة والجيلين الأولين بعدهم (أي السلف الصالح) للكلمات العربية، مع أن الصحابة ؓ أرشدوا إلى الرجوع للشعر الجاهلي لفهم القرآن، فسيدنا ابن عباس ؓ يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ . . .﴾ [القلم، ٦٨: ٤٢]: «إذا خفي عليكم شيء من القرآن، فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب» (تفسير ابن أبي حاتم والقرطبي)، ثم يفسر ابن عباس الساق بالشدة. وابن تيمية لا يقبل هذا التفسير من ابن عباس المبني على فهم المعنى في الشعر الجاهلي فيروده ويثبت صفة الساق لله ﷻ (مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية). وهذا بالطبع مشكلة من حيث المفهوم، حيث إن القرآن نزل بلسان عربي مبين (الشعراء، ٢٦: ١٩٥؛ وانظر: النحل، ١٦: ١٠٣ أيضاً)، أي بلغة كانت تعرفها الأجيال السابقة، وخاطب الوثنيين (في بعض الآيات). وسمي هذا النوع من التفسير «التفسير بالتفسير»، ومن هنا هذا يؤدي إلى منطق دائري لتفسير القرآن: فالكلمات تفسر حسب فهم المفسر وليس حسب الاشتقاق والفهم العربي للكلمة قبل الإسلام. ويعني هذا أن فهم القرآن ليس محدداً بمعرفة أصول الكلمات، وواقعياً يتغير مع اللغة العامية للعرب لأن هذه اللغة هي التي تحكم تفكير المفسر الجديد.

وعلاوة على ذلك، استخدم ابن تيمية هذا المفهوم ليجادل بأنه لا يوجد شيء يدعى مجازاً في القرآن، وكل الألفاظ حقيقة حرفياً. وعندما تكون الكلمات مجازية بما لا يقبل الجدال مثل: ﴿ذَابِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: ٢٩: ٥٧ وغيرها]، والكل يعرف بأن الموت ليس طعام يؤكل ويذاق، فإنه قام بتوسيع دلالة المعنى الأصلي للكلمات وحسب (مثل «ذائقة») ليشمل المعاني

المجازية أيضًا (للتجربة الجسدية). وكان هذا سببًا للوصول إلى نتائج غير متوقعة (خطيرة لاحقًا) لتفسير وفهم القرآن والحديث، تم تطبيقها.

٧- الحكم على شخص وإعلان أنه مرتدّ، وبالتالي إخراجُه من دائرة الإسلام: أي تكفير المسلمين الآخرين بناءً على أعمالهم (المخالفة للنوايا والأفعال المنصوص عليها). قد يكون التّكفير حكمًا بوجوب القتل، لذلك فإنّ هذه قضية خطيرة. وهي في الواقع أسوأ من الموت لأنّها تعني بتلك الوسيلة أن أحدهم قد طُلق من زوجه؛ وأنّ زوجه وأطفاله لا يمكن أن يرثوه، وأنّه لا يمكن دفنه في مقابر المسلمين. فهي تعني الموت إضافة إلى نهاية حياة عائلة المحكوم عليه، وأعماله في الحياة، وملكيّته. إنّهُ حكم قاسٍ بحيث أنّ النّبِيَّ ﷺ حذّر أنّ المرء يخرج عن إيمانه ويهدر دَمَ نفسه إذا حكم هذا الحكم وما كان صحيحًا مائة بالمائة. قال ﷺ: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا» (أخرجه البخاري ومسلم). ورغم أنّ بعض العلماء المتعصّبين لآرائهم أعلنوا من وقت لآخر كفر عقائد بعضهم البعض، إلّا أنّ الأغلبية العظمى من المسلمين تجنّبوه عمليًّا بقدر استطاعتهم عملاً بهذا الحديث. وحذّر ابن تيمية منه وحاول تجنّبه، ولكن بعد زمنه أدّت العناصر المتطرّفة في التفكير السلفي إلى تكفير جماهير النّاس وفقًا لأعمالهم بحسب ظواهر أعمالهم بالجملة، دون منحهم حتى فرصة للتوبة. وأدّت بالفعل في أحيان أخرى إلى شنّ الغارات على النّاس وقتلهم بناءً على التّكفير. وإضافة إلى هذه الأمور يوجد أمر آخر مهمّ حرّمه ابن تيمية وأدّى إلى وضع خطير فكريًا وعمليًّا، وهو تحريم علم المنطق.

المنطق

غالبًا ما كان المتقصون من الإسلام يجادلون بأن الإسلام يتجاهل عقل الإنسان وقوانين المنطق، ولذلك فهو بحاجة إلى التنوير بناءً على العقل. ويشيرون إلى ما يسمّون الآن طائفة المعتزلة من القرن الثامن إلى العاشر ميلادي المنقرضة اليوم الذين قدّموا العقل على النصّ. وكان ابن تيمية على العكس من ذلك - ولنكون منصفين - فإنّ كلّ الموروث الحنبلي قبله، لا يثق بالعقل والمنطق، ويعتبر علم المنطق بعيدًا أساسًا عن الإسلام ونتاج سفسطة يونانية أدّت إلى نظريات إنسانية تتسم بالشكّ وعدم الموضوعية كليًا. وقوانين المنطق - تُدعى أحيانًا قوانين التفكير - هي ثلاثة في الأساس، وحسب رأي برتراند راسل، هي كالتالي:

١ - قانون الهوية: «مهما كان يكون».

٢ - قانون التناقض: «لا شيء يمكن أن يكون ولا يكون».

٣ - قانون الوسط المحال: «كلّ شيء يجب إما أن يكون أو لا يكون».

«وهذه القوانين الثلاثة هي عينات من المبادئ المنطقية الظاهرة بحدّ ذاتها، ولكنها ليست في الواقع أكثر جوهرية أو ظهورًا من المبادئ الأخرى العديدة المشابهة». (برتراند راسل، مشكلات الفلسفة).

ورغم وضوحها فقد عبّر عنها أفلاطون كتابة ثمّ صاغها تلميذه أرسطو. كتب أفلاطون عن القانون الأوّل (قانون الهوية):

«لقد برهنَ لنا بارمنيدس العظيم، من البداية إلى النهاية... لا يمكن أبدًا البرهنة على أنّ الأشياء التي لا تكون هي كائنة. لذلك



نملك البرهان على هذا. إنَّ وصفنا بحدِّ ذاته (تصوُّرنا) هو الذي يجعل المسألة واضحة بشكل خاصِّ إذا قمنا بتفحصها قليلاً فقط». (أفلاطون، المغالط، ٢٣٧ a-b ؛ انظر أيضًا: كتاب أرسطو ما وراء الطبيعة iv، ١٠٠٦ a-b وفي ثياتيس، ١٥٥، يوسِّع أفلاطون هذا القانون بتقسيمه إلى ثلاثة مبادئ تطبيقية).

ويكتب أفلاطون عن القانون الثاني (قانون التناقض، ومعناه في الحقيقة بشكل دقيق قانون عدم التناقض):

«من الواضح أنَّ الشيء الواحد ذاته لا يمكن أن يكون فاعلاً ومنفعلاً بطرق منعكسة في الوقت ذاته على الشيء نفسه والسياق ذاته» (أفلاطون، الجمهورية؛ انظر أيضًا: كتاب أرسطو ما وراء الطبيعة).

ويكتب أفلاطون عن القانون الثالث (قانون حذف الوسط):

«سقراط: هل بعضُ النَّاسِ أصحَّاء؟

ألسيبياديس: نعم.

سقراط: وآخرون مرضى؟

ألسيبياديس: بالتأكيد.

سقراط: وهم ليسوا الأشخاصَ ذاتهم، أليس كذلك؟

ألسيبياديس: بالطبع، ليسوا هم ذاتهم.

سقراط: هل هناك أي أشخاص آخرين ليسوا أصحَّاء وليسوا مرضى؟

ألسيبياديس: لا.

سقراط: لأن المرء يجب أن يكون إما مريضاً أو غير مريض.

ألسيبياديس: هذا ما أراه. . .

سقراط: وهل يمكن للشئ الواحد أن يكون له نقيضان مختلفان.

ألسيبياديس: لا.

(أفلاطون، ألسيبياديس II؛ انظر أيضاً: أرسطو، كتاب ما وراء الطبيعة).

وقد يبدو في هذا لأوّل وهلة شيئاً غريباً عن الإسلام، لكنّ الغزالي في كتبه (القسطاس المستقيم ومحكّ النظر ومعيّار العلم) يشير إلى أنّ المولى استخدم في القرآن قوانين المنطق والقياس المنطقي بشكل ظاهر، أو بشكل ضمني (انظر، على سبيل المثال، المائدة، ٥: ١٨؛ الأنعام، ٦: ٩١؛ الإسراء، ١٧: ٤١؛ الأنبياء، ٢١: ٩٩؛ سبأ، ٣٤: ٢٤، الجمعة، ٦٢: ٦-٧) واستخدمها الأنبياء (انظر: البقرة، ٢: ٢٥٨؛ الأنعام، ٦: ٧٧). وعلاوة على ذلك، فإنّ القرآن يظهر لنا سوء استعمال الشيطان لقوانين المنطق من خلال مقدّمات مبدئية زائفة: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص، ٣٨: ٧٦].

وبمزيد من التحديد، يعرف الغزالي ما هو قانون الهوية أساساً، باعتباره الميزان الأكبر (مع مبادئه الثلاثة)؛ وقانون إبعاد الوسط وقانون التناقض باعتبارهما الميزان الأوسط والأصغر على الترتيب. يقول الغزالي عن الميزان الأكبر:

«واعلم أنّ الميزان الأكبر هو ميزان الخليل صلوات الله وسلامه عليه، الذي استعمله مع نمرود، فمنه تعلّمنا هذا الميزان، لكن بواسطة القرآن... ﴿... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ

فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ . . . ﴿البقرة: ٢٥٨﴾، وكمال صورة هذا الميزان أن تقول: كل من يقدر على إطلاع الشمس فهو الإله، فهذا أصل. وإلهي هو القادر على الاطلاع. وهذا أصل آخر. فلزم من مجموعهما أن إلهي هو الإله دونك يا نمرود» (الغزالي، القسطاس المستقيم). والمبدأ المنطقي (المستعمل) في الميزان الأكبر هو أن الحكم المنطبق على الأعم هو حكم منطبق على الأخص ومشمول فيه بلا شك.

ويقول الغزالي عن الميزان الأوسط، عند شرح قول الله ﷻ عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام، ٦: ٧٧]؛ «أما حده فهو أن كل مثلين وُصف أحدهما بوصف فُسلب ذلك الوصف عن الآخر فهما متباينان. . . فالإله يُنفى عنه الأفول، والقمر يثبت له الأفول، فهذا يوجب التباين بين الإله والقمر، وأن لا يكون القمر إلهًا، ولا الإله قمرًا» (الغزالي، القسطاس المستقيم).

ويقول الغزالي عن الميزان الأصغر: يقول الله ﷻ (للمؤمنين بأن يقولوا للكافرين): ﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ، ٣٤: ٢٤]. «إن استخدام هذا التوازن غير محدود، وربما معظم الأمور التأملية تدور حوله. . . وهو يأتي من تقييد جزئين بين الإنكار والإثبات» (الغزالي، القسطاس المستقيم).

النقطة الأساسية في كل هذا هي أنه لا تعارض على الإطلاق بين الوحي

والدِّين من جهة، والعقل وقوانين المنطق من جهة أخرى. إن طبقت هذه القوانين بشكل صحيح لا ينأى الدِّين عن العقل على الإطلاق. وعلى العكس من ذلك، فإنّه يمكن للدِّين استخدام قواعد المنطق، وهي في الواقع مستخدمة في القرآن ذاته - لتظهر الحقيقة التي غابت عن الشَّيطان الذي حاول إخفاءها. وهي بالتالي أداة أساسية من أدوات التفكير الصَّحيح وتساعد على معرفة الحقيقة (أورغانون)، هو عنوان كتاب أرسطو في المنطق الذي يعني ببساطة آلة أو أداة في اللغة الإغريقية القديمة). ويرى الغزالي في كلام الله ﷻ: ﴿... وَرَزُّنَا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء، ٣٥: ١٧]. وقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ [الحديد، ٥٧: ٢٥]. . . . إلماحاتٍ إلى العقل وقوانين المنطق لا تقبل الرَّدّ.

وزيادة على ذلك، فإنَّ العقل هو من خَلَقَ الله ﷻ. وقوانين المنطق حقائق ظاهرة الواضح (ومن البدهيات). والله ﷻ خلق هذه البدهيات بالحق؛ وهو الحق سبحانه (الأنعام، ٦: ٦٢؛ طه، ٢٠: ١١٤؛ المؤمنون، ٢٣: ١١٦ ومواضع أخرى) وهو مصدر الحقائق (البقرة، ٢: ١٤٧؛ آل عمران، ٣: ٦٠؛ الكهف، ١٨: ٢٩ ومواضع أخرى)؛ فهذه البدهيات كلّها تعتبر حقائق من الحق. فمن هنا يمكن أن تُعتبر قوانين المنطق الثلاثة تطبيقات نظرية لمبادئ الحقيقة. وبالتفصيل فإنَّ القواعد الثلاث تعكس على التوالي: الأحدية، والصمدية، والوحدانية (لأنَّ الوحدانية تسلب الأضداد). فقواعد المنطق تنبثق في الأصل من سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص، ١١٢: ١-٤]، والله أعلم. وباختصار إنَّ العقل والمنطق - ولو أنَّ اليونانيين القدماء هم الذين

صاغوا قواعده في البداية - ليسا معارضين لزومًا للدين. بل على العكس، يمكن استخدامهما - بل ينبغي استخدامهما - لخدمة الدين بما لا يخالف الشريعة. وتجاهلهما عند ابن تيمية قد يؤدي إلى انعكاسات خطيرة، والله أعلم.

اللامذهبية حتى الوقت الحاضر

الشخص الثاني الأشد تأثيرًا في حركة اللامذهبية هو ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية (٧٥١هـ / ١٣٥٠م). في الوقت الذي نشر فيه كثيرًا من آراء أستاذه الخاصة بالبدع، وعارض علوم ما وراء الطبيعة والفلك والكيمياء الأرسطية وعلوم زمنه الأخرى، كتب نصًا تقليديًا في صحة الجسم هو (الطب النبوي). وفي حين انتقد الاحترام الصوفي لأولياء الله، فإنه ألف مع ذلك شرحًا قيمًا وطويلاً لنص من نصوص الصوفية وهو كتاب عبد الله الأنصاري الهروي: «منازل السائرين إلى الله». وكان ابن كثير أيضًا (٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) من تلامذة ابن تيمية ولكنه لم يكن عالمًا معاديًا للأصول. وقد عُرف ابن كثير بتفسيره المقبول الميسر للقرآن (تفسير ابن كثير). وبسبب علاقته الشخصية بابن تيمية، فقد قرأت الأجيال اللاحقة من الحركة المناهضة للأصول، ونشرت تفسيره - بعد طباعته بشكل انتقائي - كما فعلوا مع تفسير: الجامع لأحكام القرآن للإمام محمد بن أحمد القرطبي المالكي (٦٧١هـ / ١٢٧٢م). وقد بدا بعد ابن القيم أن حركة اللامذهبية أصبحت مهمة أكثر بتطهير الدين من خلال الأحكام بدلًا من تطهير نفس الفرد بالفضائل. وبدت من الناحية الشكلية كأنها مرتبطة بالأصول وعلماء الأصول وبالأصول الحنبلية مع ذلك.

وتغيّر هذا مع المعلم المهمّ التّالي في هذه الحركة الّذي ظهر بعد أكثر من ٤٠٠ سنة الّذي تمثّل بالواعظ النجدي محمّد بن عبد الوهاب التّميمي (١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م). وبمساعدة القبائل النجدية - لا سيما شيخ القبيلة محمّد بن سعود - احتلّ ابن عبد الوهاب في وقت قصير قسماً كبيراً من الصّحراء العربيّة، مؤسساً دولة أولى، ومعلنًا الجهاد ضدّ الكثير من المسلمين الّذين اعتبر أنّهم قد أدخلوا في الدّين عناصر غريبة عنه. عارض ابن عبد الوهاب بشكل خاصّ الشّيعة والمتصوّفة الّذين (بسبب ممارسات العوام المشكوك بها) اعتبر أنّهم قد تجاوزوا الشّريعة. وألف عددًا من الكتب القصيرة والأطروحات أشهرها على الأرجح: «كتاب التّوحيد»؛ «الأصول الثلاثة»؛ «نواقض الإسلام».

يؤكّد كتاب «الأصول الثلاثة» على المبادئ الثلاثة: توحيد الرّبوبيّة (وحدانيّة الله)؛ توحيد الأسماء والصفّات (وحدانيّة الأسماء والصفّات الإلهيّة)؛ توحيد العبوديّة (توحيد العبادة). وهاجم هنا ابن عبد الوهاب ممارسات مثل تبجيل الأولياء أو مخاطبة النّبي ﷺ أثناء العبادات. ومع ذلك فقد ترك نصّه القصير نواقض الإسلام وما زال يترك ضررًا كبيرًا. إذ ينصّ «النّاقض العاشر» على سبيل المثال على أنّ من أسباب الكفر: «الإعراض عن دين الله، لا يتعلّمه ولا يعمل به». وهذا يجعل فعليًا من كلّ الذّنوب التي ترتكب بسبب الإهمال (كالنّسيان) سببًا للردّة عن الدّين التي يعاقب عليها بالإعدام. وتجعل النّواقض أيضًا من ارتكاب الذّنوب (من دون نيّة الردّة) وذنوب الجهل أسبابًا للردّة يعاقب عليها بالموت. ولا تشترط إجراءات قضائيّة لإنزال العقوبة، كما أنّها لا تقصر الردّة على الأفراد ممّا يعني أنّ النّاس



يمكن الحكم عليهم جميعاً بسبب الممارسات المنتشرة. ومن الواضح أنّ النواقض يحوي ادعاءات مشكّلة ذات عواقب خطيرة بالنسبة لعوام المسلمين ناهيك بغير المسلمين.

وقد ظهرت حركة اللامذهبيّة في القرن العشرين في حركتين رئيسيتين مختلفتين.

الحركة الأولى: التيار السلفي؛ (ويعتمد في جزء كبير منه على ابن تيمية) الذي غالباً ما يلتقي مع التيار الوهابي (الذي سمى الوهابية باسم مؤسسها محمد بن عبد الوهاب). يسمي السلفيون أحياناً أنفسهم «أهل الحديث»، ويسمي الوهابية أحياناً أنفسهم «أهل العقيدة» (والعقيدة التي يعنون بها هي عقيدة محمد بن عبد الوهاب). ولكن الخلاف اليوم بين السلفية والوهابية، إن وجد، فهو قليل. ويمكننا أن نميز لغاياتنا بين ثلاث فئات:

١- التيار الرئيس المعتدل للحركة السلفية ممثّلة بعلماء المملكة العربيّة السعوديّة المتعمّقين في العلم.

٢- السلفية المتطرفة المتميّزة فعلياً بتكفير كلّ شخص ليس مسلماً سلفياً/ وهابياً - أو ليس سلفياً/ وهابياً بقدر كاف بالنسبة لهم.

٣- السلفية الجهادية: أي الجماعات التكفيرية الجهادية التي تدّعي أنها تمثّل السلفية/ الوهابية، كتنظيم القاعدة، وتنظيم الدولة الإسلامية (أو داعش)، والحركات الإرهابية الأخرى أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين. وهذه الحركات هي فعلياً فروع جهادية من السلفية/ الوهابية، لها منظروها المخلصون لها (بثقافة إسلامية لامذهبية ضئيلة في الغالب) الذين يجعلون الجهاد (كما يرونه) مركزاً لنشاطاتها وواجباتها الدينيّة. ولكن في



الوقت الذي تدّعي فيه أنها تمثل الفكر السلفي/ الوهابي، يقوم اتجاه السلفية/ الوهابية السعودي في الواقع بمعارضتها باستمرار ونشاط وبحماس. ويستمر في معارضتها إلى هذا اليوم قولاً وفعلًا، ولهم الشكر على ذلك.

وعلاوة على ذلك، كان هناك دائمًا في الاتجاه السلفي/ الوهابي السعودي، تيار هاديّ وسطي (متجذّر في زهد ابن حنبل المناهض للصوفيّة، وابن تيمية وابن القيم وكتابات ابن الجوزي) مؤثر للغاية في حياة الناس الشخصية، لكنّه لم يجذب الانتباه العام. وبالنسبة لأتباع جزء هام من الفكر السلفي/ الوهابي، فإن الالتزام بما تلقّوه على أنّه صيغة نقيّة من القرآن والسنة كما فهموه هو في الأساس تعبير عن إخلاصهم لله ولرسالة نبيه ﷺ. ولذلك فإنّ تزمّت المتطرفين من أصحاب الفكر السلفي/ الوهابي وممارسته هي كيفية تعبير هؤلاء الجهاديين عن إخلاصهم لله ﷻ. ومن الواضح أنّ هذه هي نيّة نبيلة بحدّ ذاتها، ولا أحد من غير العلماء يمكن لومه بشكل معقول على عدم فهمه للعواقب الخفية لتعقيدات تخليص مناهج الأصول. وعلاوة على ذلك، فإنّ الفرق الدقيق بينهم وبين السلفيين/ الوهابيين المتطرفين هو أنّ السلفيين/ الوهابيين في حين لا يتفقون أو لا يوافقون على أصول أو مذاهب الإسلام، فإنّهم لا يعطون أنفسهم رخصة لاتهم المسلمين الآخرين بالكفر (التكفير)، أتباعاً لقول النبي ﷺ:

«مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَيْحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ، الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفَرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ» (أخرجه البخاري).

والشخصيتان الأكثر أهمية في التيار السلفي السعودي والمثيرتان للجدل



هما ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) الذي كان في الواقع سورياً،
لكنه أثر عميقاً على السلفية السعودية، وعبد العزيز بن باز (١٤٢٠هـ/
١٩٩٩م).

كان الألباني عالماً مشهوراً في الحديث. وكانت تحريراته لبعض كتب
الحديث الكبرى - التي اعتبرتها الحركة السلفية قطعيةً ونُشرت وورُعت في
كل مكان - تعني فعلياً أن الحركة السلفية كان لها كتب للحديث تختلف عن
كتب حديث بقية المسلمين والتي هي بين أيدي المسلمين منذ ألف عام. ولا
ينبغي التقليل من شأن هذا، لأنه من حيث التأثير يشكل فرقاً في المصادر
الأساسية بين الاثنين. وعلاوة على ذلك فإن الألباني ومدرسته الفكرية
ابتكروا فكرة تحالف المذهب الحنبلي، فقالوا بأن الحديث الضعيف لا يستعمل
ولا ينظر فيه. وهذا تماماً عكس ما كان عليه الإمام أحمد، الذي كان يفضل
الحديث الضعيف على الرأي، وهذا أدى إلى تغييرات كبيرة في الفقه.

وكان ابن باز المفتي العام في المملكة العربية السعودية من ١٩٩٣م إلى
١٩٩٧م، لكن تأثيره وفتاواه (أحكامه الشرعية الرسمية) كانت حاسمة في
الحركة السلفية لعقود من الزمن قبل ذلك. كان عالماً متأنياً ومحترماً عمل على
إصلاح الفكر السلفي/ الوهابي.

وينطبق مصطلح «السلفية» أحياناً أيضاً على مفكرين إسلاميين
محدثين معينين في بداية القرن العشرين كالمفتي المصري الأكبر محمد عبده
(١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م) ورشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ/
١٨٦٥-١٩٣٥م). ولكن في الوقت الذي من الواضح فيه أنهم تأثروا بشيء
من الفكر السلفي السعودي، وأثروا بدورهم على بعض الكتاب السلفيين في

القرن العشرين، إلا أن هذه الحركة كانت في الواقع حركة حديثة أكثر منها حركة سلفية تقليدية. وعلى أية حال، فإنها ماتت اليوم.

الحركة الثانية: المناهضة للأصول هي تيار الإخوان المسلمين: الإخوان المسلمون منظمة إسلامية دولية - أو بالأحرى إسلاموية، إن كان يقصد بهذا المعنى إسلام فعال سياسياً - وحركة اجتماعية وسياسية ودينية ضخمة قام بتأسيسها حسن البنا (١٣٢٤-١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦-١٩٤٩ م) في مصر عام ١٩٢٨ م. وبنهاية القرن العشرين كان لها فروع أو أعضاء في كل دولة مسلمة سنّية. كان المنظران الأساسيان لايدولوجيتها خلال القرن العشرين: المصريان سيّد سابق (١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م) وسيّد قطب (١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م). وقد ألف سيّد سابق في الأربعينيات كتاباً مبسّطاً في الفقه الإسلامي السنيّ يدعى «فقه السنّة»، لقي رواجاً ومهد الطريق للاختيار من المذاهب السنّية الأربعة والمزج بينها حسب المزاج، بدل الحفاظ على اتّباع منهج متكامل. وهذا لا يعني بالطبع القول بأنّ كلّ أعضاء الإخوان المسلمين هم بالضرورة من المعادين للأصوليين، بل إنّ منهمجهم هكذا وحسب، ذلك من حيث إنّ بعضهم على أية حال يتبنّى عقيدة أو فقه السلفية أو الوهابية.

كان سيّد قطب من مفكري الإخوان المسلمين، وقد أُعِدّ في نهاية المطاف لتأمّره لاغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر في ذلك الوقت. وكان مؤثراً بشكل رئيسي بسبب كتابه «في ظلال القرآن». ويشرح في هذا الكتاب (في تعليقاته على الآيات: المائة، ٥: ٤٤-٥٠ من القرآن) «نظريّة الحاكميّة». وتنصّ هذه النظريّة في الأساس على أن أي شخص لا يطبق أحكام الشريعة (كما فهمها هو) يصبح كافراً، ويجب عندئذ قتله. ووفقاً لذلك، فإن أي دولة



في العالم الحديث تطبّق أيّة قوانين وضعيّة ليست من الشريعة هي دولة غير شرعيّة وليست دولة إسلاميّة، وكذلك أي شخص يعمل لها بأية طريقة (بدءاً بالشّرطي وانتهاءً بالمدرّس في المدرسة الحكوميّة) هو كافر أيضًا يمكن أو يجب قتله (انظر الملحق من أجل مزيد من التفصيل).

وما قام بتسهيل تنفيذ هذه الفكرة عملياً هو حقيقة أنّ كلّ أعضاء الإخوان المسلمين، يجب عليهم عند الانضمام أن يقسموا يميناً بالولاء للتنظيم، وهو قسّم ولاء يناقض البيعة لرئيس الدولة التي يعيشون فيها (والبيعة نموذج إسلامي متّبع)، كما أنّ قسّم الولاء للتنظيم يناقض قسم الولاء للدولة أو دستورها في نموذج الدولة الحديثة. وعلاوة على ذلك، يقول سيّد قطب فيما يتعلّق بالجهاد (انظر الفصل ١١) التّالي:

«إنّ كثيراً ممن يتحدّثون عن الجهاد في الإسلام ويستشهدون بآيات من القرآن لا يأخذون بعين الاعتبار هذه النّاحية (التقدّم خطوة، خطوة)، ولا يفهمون طبيعة المراحل العديدة التي تطوّرت من خلالها هذه الحركة، أو علاقة الآيات المنزلة في مناسبات عديدة بكلّ مرحلة . . . لا تملك جماعة المفكرين هذه، التي هي نتاج الحالة المؤسفة للجيل المسلم الحالي، شيئاً إلّا عنوان الإسلام وأرخت ساعديه الرّوحيين والعقلانيين دليلاً على الانهزام. يقولون الإسلام أوجب الحرب الدّفاعيّة فقط، ويعتقدون أنّهم فعلوا خيراً لإيمانهم بتجريده من منهجه . . . هذا الصّراع ليس مرحلة مؤقتة، بل هو صراعٌ سرمدى، لأنّ الحقّ والباطل لا يمكن أن يتعايشا معاً على هذه الأرض» (سيّد قطب، «معالم في الطريق»).



كان هناك بالطبع في دول معينة دائماً مفكرون ومدرسون من الإخوان المسلمين أخلصوا في بناء أعمالهم وفكرهم بالدرجة الأولى وفقاً لرؤية حسن البنا الأكثر سلمية للإصلاح الاجتماعي من الداخل. ففي كانون الثاني عام ٢٠١٤م على سبيل المثال، ابتعد الحزب السياسي التونسي النهضة (الذي ارتبط بالإخوان المسلمين دولياً) برشاقة عن الحكومة بعد ثلاث سنوات من المشاركة فيها - (وإن كان ذلك بعد عدد من الاغتيالات السياسية الغامضة لرجالات في الدولة، وبعد الدستور القومي الجديد) لكي يتجنب الصراع المدني.

وفوق ذلك، معظم المؤيدين للتنظيم من عموم أعضائه في أنحاء العالم يؤيدونه لأسباب لا علاقة لها «بنظرية الحاكمية». ويشمل هؤلاء عموماً كونهم معارضين لتحديد الإسلام من المجال العام في الدول ذات الأغلبية المسلمة؛ مقدّرين الفوائد من الخدمات الاجتماعية الخيرية الناشطة الكثيرة التي يقوم بها الإخوان المسلمون؛ ومتفقين مع نقد الإخوان المسلمين العام والحادّ للفساد والظلم الاجتماعيين والاستبداد.

ولكن تبقى بالرغم من ذلك الحركة المركزية بشكل عام متشربة للإيديولوجية القطبية السائدة، وتبقى كتب سيد قطب: «في ظلال القرآن» و«معالم في الطريق» لبها وروحها الفكرية، سواء عبرت عن ذلك علناً أم لا. وكان هناك باختصار صراع طويل بين رؤى البنا وقطب في الإخوان المسلمين، لكن الضرر كله جاء في الواقع من كتابات سيد قطب.

وهذان التياران المتشدّدان من الفكر المعادي للأصول معاً - السلفي / الوهابي المتطرّف والإخوان المسلمون مع تباينهما وخلافتهما المتجذّرة يشكّلان

الفكر المتشدد الذي لا يقبل بالتعددية الإسلامية. وكان هناك بالرغم من ذلك خلافات واسعة في الآراء داخل هذين التيارين، لا سيما داخل السلفية، التي تشكّل الآن نطاقاً مهماً من الأفكار المختلفة.

انصبّت على مرّ القرن العشرين موارد مهمّة في تعليم السلفية في كلّ أنحاء العالم الإسلامي لا سيما الحجّ. وقد أفاد نشاط الإخوان المسلمين الخيري على مرّ القرن العشرين ملايين من النّاس في العالم الإسلامي. ومن العجيب أنّ كلتا الحركتين استفادتاً كثيراً أيضاً من ظهور العلمانيّة والقوميّة في العصر ما بعد الاستعماري بعد الحرب العالميّة الثانية: كانت العلمانيّة والقوميّة في كثير من الدّول العربيّة والإسلاميّة تحاولان إيقاف الإسلام ليس فقط من كونه مُسيّساً (وهذا صحيح تماماً) بل تحاولان أيضاً حظره (ومعه كلّ فقه السريعة حتى قانون الأحوال الشخصية) من المجال العام معاً (وهذا خطأ تماماً). واكتسبت السلفية/ الوهابيّة والإخوان المسلمون كثيراً من معارضة تيار العلمانيّة والقوميّة - وبدا أنّهما تؤدّيان إلى معارضتهما - لأنّ معظم المسلمين خلطوا بسذاجتهم تسييس الدّين من أجل كسب فردي أو حزبي مع حضوره ذاته في المجال العامّ. وأثّرت بالتالي الحركتان معاً على مرّ العقود على كثير ممن كانوا أصوليين وأتباع مذاهب الذين كانوا أصوليين قبل القرن العشرين. وبالتالي هو تخمين تقديري لهذا التّغيير مبني على دراسات تاريخيّة وإجابات على الاقتراحات (بما فيها الاقتراح الشّامل السنوي «المؤسسة لبيو» ٢٠١٥م) في دول كثيرة.

مدارس الفكر السنيّة في عام ١٩٠٠ و ٢٠١٦م

٢٠١٦م

١٩٠٠م

الأصوليون: ٦٥٪

الأصوليون: ٩٩٪

المناهضون للأصوليين: ٩٪

المناهضون للأصوليين: أقل من ١٪

المحدثون: ١٪

المحدثون: أقل من ١٪

الذين لا يعرفون مذهبهم أو توجههم: ٢٥٪

الذين لا يعرفون مذهبهم أو توجههم: أقل من ١٪

ملاحظة:

تعود كلمة «المحدثون» إلى الناس الذين يعتقدون أنّ الإسلام (وليس الحضارة والثقافة الإسلاميتان فحسب، بل العقيدة والفقه الإسلاميين أيضًا) ينبغي تجديده لكي يتوافق مع القيم الغربيّة. وهذا مرفوض عالميًا من كلّ المسلمين الآخرين.

أمّا كلمة «الذين لا يعرفون مذهبهم أو توجههم» فتعود إلى الناس الذين لم يستطيعوا أن يقولوا ما إذا كانوا ينتمون إلى مذهب فقهي إسلامي أم لا. وإن كانوا أتباع مذهب لا يدرون ما هو هذا المذهب. فأصبحوا لا يعرفون، وذلك يعود إلى حدّ كبير للتشوّش الناجم عن الحركة المناهضة (اللامذهبيّة) كونها التبست على الفكر الأصولي التقليدي.

من الواضح أنّ الخريطة المكانية للإسلام السنيّ قد تغيّرت بشكل هائل في القرن الأخير أو ما يقاربه. ورغم أنّ الحركة المناهضة للأصول اللامذهبيّة بحدّ ذاتها ما زالت أقلية ضئيلة إلّا أنّها اكتسبت تأثيرًا واسعًا من خلال تخفيفها لتأثير المذاهب السنيّة التقليديّة. ورغم أنّها ما زالت تمثل أقلية ضئيلة إلّا أنّها من النّاحيتين الاجتماعيّة والسياسيّة أكثر نشاطًا بكثير من الأغلبية الأصوليّة.



المذاهب الشيعية

هناك ثلاث فئات من الشيعة. وكلّها تتفق على أن صهر النبي ﷺ وابن عمّه الزّرم عليّ كرم الله وجهه كان الخليفة الرّوحي، وكلّها باستثناء الزيدية تعتقد أنّه كرم الله وجهه كان ينبغي أن يكون الخليفة السّياسي المباشر بعد النبي ﷺ. (أصبح عليّ كرم الله وجهه في الواقع الخليفة الرّابع، وليس الأوّل). وتعني كلمة «شيعة» ذاتها في العربيّة المناصرين لعليّ كرم الله وجهه - بينما تعني كلمة «سنيّ» المتّبع لسنة النبي ﷺ. ولكن وراء هذا الولاء لأهل النبي ﷺ، تختلف كلّ جماعة من جماعات الشيعة عن بعضها البعض. وأنواع الشيعة الثلاثة الرئيسيّة هي:

١ - الشيعة الاثني عشرية الجعفرية. وهذا هو النّوع الرئيسي من الشيعة بمعنى أنّه ربّما ٨٥٪ من كلّ الشيعة هم جعفريون. ويسمّون «الاثني عشرية» بسبب إيمانهم بالأئمة الاثني عشر الذين هم: (١) عليّ كرم الله وجهه. (٢) ابن عليّ، وهو سبط النبي ﷺ من ابنته فاطمة عليها السّلام: الحسن ﷺ. (٣) الحسين ﷺ، وهو أخو الحسن وسبط النبي ﷺ الآخر. (٤) عليّ زين العابدين: وهو ابن الحسين. (٥) ابنه محمد الباقر. (٦) ابنه جعفر الصّادق (كان جعفر عالماً كبيراً - ويسمّى هذا الفرع من الشيعة الجعفرية باسمه). (٧) ابنه موسى الكاظم. (٨) ابنه عليّ الرّضا. (٩) وابن محمد الجواد. (١٠) وابن عليّ الهادي. (١١) وابن حسن العسكري. (١٢) وابن محمد المهدي (الذي يعتقدون أنّه لم يمت بل غاب سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨ م). وهذا يعني بالطّبع أنّ الشيعة تبلورت لاحقاً بعد فترة طويلة من المذاهب السّنية.

الشيعة الاثني عشرية شيعة إيران والعراق ولبنان وجماعات أقلية في الهند

وباكستان وأفغانستان والخليج العربي. وهي تختلف جوهرياً عن السُّنَّة لأنها تعتبر الإيمان بالأئمة واحداً من المعتقدات الأساسية للإيمان (مع الإيمان بالله والملائكة والكتب المنزلَّة ورُسل الله واليوم الآخر والقدر). ولذلك ليس لها عقيدة مختلفة عن عقيدة أهل السُّنَّة فقط، بل لها أصول مختلفة أيضاً. وتعني عقيدتها أن كلمات كلِّ الأئمة الاثني عشر إضافة إلى كلمات السَّيِّدة فاطمة عليها السَّلام ابنة النَّبي ﷺ (وإضافة بالطَّبع إلى تلك التي تخصَّ النَّبي ﷺ) إلهام من الله ﷻ ومعصومة عن الزَّلَّ ولذلك مشرَّعة. ومن الواضح أن هذا يؤدِّي إلى مجموعة أحاديث مختلفة كلياً - وحتى مفهوم مختلف للحديث - لأنَّ الحديث عند الشيعة يعني أقوال أي إمام من الأئمة الاثني عشر حتَّى القرن الثالث الهجري. وكتب الحديث الشيعيَّة الأربعة الكبرى هي: (١) الكافي: لمحمد بن يعقوب الكليني، وفيه ١٥١٧٦ حديثاً. (٢) من لا يحضره الفقيه: للصدوق محمد بن علي، وفيه ٩٠٤٤ حديثاً. (٣) تهذيب الأحكام: لأبي جعفر الطوسي، وفيه ١٣٥٩٠ حديثاً. (٤) الاستبصار: لأبي جعفر الطوسي، وفيه ٥٥١١ حديثاً.

وينبغي أن نلاحظ أن عدداً من علماء الشيعة - بناء على روايات وجدت في هذه الكتب الروايات التي جاءت من الموروث الأثري - لا يُكفِّرون كلَّ السُّنَّة فحَسْب بل يُكفِّرون حتَّى الخلفاء الثلاثة الأوَّل (أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ) بأثر رجعي. ومن الواضح أن هذا مصدر كبير للتوتُّر والصِّراع مع أهل السُّنَّة.

٢- الشيعة الزيدية (المتَّبِعون للأئمة الخمسة): يوجد قُرابة عشرة ملايين زيدي، يتركز كلُّهم تقريباً في شَمال اليَمَن. ويسمَّون «الزيدية» نسبة إلى الإمام



الخامس (الأخير) عندهم زيد بن عليّ زين العابدين، والأخ الأكبر لمحمد الباقر. (وأئمتهم الأربعة الأوّل هم أئمة الجعفرية بأنفسهم) لكن في الوقت الذي يعتبر فيه الزيديّون هؤلاء الأفراد الخمسة الذين هم من آل بيت النبيّ ﷺ قادة دينيّين، لا يعتبرونهم معصومين، ولا يعتبرون كلامهم معصوماً كالحديث. وبهذا المعنى، أصولهم (أو أصول الزيدية التقليدية على الأقل) هي في الواقع نفس أصول أهل السنة، وليست أصول الشيعة. ولهذا السبب يجادل البعض فيما إذا كانوا في الحقيقة سنة أو شيعة.

٣- الشيعة الاسماعيلية (المتبعون للأئمة السبعة): ربّما يوجد ١٠

ملايين إسماعيليّ منتشرون في كلّ أنحاء العالم. ويسمّون الإسماعيليّين باسم الإمام السابع (الأخير) عندهم إسماعيل بن جعفر الصادق. (والأئمة الستة الأوّل هم أنفسهم عند الجعفرية) إلّا أنهم لا يرون إمامة الحسن بن عليّ ﷺ. هناك أنواع مختلفة من الإسماعيليّين: (أ) البهرة الداوودية تتبع فقه وأصول الجعفرية تحت رعاية قائدهم سلطان البهرة. (ب) النزاريون الذين يتبعون إمامهم الحيّ والذي يعتبرونه "القرآن الناطق" وهو الآغا خان. والمتحدّث بالقرآن آغا خان. ووفقاً لذلك لا يوجد عند النزاريين فقه أبداً، وأصولهم مختلفة كلياً عن أصول المسلمين الآخرين بما فيهم الجعفرية والزيدية. وليس فرضاً عليهم حسب رأيهم أداء الصلوات الخمس وصيام رمضان أو الحجّ، وهي ثلاثة من أركان الإسلام عند سائر المسلمين.

إذن يوجد باختصار ثلاث جماعات كبرى من الشيعة، لكن مذهباً منها رئيسيان هما: الجعفرية (الأغلبية) والزيدية (الأقلية).



المذاهب الأخرى

ينبغي أن نذكر هنا مرةً أخرى من مذاهب أهل السُّنَّة المذهب الظَّاهري وهو منقرض الآن، والذي أسَّسه في العراق داود بن علي الظَّاهري (٢٧٠هـ / ٨٨٣م) ثم انتشر وتطوَّر في الأندلس الإسلاميَّة. ولا يوجد ظاهريُّون أحياء اليوم، لكن قِلَّة من العلماء ما تزال تعتبر منهج المذهب الظَّاهري شرعيًّا أو ربما متبصرًا ويرجعون إليه بانتظام.

هناك أيضًا قسم كبير وقديم من الإسلام: الإباضية. إن أصول وفقه الإباضية اليوم قريب جدًّا من أهل السُّنَّة. والإباضية اليوم في سلطنة عُمان، وقليل منهم في شمال إفريقيا وشرقها. وتؤلَّف هذه المذاهب معًا (المذاهب السُّنَّية الأربعة والمذهب الظَّاهري ومذهب الشيعة والمذهب الإباضي) ما يُدعى «بالمذاهب الثمانية» المعروفة في الإسلام (انظر الملحق ١: خيمة الإسلام الكبيرة).

يجب أن نؤكد هنا على أنه مهما كانت الخلافات في المعتقدات بين المسلمين السُّنَّيين والشيعة والإباضيين، فإن هذه الخلافات لا ينبغي أن تكون عللاً أو أسباباً للصِّراع - مهما كان الموقف السياسي اليوم - ولا تبرِّر الاختلافات في المعتقدات والآراء الدينيَّة الإسلاميَّة بحدِّ ذاتها الصِّراع الديني أبداً، ولا يمكن شرعاً اتخاذها ذريعةً للقتال. وقد بيَّن النبي ﷺ ذلك للأجيال اللاحقة من المسلمين من كلِّ الأجناس في قوله: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا، وَصَلَّى صَلَاتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَهُوَ الْمُسْلِمُ، لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ» (أخرجه البخاري ومسلم).

عقوبة الموت والعقوبات الجسدية

بالعودة الآن إلى مسألة عقوبة الموت ومعاقبة الجسد، أوّل شيء يجب قوله هو أنّ هذه العقوبات تشكّل أقلّ من واحد بالمائة من أحكام الشريعة، وعلى الأرجح أقلّ من واحد بالألف. ويوجد في القرآن ذاته خمس من المعاصي تتضمن عقوبة الموت أو الجسد (القتل، والسّرقة، والزّنا، والفساد في الأرض، وقذف النّساء المحصّنات).

إذن عقوبة الموت وإنزال العقوبة بالجسد ليسا جوهر الشريعة ولا غاية لها كما يعتقد بعض النّاس اليوم على ما يبدو، وكما تصوّره الأنماط العدائيّة للإسلام. وسيتضح أيضًا أنّه بالرغم من وجود عقوبة الموت والعقوبات الجسديّة في الإسلام، إلّا أنّ هناك أمورًا شرعيّة دقيقة تخصّها بحيث تجعلها - ويفترض أن تجعلها - مختلفة جدًّا في التطبيق أكثر عمّا هي نظريًّا، بل بالغة الصعوبة في التنفيذ.

من النّاحية النظرية، فإنّ عقوبة الموت تطبّق في ثلاث حالات فقط، هي:

القتل العمد، وزنا المحصّن، والرّدة مع الخيانة. قال النّبي ﷺ:

«لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيْبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ» (أخرجه البخاري ومسلم).

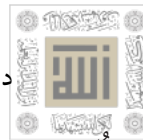
وعقوبة الموت على جريمة القتل مشابهة لقانون القصاص في الإنجيل. فعند الأمم التي ينتقم فيها النّاس بطبيعتهم لفقدانهم أحد أقاربهم مهما كان القانون يقول، لا يفرض قانون القصاص العدل ويكون رادعًا فقط، بل ينقذ

الحياة أيضًا بمنع العداوات الثأرية الدموية الطويلة حيث من المحتمل أن يموت كثير من الناس من الطرفين. ويؤكد الله ﷻ هذا بقوله في القرآن:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة، ٢: ١٧٩].

وبخصوص مسألة الردّة، هي أيضًا قانون في الإنجيل أُسيء فهم التلميح له (سفر التثنية ١٣: ٦-٩ و ١٧: ٣-٥؛ وإنجيل لوقا ١٩: ٢٧). ولكن رغم الموقف الأصولي التقليدي، قال بعض علماء الأصول المعاصرين إن العقاب هو على الخيانة العظمى وليس على الردّة وحدها. وتوجد أربعة أسباب لقول هذا: (أ) لم يذكر العقاب في القرآن في الواقع بحد ذاته؛ (ب) روي عن النبي ﷺ أنه لم يُقم الحدّ على مسلم قد ارتدّ؛ (ج) قبل نظام الدولة الأممي الحديث كان ترك الدين في الواقع تركًا للدولة ومن هنا تأتي الخيانة العظمى؛ (د) يشترط الحديث الذي استشهدنا به آنفًا مع الردّة مفارقة الجماعة، في قوله: «المفارق للجماعة» معًا مع الردّة.

وبخصوص عقوبة الثيب الزاني فهي المجال الذي يحصل فيه أكبر قدر من التشوُّش. فهذه العقوبة غير مذكورة أيضًا في القرآن (بل وردت في السُّنّة)، رغم أنّها مذكورة في أحد أسفار العهد القديم (٢٠: ١٠) ولكنها مقبولة من العلماء على أنّها رجم بالحجارة حتّى الموت. والنقطة الأساس هنا هي أنّه تحت حكم الشريعة في الوقت الذي لا تخضع فيه عقوبة الزنا للنقاش بين العلماء، فإنّهم قد جعلوا تطبيقها عمليًا من المستحيلات، إلّا إذا أصرّ أحدهم بإرادته على الإقرار، (وفي بعض الأعراف حتّى الإقرار وحده لا يشكّل دليلًا قاطعًا). وإذا نظرنا إلى تاريخ التشريع الإسلامي نرى هذا شديد الوضوح.



والمكانان اللذان طُبّقَ فيهما حكم الشريعة المبني على الأصول من الناحية العرفيّة على أكبر عدد من الناس ولأطول فترة زمنيّة كانا مصر (من القرن السابع وحتى القرن التاسع عشر عبر سلالات حاكمة عديدة ومختلفة) والخلافة والسلطنة العثمانيّة (من ١٢٩٩ إلى ١٩٢٣ م). وأثناء تلك الفترة بدأت مصر بسكّانها البالغ عددهم ٨ ملايين نسمة ثم انحدر هذا العدد عبر القرون لأسباب عديدة إلى قرابة ثلاثة ملايين نسمة. وكان عدد سُكّان الخلافة والسلطنة العثمانيّة يتراوح ما بين ٧ و ١١ مليون نسمة و ٣٥ مليوناً عبر التاريخ. وخلال ألف ومائتي سنة من حكم الشريعة في مصر كان هناك حالتا رجم بسبب الزّنا موثقتان فقط، وكلتاها كانتا من النّاحية التقنيّة غير شرعيّتين، وكان الدّافع لتطبيقهما سياسيّاً. حدثت الأولى منهما خلال حكم السّلطان قايتباي (١٤٢٢-١٤٣٨ م)، عندما تمّ شنق أمةٍ في حريم السّلطان بسبب علاقتها بأحد الجنود. ووقعت الأخرى عام ١٥١٣ م عندما أعدم السّلطان قانصوه قاضياً مفوضاً وعشيقتة التي كانت زوجة قاضٍ آخر. ربما كان الاثنان مذنبين، ولكن لم يكن هناك أدلّة كافية لمحاكمتها بتهمة الزّنا. وحكّم السّلطان عليهما بالرّجم في البداية لكن السّلطة القضائيّة اعترضت، لذلك قام بشنقهما من دون أساس شرعيّ. وبطريقة مشابهة، كان هناك خلال فترة الخلافة والسلطنة العثمانيّة كلّها حالة واحدة مؤكّدة فقط للرّجم بسبب الزّنا. ففي عام ١٨٦٠ م حكم القاضي بأنّه ينبغي رجم امرأة مسلمة حتّى الموت وينبغي إعدام عشيقها اليهودي. واعترض العلماء على الحكم ولم يكرّر ثانية (انظر موسوعة الخلافة والسلطنة العثمانيّة، G Agoston & B. Masters [ed.s]، نيويورك، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ٢٠٠٨ م، ص ٢١٤).

لماذا؟ لأن طرق الإثبات الخاصة بالزنا في الشريعة عسيرة، بحيث لا يمكن إثباته إلا بإقرار اختياري من الإنسان، أو بتعمد الذهاب إلى الطريق لكي يشهد الناس هذا الفعل علناً (الحالة التي يكون فيها الفعل عصياً دينياً واجتماعياً وليس ناجماً عن العاطفة). وطريقة الإثبات تحديداً هي شهود أربعة ذكور عدول (وليس لهم سجل جرمي ولو بارتكاب جُحَح صغيرة). ويجب أن يتقدموا خلال شهر، وأن يشهدوا تحت القسم أنهم شاهدوا مباشرة عملية الإدخال «المروء في المكحلة» (الذي تصعب رؤيته في الواقع للغاية من الناحية العضوية). وإن اختلفوا في تفاصيل الحدث (كلون الثياب التي يرتديها الزانيان) تُردُّ شهادتهم. وإذا كان الشهود قد تعمّدوا مشاهدة الحدث بإرادتهم، فلا يكونون عندئذ عدولاً، ولذلك يتوجب عليهم فعلياً أن يروا الفعل بالمصادفة وأن يُصِرّوا على الإخبار به. وإن تقدّم ثلاثة شهود فقط يعتبرون كاذبين وهم بحدّ ذاتهم يعاقبون بالجلد بجرم القذف وليس هذا باعثاً كبيراً لهم للتقدم لأداء الشهادة. وفوق ذلك، إن دليل التصوير الفلمي هذه الأيام ليس مقبولاً كدليل حيث يمكن تزييفه من الناحية النظرية. وحتى الحمل في حالة غياب الزوج ليس دليلاً على الزنا رغم أن احتمال إمكانية حملها بالصدفة في حمام مشترك بعيد للغاية. وبقدر ما يبدو هذا بعيد الاحتمال فإن مسألة كهذه أثبتت سريراً في الأردن في بداية القرن العشرين. وفي زمن النبي ﷺ رغم أن أحد صحابته ﷺ هلال بن أمية ﷺ اتهم زوجته بالزنا - وأظهر طفلها لاحقاً علامات وراثية تدلّ على أنه ليس ابنه - لم يؤخذ هذا كدليل على الزنا. وعلاوة على ذلك، كانت حالات الرّجَم القليلة المروية في زمن النبي ﷺ بسبب الاعترافات الطوعية غير مرغوبة وغير باعثة على الإغواء. وحتى



بعد الاعتراف، يمكن لأحدهم أن يسحب اعترافه ويتجنب العقاب، حتى بعد بدئه. الزنا باختصار جريمة كبرى نظرياً في الشريعة، لكن من المستحيل إثباتها كلها ولم يتم أبداً إثبات اتهام على أحد في التاريخ الإسلامي. وهذا ليس نتيجة لغموض شرعي إسلامي من قبل المجتهدين الرُّحماء، إنها السُّنة في الواقع لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ نفسه صرف أو حاول مراراً أن يصرف الناس الذين أرادوا الاعتراف. إذن يقصد بالإجراءات والشُّروط أن تخفف العقوبات أو يتم إسقاطها عن المتهم. ويفترض بالفقيه (١) أن يرهق نفسه لكي يجنب المتهم عقوبة الموت أو الجسد بقدر ما يستطيع. (٢) أن يخطئ في جانب العفو، وليس أن يخطئ في جانب العقاب. (٣) يعلق أي عقاب عند وجود أدنى شك. وكل هذا جزء متكامل من كيفية تطبيق الشريعة. يقول النَّبِيُّ ﷺ:

«ادْرُؤُوا الْحُدُودَ مَا اسْتَطَعْتُمْ. . .» (أخرجه الحكيم الترمذي وغيره).

ويقول ﷺ:

«ادْرُؤُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ. . .» (أخرجه البيهقي في السنن الكبرى)

نرى في القرآن أنه حتى في يوم الحساب - ورغم علم الله الكامل بالحقيقة - توجد كل أنواع الإجراءات القضائية، ويؤتى بالشُّهود على النَّفس لإظهار أنه حتى في الآخرة لا تنفصل المحاكمات المنصفة عن العدل. لذلك كل هؤلاء الإرهابيين الجهاديين اليوم، حالما يجدون موطئ قدم في منطقة ما مدمرة من الحرب، يبدؤون بـرجم النساء بتهمة الزنا (وينشرونها على اليوتيوب) ويظنون أنهم أتقياء بفعل هذا. وهم في الحقيقة إننا يُظهرون بربريتهم، وجهلهم المطلق بنصوص الشريعة وروحها.



لماذا إذن يوجد هذا الحكم في المقام الأول؟ يذكرنا الله ﷻ في القرآن بأنه يخيف الناس لكي يخشوه، أي لمصلحتهم:

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر، ٣٩: ١٦].

لذلك علّق الرومي (المثنوي: ١. ١٢٦١):

وَمِنْ آثَارِ حُبِّ اللَّهِ لُطْفٌ يَقْوِذُكَ فِيهِ نَحْوُ الْأَمْنِ خَوْفُ

ذكرنا سابقاً أنّ كلّ تشريعات القرآن يمكن إدراجها في خمسة كليات كبرى هي مقاصد الشريعة. ومن الواضح أنّ عقوبة الزنا هي لردع الناس من أجل مصلحتهم في حماية أشدّ المؤسسات جوهرية في المجتمع، ألا وهي العائلة. لذلك فإنّ العقاب الشرعي للزنا عائد إلى حماية حقّ العائلة العالمي والنسب وحماية العرض. فبعد كلّ ذلك من السّهولة بمكان الحصول على الطلاق في الإسلام، ولو كان الزنا مباحاً فسيكون هذا نهاية للعائلة وبداية انحلال المجتمع الإسلامي بكامله.

ينبغي أن نلاحظ أخيراً أنّ عقوبة الموت يمكن تجميدها تحت شروط معيّنة عندما يكون من الظلم تطبيقها، ولذلك توجد أحكام يمكن أن تقوم السلطة الحاكمة بتعليقها (هي «الأحكام السلطانية»). وفي عام المجاعة والطّاعون (٦٣٨-٦٣٩) أعفى الخليفة عمر رضي الله عنه الناس من دفع الجزية وأوقف عقوبة قطع اليد على السرقة. وقد ذكر علماء الأصول أنّه لا توجد هناك عقوبات بالموت في: (أ) أراضي غير المسلمين. (ب) في السّفَر خلال الحرب. (ج) عند فُشو الجهل بالأحكام بين الناس. (د) عند عدم وجود حاكم شرعي. (هـ)



عند وجود آية شكوك تحيط بالظُروف. (و) عندما يكون ضررها أكبر من نفعها. وباختصار، لا يقصد بعقوبات الشريعة أن تكون استبدادية، ولكن لتردع الجريمة وتضمن العدل.

تيسير الأمور

يفترض بنا أن نأخذ الأمور الدينية يُسر. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ [البقرة، ١٨٥:٢].

ويقول ﷻ:

﴿... هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾ [الحج،

٧٨:٢٢].

أضف إلى ذلك ما استشهدنا به سابقاً، من حديث النبي ﷺ:

«يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا» (أخرجه البخاري ومسلم).

وإن وجدت هناك خيارات أخرى في الشريعة أو في أي شيء، يفترض بنا أن نأخذ بأحسن خيار وأكثره رحمة بالْمُكَلَّفِينَ. هذا ما تعنيه في الواقع القاعدة الفقهية: «المشقة تجلب التيسير»، وقد استشهدنا بها من قبل. ويأمر الله ﷻ في القرآن الكريم:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ

وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر، ٣٩: ١٨].

ومع ذلك علينا أن نقول إن بعض علماء المسلمين لا يسلكون دائماً الطريق الأيسر والأرحم. فهم كمعظم الناس يفترضون لا شعورياً أن الأعداء والأصعب هو الأتقى لأنه يظهر الجهد الأكبر والتضحية بالنفس. فعلى سبيل المثال، كل شيء عموماً لم يرد نص خاص على تحريمه في القرآن أو الحديث (أو بقياس جلي عليهما: كالمخدرات) هو مباح من حيث المبدأ. ولكن اسأل معظم العلماء عن أمر لا يحبونه شخصياً فيقولون: «لا يوجد نص فعلي بخصوصه»، لكن... ثم يبدؤون بتحريمه. وهذا السلوك مما لا يساعد المجتمعات. وقد حذر النبي ﷺ من مثل هذا بقوله: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» (أخرجه مسلم). التَّحَدُّقُ الشرعي مشكلة في أيامنا حيث تتغير الأمور بسرعة طوال الوقت. وهو مشكلة حتى من الناحية السياسية. إن كثيراً من مشاكل العالم الإسلامي في الواقع والتوترات اليوم - بما فيها المشاكل والصراعات السياسية - يتم حلها بمجرد الاسترخاء قليلاً وترك الآخرين يسترخون وتركهم لوحدهم. هذا هو أصل التعددية. وهذا هو في الواقع ما تدعو إليه الشريعة.



لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟

من المهم أن نعرف كل هذا لعدد من الأسباب:
أولاً: من المهم أن نعرف أن الشريعة هي نظام أخلاقي ونظام شرعي. وهي كنظام شرعي تشريع متعدد وليس واحداً. ويوجد عادة كثير من الآراء الشرعية المختلفة حول قضية أو حكم مطروح.



ثانياً: من المهم أن نعرف أنه مع اختلاف الآراء ضمن الشريعة فإن التطبيق الصحيح والخيار الأورع هو الأخذ بالخيار الأيسر والأرحم المتاح وليس الأخذ بالأصعب. قال تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه، ٢٠: ٢].

ثالثاً: من المهم أن نعرف أن الغاية النهائية للشريعة هي مساعدة الناس بتطبيق العدالة والرحمة وبرعاية مصالحهم، فهي تهدف تحديداً إلى فعل هذا بتطبيق خمسة حقوق أساسية للناس، وهذه الحقوق هي: (١) حق الحياة. (٢) حق الدين. (٣) حق بناء عائلة وإنجاب أطفال والشرف. (٤) الحق في العقل. (٥) حق الملكية - مع كل الحريات والحماية التي يتضمنها كل حق من هذه الحقوق - وتعكس هذه الكليات روح التشريع.

رابعاً: من المهم أن نعرف أن الشريعة فيها السبب والماهية والكيفية: وليس فقط الماهية، وأن تطبيق الماهية من دون فهم سبب النية وكيفية السياق والإجراء سيؤدي في الواقع إلى الخطأ. وهذا هو بالضبط مكن المشكلة.

خامساً: من المهم أن نفهم أن الشريعة لم توجد لكي يطبقها الناس بطريقة غامضة، على العكس من ذلك، لقد وجدت لمساعدة الناس وخدمتهم، فهي ليست مجموعة نزوات عشوائية من تشريعات سرية وضعت لتناسب زمناً مختلفاً، كما أنها ليست انعكاساً لتعطش قبلي للدم كما تصوّر كل من الأنماط العدائية والمسلمون الجهلاء في العصر الحديث. إنها بالأحرى نظام للقوانين الاجتماعية عالي الذكاء، موضوع بعناية فائقة، مبني على التوافق بين كل من المبادئ الروحية وطبيعة الأشياء من أجل منفعة الناس. ويفترض أن تتكيف مع السياقات، ويفترض أن تتجنب عقاب الموت والجسد النظري في التطبيق

ما أمكن ذلك. وسوء استخدامها المتكرّر اليوم ليس بسبب عيوب متلازمة فيها، بل بسبب الجهل والولاء المفرط وعوامل سياسيّة عديدة. أخيراً: وربّما هو السبب الأوثق صلة اليوم، من المهمّ أن نفهم أنّ التطرّف والإرهاب الحديث باسم الإسلام لا يأتي من الإسلام الأصوليّ التقليديّ، بل يأتي بالأحرى من حركة «اللامذهبيّة» المناهضة للأصول. ومهما قال أولئك الذين يرتكبون هذه الأعمال فهي ليست تطبيقاً للشريعة على الإطلاق، بل فهم مضطرب لها. إنها ظاهرة جديدة بعيدة عن الشريعة كما كانت مفهومة على مدى ١٣٠٠ سنة من تاريخ الإسلام. لا أحد من المسلمين الذين يعرفون أصولهم يوافق أبداً عليها أو يرتكبها، والإرهابيون لم يستطيعوا فعل ذلك بضمير حيّ، حتّى ولو أرادوا، لأنهم ضدّ الإسلام، ولا يوجد من أتباع المذاهب أحد من المتطرّفين، وكذلك لا يوجد أشعريّون - ماتريديّون ولا صوفيّة. وهذا ليس صدفة. وفي الوقت الذي تصبح فيه نسبة ضئيلة من المناهضين للأصول إرهابيّين عنيفين إلّا أنّ كلّ الإرهابيّين العنيفين إمّا جاهلون بالأصول أو مناهضون للأصول لا أتباع مذاهب، ويفترض بالشريعة أن تكون طريقاً للحياة لا طريقاً للإرهاب والتدمير والموت.





الفصل الحادي عشر

ما هو الجهاد؟

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا
تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

[البقرة، ٢: ١٩٠]



قد يكون من الغريب بعض الشيء للوهلة الأولى أن تُذكر الحرب في الوحي
القرآني، وأن ترتبط بأيّ دين. لكن الحرب مذكورة في الإنجيل وفي نصوص
دينية أخرى (مثل كتاب الهندوس: البهاغافاد غيتا، على سبيل المثال).
وكانت هناك حروب دينية لا حصر لها لم يكن لها علاقة بالإسلام ولا بأيّ
دين. فالحرب كما يبدو هي جزء لا يمكن تجنبه من تاريخ الإنسان ومجتمعه
وسياسته وربّها حتّى من أحوال الإنسان ذاته. وبما أنّ الحرب تستلزم موت
الناس وقتل بعضهم البعض - ولا يوجد شيء أشدّ أهمية من ذلك - سيكون
ربّما من المستغرب أكثر لو لم تذكر في القرآن. فيقول الله في القرآن الكريم:
﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان، ٢٥: ٣٣].



وكما سَنَرى فيما سَيأتى إن شاء الله، يمسك الإسلام مسألة الحرب بكاملها من قرونها. وبفعل ذلك لا يتحكّم بالحرب فقط وينظّمها في الواقع لكي يجعلها رحمة بقدر المستطاع - رغم أنّ الحروب وجدت للفوز - بل يعطي معنى أسمى للتضحيات الحتميّة والضروريّة التي تُبدل في الحرب. وبعبارة أخرى، يُلطّف دين الإسلام بالحرب بقدر الإمكان، ويدمجها بالحياة الدينيّة. وبسبب هذا، يظهر التاريخ أنّه كان هناك قدر أقلّ مما ندعوه الآن جرائم حرب ارتكبتها المسلمون من القدر الذي ارتكبه أتباع أيّ دين آخر باستثناء ربما الهندوسيّة (انظر Body Count لناثيد شيخ في: www.rissc.jo). وهذا موقف يصعب وصفه بالجيّد، لأنّه من الواضح أنّ المسلمين لم يتصرّفوا كما ينبغي لهم أن يتصرّفوا حسب أخلاقيّاتهم الدينيّة بل يظهر بالتأكيد في النّهاية أنّه من الأحسن والأصدق تنظيم الحرب ودمجها في السّلوک الأخلاقي أكثر من تجاهلها وإنكارها أو عدم التّشريع لها.

معنى مصطلح الجهاد

يظنّ كثير من النّاس الذين لا يعرفون العربيّة أنّ كلمة «جهاد» تعني الحرب الدينيّة الإسلاميّة أو الحرب المقدّسة. وهذا ليس صحيحاً، ويؤدّي إلى إساءة خطيرة لمفهوم طبيعة وغاية الجهاد، جاعلاً من الجهاد هدفاً أكثر منه وسيلة. ومصطلح الجهاد بحدّ ذاته في اللّغة العربيّة لا علاقة له في الواقع بالحرب أساساً. المصطلح في اللّغة العربيّة للحرب هو «حرب»، ومصطلح القتال العسكري هو «قتال». يأتي الجهاد من جذر جَهَدَ، ويعني بذل الجُهد، وبالتالي النّضال والمكافحة. وبعبارة أخرى، القتال العسكري ليس جوهر الجهاد.

نوعا الجهاد: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر

استخدمت كلمة «جهاد» في القرآن وفي الحديث بطريقتين مختلفتين تماماً على الأقل. ولذلك فإن في الإسلام نوعين من الجهاد.

يعتمد النوع الأول منهما على مجاهدة النفس الداخلية التي دعي كل المؤمنين إلى شَنِّ الحرب عليها، وهذه المجاهدة للنفس هي شرط ضروري للحياة الروحية. قال النبي ﷺ: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله» (أخرجه الترمذي وأحمد). وفي حديث آخر: «المهاجر من هجر السوء، والمجاهد مَنْ جاهد هواه» (أخرجه الحاكم). وهذا المعنى الداخلي والسلمي لمصطلح الجهاد يستخدمه القرآن في آيات مثل: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ (يعني القرآن) جِهَادًا كَبِيرًا ﴿ (الفرقان، ٢٥: ٥٢)؛ و: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ . . .﴾ [العنكبوت، ٢٩: ٦؛ وانظر أيضاً: الحج، ٢٢: ٧٨؛ العنكبوت، ٢٩: ٨؛ لقمان، ٣١: ١٥؛ التوبة، ٩: ٦٦].

وهذا النوع من الجهاد هو النوع «الأكبر» من الجهاد. وهو أفضل من الجهاد العسكري ضد العدو، الذي هو الجهاد «الأصغر». قال النبي ﷺ:

«أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى» (أخرجه مالك في الموطأ والترمذي وابن ماجه).

والفضيلة جزء متكامل من الجهاد الأكبر هذا، حتى فضيلة الشجاعة هي جزء كبير منه بقدر ما هي جزء من القتال العسكري. وهي تستلزم بالتأكيد



تعريض النفس للخطر عندما يكون المرء أعزلاً. قال النبي ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه). ولذلك كتب الرومي (المثنوي، ١٣٩٥-١٣٩٨):

وَأَذَرْتُ ظَهْرِي لِلْقِتَالِ	وَقَدْ بَدَأَ لِي مَوْهِنًا
وإلى جِهَادِ النَّفْسِ قَدْ	وَجَّهْتُ وَجْهِي بَاطِنًا
فَمِنْ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ	عُدْنَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ
نَحْوَ الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ	مَعَهُ، وَهَذَا مَطْلَبِي
سَهْلٌ عَلَى الْأُسْدِ اخْتِرَاقُ	الْصَفِّ فِي الْحَرْبِ الصَّرُوسِ
وَاللَيْثُ حَقًّا مَنْ يَسْقُ	مُجَاهِدًا خَطَّ النُّفُوسِ

الجهاد الأكبر بِحَدِّ ذاته

«الجهاد الأكبر»، كما ذكرنا آنفاً، هو جهاد النفس. أي جهاد هدفه تطهير النفس بمحو الأنا الأنانية أو النفس الأمارة بالسوء. وأساسه هو شعائر الإسلام ومطالب الإيمان والإحسان، كما ناقشناه في الفصل الثاني. وسلاحه الأعظم هو ذكر الله ﷻ، كما ذكرنا في الحديث المُسْتَشْهَد به في القسم السابق، وكما ناقشنا في القسم الخاص بجلاء الصِّدَأ عن القلب في الفصل الثامن. وحالات وتفصيل هذا تؤلَّف موضوعاً ضخماً وتمثِّل التحدي المركزي لحياة الإنسان نفسها. ولا يمكن وصفها بشكل كامل هنا في مساحة صغيرة، ولكن إن وجدت فقرة قصيرة واحدة في القرآن يمكن أن تعتبر تلخيصاً للجهاد الأكبر كله كما هو، فهي ربّما تكون الآية التالية:



﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات، ٧٩: ٤٠-٤١].

وَيُفَصِّلُ الْغَزَالِي هَذَا الْمَبْدَأَ وَالنِّضَالَ الدَّاخِلِي لِلْجِهَادِ الْأَكْبَرِ كالتَّالِي:

«كُلُّ إِنْسَانٍ فِيهِ شَوْبٌ مِنْ هَذِهِ الْأَصُولِ الْأَرْبَعَةِ، أُعْنِي الرِّبَايَةَ وَالشَّيْطَانِيَّةَ وَالسَّبْعِيَّةَ وَالْبَهِيمِيَّةَ. وَكُلُّ ذَلِكَ مُجْمُوعٌ فِي الْقَلْبِ، فَكَأَنَّ الْمَجْمُوعَ فِي إِهَابِ الْإِنْسَانِ خَنْزِيرٌ وَكَلْبٌ وَشَيْطَانٌ وَحَكِيمٌ. فَالْخَنْزِيرُ هُوَ الشَّهْوَةُ... وَالْكَلْبُ هُوَ الْغَضَبُ... فَالْخَنْزِيرُ يَدْعُو بِالشَّرِّ إِلَى الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالسَّبْعُ بِالْغَضَبِ إِلَى الظُّلْمِ وَالْإِيذَاءِ، وَالشَّيْطَانُ لَا يَزَالُ يَهْيِجُ شَهْوَةَ الْخَنْزِيرِ وَغِيظَ السَّبْعِ وَيَغْرِي أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ وَيَحْسِنُ لِهَمَا مَا هُمَا مُجْبُولَانِ عَلَيْهِ.

وَالْحَكِيمُ الَّذِي هُوَ مِثَالُ الْعَقْلِ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَدْفَعَ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَمَكْرَهُ بِأَنْ يَكْشِفَ عَنْ تَلْبِيسِهِ بِبَصِيرَتِهِ النَّافِذَةِ وَنُورِهِ الْمَشْرِقِ الْوَاضِحِ وَأَنْ يَكْسِرَ شَرَّهُ هَذَا الْخَنْزِيرُ بِتَسْلِيطِ الْكَلْبِ عَلَيْهِ إِذْ بِالْغَضَبِ يَكْسِرُ سُورَةَ الشَّهْوَةِ وَيَدْفَعُ ضَرَاوَةَ الْكَلْبِ بِتَسْلِيطِ الْخَنْزِيرِ عَلَيْهِ وَيَجْعَلُ الْكَلْبَ مَقْهُورًا تَحْتَ سِيَاسَتِهِ فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَقَدَّرَ عَلَيْهِ اعْتَدَلَ الْأَمْرُ وَظَهَرَ الْعَدْلُ فِي مَمْلَكَةِ الْبَدَنِ وَجَرَى الْكُلُّ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ... وَإِنْ عَجَزَ عَنْ قَهْرِهَا وَقَهْرُوهُ وَاسْتَخْدَمُوهُ فَلَا يَزَالُ فِي اسْتِنْبَاطِ الْحِيلِ وَتَدْقِيقِ الْفِكْرِ لِيُسَبِّحَ الْخَنْزِيرُ وَيَرْضَى الْكَلْبُ فَيَكُونَ دَائِمًا فِي عِبَادَةِ كَلْبٍ وَخَنْزِيرٍ...»



هذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر هماتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء». (إحياء علوم الدين، كتاب عجائب القلب).

الجهاد الأصغر بحد ذاته

«الجهاد الأصغر» هو الجهاد العسكري. إنه القتال أو الحرب ضد العدو بشروط معينة ستتم مناقشتها فيما بعد إن شاء الله. ولكن الجهاد الأصغر يعتمد كلياً على الجهاد الأكبر. فالجهاد الأكبر مؤسس للجهاد الأصغر، لأن الله ﷻ يقول في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال، ٨: ٤٥]. ويتوافق مع هذه الآية حديث (وإن حسنه بعض العلماء)، قال فيه النبي ﷺ بعد عودته من إحدى الغزوات:

«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: «جهاد النفس» (أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد).

ومن المفيد للغاية أيضاً أن نلاحظ أنه في الوقت الذي يكون فيه كل إنسان مدعو للجهاد الأكبر، ليس كل إنسان مدعو للجهاد الأصغر الذي هو القتال (انظر النساء، ٤: ٩٥)، وعلماء الدين معفون بشكل خاص (انظر: سورة التوبة، ٩: ١٢٢). وله شروط خاصة، فهو مشروط أيضاً بموافقة والدي المرء. عندما جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد (أي القتال)، سألته النبي ﷺ: «أحيت والدك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد» أي بخدمتهما (أخرجه البخاري).

الأسباب الكامنة وراء الجهاد الأصغر وشروطه الضرورية

«الجهاد الأصغر» في الإسلام هو في الأساس حرب عادلة في الإسلام. وهذا واضح في القرآن والسنة. فقد اضطهد النبي ﷺ لمدة ثلاثة عشر عاماً وتعرض لسوء المعاملة والإهانة والتهديد والمقاطعة والتعذيب من قبلته في مكة بسبب دعوته إلى الإسلام بعد نزول الوحي عليه ﷺ. وتعرض أتباعه من العشائر الأدنى قوة إلى التعذيب والقتل. وفي النهاية استمر خصومه بمحاولة قتله، لذلك هاجر سراً إلى المدينة. ولكن حتى ذلك الحين لم يتركه قومه لوحده وجاؤوا لشن الحرب عليه. وخلال ذلك الوقت كله لم يأذن الله ﷻ له بحمل السلاح دفاعاً عن نفسه. وعندئذ في نهاية المطاف وفي السنة الثانية بعد الهجرة نزل عليه الوحي التالي:

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج، ٣٩: ٤٠-٤١].

لذلك تعتمد الحرب العادلة في الإسلام على: (١) التعرض للهجوم أو الهجوم الوشيك. (٢) التعرض للظلم (بعد الصبر). (٣) النفي من الوطن والأرض. (٤) الاضطهاد الشديد لأجل الدين أو لمجرد الإيمان بالله. (٥) تدمير دور العبادة (أو الأماكن المقدسة عند اليهود أو المسيحيين). (٦) أن تعلنها سلطة أو حاكم شرعي بحيث يكون الجهاد نشاطاً جماعياً لا فردياً. فإن الله منح الإذن بالجهاد وليس فقط أمر بالجهاد، فهذا يظهر أن القتال هو حالة



استثنائية تتطلب إعفاءً إلهياً أو إذناً خاصاً، وليس حالة من الشؤون المفصلة، وربما كان سرّ هذا الموضوع قول الله ﷻ: ﴿... حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا...﴾ [محمد، ٤٧: ٤]؛ فهذا يعني أن الجهاد القتالي لا يمكن إلا أن تكون فيه أوزار حتى في أحسن الأحوال. وفي القرآن أربع آيات أخريات اشتق منها العلماء أسباباً عادلة للحرب. والأسباب هي: (٧) الدفاع (دينيّاً) عن الرجال والنساء والأطفال المضطهدين الذين يطلبون العون (النساء، ٤: ٧٥). (٨) الاعتداء وخرق معاهدات السلام (التوبة، ٩: ١٣). (٩) الصّد عن سبيل الله (البقرة، ٢: ٢١٧). (١٠) الجهاد لإطفاء الفتنة (الأنفال، ٨: ٣٩). تؤلّف هذه كلّها معاً الأسباب الوحيدة المقبولة لحرب مبرّرة في القرآن. ومن الجدير بالملاحظة أن كلّ نصّ في القرآن يأذن أو يأمر بالحرب تتبعه دائماً آية قرآنية تقيده وتضع شروطه، مُظهرة أنّه سلام دفاعي أو مُلحّ متى كان ممكناً (انظر كتاب: الحرب والسلام في الإسلام: استخدام وإساءة استخدام الجهاد، بقلم الأمير غازي، كالين وكماي، انظر إلى الملحق).

كلّ هذا لنقول إنّ الجهاد العسكري مقيّد بشدّة بالدّفاع عن النّفس والأمان وحرية الدّين والاضطهاد والنّفي من الأرض فقط (أي مقاصد الشريعة): حق الحياة، حق الدّين، حق العقل، حق العرض، حق الملك (انظر إلى الفصل السابق). هذه قوانين الحرب الدوليّة للجهاد العسكري. والفتوحات لنشر الدّين ليست سبباً للجهاد، ولا للإجبار على التحوّل إلى الإسلام. وهذا واضح من كلام الله ﷻ المنزل في المدينة بعد أن نزل الإذن بالقتال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ [البقرة، ٢: ٢٥٦]. وكلّ هذا ملخّص بإعجاز في الآية القرآنية التي استشهدنا بها في بداية الفصل:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا...﴾ [البقرة، ٢: ١٩٠].

الجهاد العسكري باختصار هو حرب عادلة وحسب، وعرفت قبل ٦٠٠ سنة من قيام القديس توماس الإكويني بصياغة نظريته عن الحرب العادلة.

هدف الجهاد الأصغر

كل قائد عسكري في العالم جدير بهذه الرتبة يعرف أن الحروب لا يمكن الانتصار فيها دون تعريف ماهية النصر، ومن دون معرفة ما هو الفوز لا يمكن لأحد أن ينتصر في حرب. قد يكون أو لا يكون الفوز تدمير سلاح العدو أو قدرته الصناعية أو إرادته للقتال. ويكون تدمير سلاح العدو كله أحياناً خسارة، لأنه يؤدي إلى عدو مشترك يتولى الحكم ويكسب القوة ويهزم في نهاية المطاف كلا الطرفين الآخرين. غالباً ما يكون هدف الحرب سياسياً، أو سعيًا إلى تغيير سلوك العدو أو إجباره على معاهدة سلام. لذلك من الضروري أن نعرف هدف الجهاد. ومن المهم في الوقت ذاته أن نتذكر أن هدف الجهاد هو شيء مختلف تمامًا عن سبب الجهاد. فالخلط بين الاثنين يمكن أن يؤدي إلى أخطاء كارثية وحرب لا ضرورة لها.

ليس كل امرئ يفهم هذا، ولكن مع ذلك، يتفق العلماء بخصوص هدف الجهاد المحدد، لأن الله ﷻ يقول في القرآن: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة، ٢: ١٩٣]. وهذا الهدف هو هدف الجهاد بعد أن تكون الحرب قد شنت على المسلمين فقط، وحتى عندئذ يفهم في سياق الحرب الدفاعية في شبه الجزيرة العربية



في القرن السابع الميلادي. وهو يُعرَّف بالتحديد ما هو النصر في حالة انتصار المسلمين. ويمكن التخلي عنه إذا التمس العدو السلام وإذا كان مصلحة مشتركة، لأن الله ﷻ يقول: ﴿... فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة، ٢: ١٩٣]. إن ظروف وأحداث معاهدة الحديبية - حيث قبل النبي ﷺ تسوية سياسية مع العدو - هي دليل على هذا. ويقول الله ﷻ في القرآن: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال، ٨: ٦١].

هل الجهاد الأصغر هجومي أم دفاعي؟

ماذا يعني هجومي فيما يخص الحرب؟ لا نعني بالهجوم الهجوم السابق للإخلاء: إشغال العدو الذي اضطهد ظلمًا إخوانك وهددك - أو عزم على الاستعداد لمهاجمتك علنًا - فهذا دفاعي جدي حتى لو تمكنت من مهاجمته قبل أن يهاجمك. نعني بالهجوم هنا الهجوم على الأشخاص غير المسلمين أو على الحلفاء الذين ليسوا بأعداء، لأسباب تتعلق بالاستيلاء والغنائم.

ورغم كل ما كتبناه آنفًا حول هدف الجهاد العسكري، يتحدث بعض الفقهاء (كابن تيمية وكثير من علماء الأندلس) عن الجهاد الهجومي - الهجوم على الأمم الأخرى بانتظام. وهذه هي أيضًا وجهة نظر بعض الكتاب الإسلاميين في القرن العشرين كسيد قطب، وبعض المناهضين للأصول المعاصرين كأبي مصعب السوري في كتابه «الدعوة إلى المقاومة الإسلامية العالمية» (إصدار سنة ٢٠٠٥م). ومن جهة أخرى، لا يعتبر الإمام أبو حنيفة ومالك بن أنس وابن حنبل وسفيان الثوري والأوزاعي ومعظم علماء الشافعية الاختلاف في الدين بحد ذاته أساسًا مشروعًا للجهاد. وكل علماء الأصول

الكبار في القرن العشرين من مذاهب مختلفة الذين كتبوا عن هذا الموضوع - كشيخ الأزهر محمود شلتوت ووهبة الزحيلي ومحمد سعيد البوطي وعبد الله بن بيه وعلي جمعة - يقولون بأن الجهاد دفاعي حصراً. وإنَّ أيَّ امرئٍ ينظر إلى خريطة شبه الجزيرة العربية سيَرى أنَّ المسافة بين مكَّة والمدينة التي هاجر إليها النَّبيُّ ﷺ فراراً من اضطهاد أهل مكَّة هي قرابة ٢١٠ ميل - مسافة طيران الغراب - مسافة طويلة على ظهر الجمل في الصحراء، الذي كان يستخدمه النَّاس في تلك الأيام في شبه الجزيرة العربية. ورغم هذا فقد شُنَّت المعارك الثلاث الأولى: بدرٌ وأُحُدٌ والخنْدَق كُلُّها على الحدود الخارجيّة للمدينة، بعد أن قَطَعَ أهل مكَّة كلَّ تلك المسافة للهجوم على المسلمين. وبعبارة أخرى، لاحقَ أهل مكَّة النَّبيَّ ﷺ وأتباعه وحاولوا إبادةهم، رغم أنَّهم غادروا مدينتهم. وهذا يظهر أنَّهم كانوا يهاجمون، وكان ﷺ يدافع. وكانت غارات المسلمين على حلفاء أهل مكَّة كقبيلتي سُليم و غَطَفَان، لإحباط الغارات على أنفسهم. وعلاوة على ذلك، كانت المعارك مع قبائل اليهود العرب في المدينة - ثم فيما بعد مع حلفاءهم كخِبر الذين التجَّؤوا إليهم - معارك ضدَّ أهل المدينة الذين خانوا مدينتهم بعد دستور مكتوب ومعاهدة مع المسلمين. وكانت الحملة على البيزنطيين في تبوك ومؤتة ضدَّ الإمبراطوريَّة السَّيَّاسيَّة الوحشيَّة بالطَّبع التي جمعت جيشاً ضخماً على حدود أراضي المسلمين حينها، والتي استولت باستمرار واستحوذت على أيِّ منطقة استطاعت الاستحواذ عليها. ولذلك لا شيء من هذا يؤلِّف حرباً هجوميةً بحدِّ ذاتها. وبطريقة مشابهة، كانت الحملة التي قادها الحلفاء ضدَّ السَّاسانيين الفُرس الجُدُد بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ ضدَّ إمبراطوريَّة عدوانيَّة أخرى استولت على القدس عام ٦١٤ م، وكانت



قبل قرن من ذلك على الأقل، تتنافس من أجل التفوذ على جنوب شبه الجزيرة العربية مع البيزنطيين ووكلائهم وحلفائهم.

ذكرنا في الفصل السابق أنه قبل تشكيل عصبة الأمم (في ١٩٢٠م)، كانت الحالة الطبيعية للعلاقات السياسية بين الأمم حالة تنافس، القوي يأكل الضعيف، وكانت الأمم في معظم الوقت في حالة صراع مع بعضها البعض أو داخلياً مع نفسها بشكل مباشر أو غير مباشر. وما كتبه ابن تيمية كان خلال ظروف غزوات المغول، زمن حرب وحشية على جبهات متعددة. كانت تلك الأوقات أوقاتاً جمع فيها كل شخص قوة كافية وشديدة للهجوم على أي شخص يريده ومن كان بإمكانه أن يردعه. وأي شعب لم يكن قوياً بما يكفيه للدفاع عن نفسه سيتلاشى. ولا يوجد في هذا النوع من السياق هنا فرق بين الحرب الهجومية والدفاعية، لأن الجميع يهاجمك طوال الوقت. وهذا يفسر لماذا لم ير بعض فقهاء الإسلام القدماء فرقاً هادفاً بين الحرب الهجومية والدفاعية. ولكن بعد تأسيس الأمم المتحدة، أصبح الأصل الذي ينظم العلاقات بين الدول هو السلام، بالإجماع الدولي وعبر ميثاق الأمم المتحدة. لذلك فإن الموقف منذ ذلك الحين مختلف تماماً. تقول الفقرة الأولى ذاتها من ميثاق الأمم المتحدة (١٩٤٥م):

أهداف الأمم المتحدة هي:

- ١ - الحفاظ على السلام والأمن الدوليين، ولهذا الهدف: اتخاذ معايير فعالة جماعية من أجل منع التهديد للسلام وإزالته، ومن أجل قمع الأعمال العدوانية أو الخروقات الأخرى للسلام، وجلب الوسائل

السَّلمية المتوافقة مع مبادئ العدالة والقانون الدولي، وتسوية أو حلّ الخلافات أو المواقف الدوليّة التي قد تؤدي إلى خرق السَّلام.

فالموقف اليوم - مع السَّلام الدوليّ بالمعاهدات المتفق عليها عالمياً - حتّى عند أولئك الفقهاء القدماء الذين اعتبروا الجهاد هجوماً في زمنهم ربما لن يصادقوا على الجهاد الهجوميّ في هذه الظروف (لو كانوا أحياء)، لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . . .﴾ [المائدة، ١: ٥، وانظر أيضاً سورة الإسراء، ١٧: ٣٤ وغيرها]. وبعبارة أخرى، في ضوء السَّلام باعتباره عهداً متفقاً عليه بين الدُّول، فالجهاد الممكن اليوم فقط هو حرب دفاعية عادلة بعد الهجوم على المسلمين وإخراجهم من أراضيهم إلخ. كما في الشُّروط العشرة المذكورة سابقاً.

النية وراء الجهاد الأصغر

يرى كلّ المسلمين في الجهاد الأصغر فضيلة. ولقد ذكر النبي ﷺ أنّه بعد الجهاد الأكبر (مجاهدة النفس) لا عمل أفضل من الجهاد الأصغر:

عن عبد الله بن مسعود: سألت رسول الله ﷺ: يا رسول الله! أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم ماذا؟ قال: «برُّ الوالدين». قلت: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» (أي القتال) (أخرجه البخاري).

يوجد أيضاً عدد من الآيات في القرآن تشجّع على الجهاد الأصغر عندما



تنشأ الحاجة إليه. يقول الله ﷻ على سبيل المثال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ...﴾ [التوبة، ٩: ٣٨].
وكذلك قول الله ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة، ٩: ١١١].

وهذا ليس تشجيعاً على حبّ الموت كما يعتقد كل من المتقصين من الإسلام والجهاديين الجدد. إنه مكافأة إلهية لأولئك المستعدين للتضحية بأقصى ما لديهم. ويمكن شرح الإلماح إلى العهد الجديد بكلمات المسيح ﷺ: «ليس لأحد حبّ أعظم من هذا أن يضع نفسه لأجل أحبائه» (إنجيل يوحنا ١٥: ١٣). ومن الحاسم بالتأكيد أن يكون عند المرء دافع نبيل للجهاد العسكري لأنّه الدافع الذي يحدّد في النهاية كيفية شنّ الحرب وما إن كان الله ﷻ يتقبلها أم لا. النية هي الأساس. يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم، ٥٣: ٣٩]. وأوضح النبي ﷺ هذه النقطة بالضبط في حديث:

«إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نَعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ...» (أخرجه مسلم).



وبعبارة أخرى، الشَّهداء والشَّهادة أمران نبيان بسبب محبة الله ﷻ والخير والتَّضحية بالنَّفْس، وليس بسبب البغض أو الانتقام. ويجب أن تكون نيَّة الجهاد نيَّة الحبِّ والخير والشَّجاعة والتَّضحية بالنَّفْس، وليس نيَّة الشرِّ والغضب والبُغض والكبر والتعطُّش للدمِّ أو المغامرة العسكريَّة. نحن نكرِّم الجنود والأبطال ونعجب بهم، وليس القتلُ وقطاع الطُّرُق. والجهاد العسكريُّ هو في الأساس قتال من أجل الخير - وليس إرهاباً - لذلك يجب أن يُشَنَّ بطريقة محترمة.

قواعد السُّلوك خلال الجهاد الأصغر

يقودنا هذا إلى مسألة قواعد السُّلوك أثناء الجهاد العسكريِّ (قانون مسوغات الحرب). وهذا أهميته منبثقة من أهمية سبب الجهاد، ويلاحظ هنا أن هذه القواعد نزلت في زمن لم تكن فيه الحضارة قبل الإسلام قد وضعت منهجاً للقتال بطريقة إنسانيَّة أبداً، متعمّدة حماية غير المقاتلين بل والمحاربين خارج أرض المعركة. لن ندخل في كلِّ تفاصيل هذه القواعد هنا ما عدا القول بأنَّ سيِّدنا محمّداً ﷺ قال:

«لا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَانِيّاً ولا طِفْلاً صَغِيراً ولا امِراً...» (أخرجه أبو داود).

«لا تَغْدُرُوا ولا تَغْلُوا ولا تُمَثِّلُوا، ولا تَقْتُلُوا طِفْلاً ولا رَاهِباً...» (أخرجه أحمد).

«أَغْزُوا ولا تَغْلُوا لا تَغْدُرُوا ولا تُمَثِّلُوا...» (أخرجه مسلم والترمذي).

وفي يوم فتح مكّة، قال النَّبِيُّ ﷺ:

«أَلَا لَا يُقْتَلُ مُدْبِرٌ وَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ»
 (أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف).

وبخصوص أسرى الحرب يقول الله ﷻ في القرآن: ﴿... فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ
 وَإِمَّا فِدَاءً...﴾ [محمد، ٤٧: ٤]. ويأمر الله ﷻ بتقديم الاحتياجات الأساسية
 لسجناء الحرب أيضًا، ومعاملتهم بالحسنى وبالا حترام: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ
 عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أي أسير الحرب. [الإنسان، ٧٦: ٨].

العلاقات مع غير المسلمين خارج الجهاد الأصغر

يقول الله ﷻ مبينًا أسس العلاقة مع غير المسلمين خارج الجهاد العسكري:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ
 دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة،
 ٦٠: ٨]

وهذا يعني أنه عندما لا يشنّ الناس حربًا على المسلمين في الدين ولا نيّة
 عندهم لفعل ذلك يجب على المسلمين أن يبرّوهم ويكونوا عادلين معهم ومع
 كلّ امرئ بالتأكيد. قدّم النبي ﷺ مزيدًا من التفصيل بقوله:

«والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ - أَوْ قَالَ لِأَخِيهِ - مَا
 يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (أخرجه مسلم).

ويبقى أن نؤكد أنّ الجار هنا هو كلّ شخص مهمّما كان دينه ومهمّا كان

بعيداً (كالجيران) في جسمه، لأنَّ سيِّدنا مُحَمَّدًا ﷺ قال: «أَحَبُّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ» (أخرجه أحمد). ويؤكد الله ﷻ هذا في القرآن:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [النساء، ٤: ٣٦].

والمقصود بالجار ذي القربى كما في تفسير الجلالين: «الجار القريب منك سواء في الإقامة أو كان من الأقرباء». والمقصود بالجار الجنب: «الجار البعيد عنك إما بمعنى الإقامة أو أحد أقرباء العائلة البعيدين». وجاء في تفسير القرطبي أنَّ هذا يعني الجار القريب والجار المجهول على التَّوالي. وبعبارة أخرى، يعني الجار: كلَّ شخص على وجه الأرض مهما كان بعيداً سواء كان مسلماً أم لا.

يجب أن يترجم حديث «أحب لجارك ما تحب لنفسك» إلى فعل لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال أيضاً:

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنِ إِلَى جَارِهِ» (أخرجه مسلم).

لذلك لدينا هنا مرادف إسلامي لكلِّ من الوصية الثانية: «أحب قريبك كنفسك» (إنجيل متى ٢٢: ٤٠؛ إنجيل مرقس ١٢: ٣١)، والقاعدة الذهنية: كلُّ ما يحلو لكم أن يفعل النَّاسُ بكم، افعلوه أنتم أيضاً بهم لأنَّ هذا هو القانون والأنبياء (إنجيل متى ٧: ١٢؛ إنجيل لوقا ٦: ٣١).

ويبدو الفرق جلياً: فالإسلام يؤكد على عمل الإحسان بدلاً من عاطفة



الحُبِّ. والإحسان إلى الآخرين هو جزء أيضًا من سبب من أسباب خلق الله لنا. يقول الله ﷻ كما استشهدنا سابقاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
[الحجرات، ٤٩: ١٣].

خلق الله ﷻ أُمَمًا وقبائل متعددة ومتنوعة من الناس وبالإحسان إليهم نتوصل إلى معرفتهم. وبالتوصل إلى معرفتهم نتجنب الصراع معهم ونتعاون معهم عوضاً عن ذلك من أجل خير كل المجتمعات. وعلاوة على ذلك، بمعرفة الآخرين نعرف أنفسنا بشكل أفضل. وكما رأينا سابقاً، بمعرفة أنفسنا بشكل أفضل نتوصل إلى معرفة الله ﷻ بشكل أفضل. وبمعرفة الله ﷻ بشكل أفضل نعبده بطريقة أفضل، وهذا هو سبب الخلق، فكما رأينا سابقاً أيضاً؛ لذلك فإن تنوع الناس هو جزء من سبب الخلق. وتعني الآية بالتأكيد ضمناً هذا بدقة بلام التعليل (ل) في كلمة ﴿لِتَعَارَفُوا﴾. وفي النهاية، كما تعني الآية السابقة أيضاً ضمناً، جزء من معرفة أنفسنا هو أن نفهم بالضبط أن قيمة المرء لا تعتمد على مَنْ هو أو ما نشاطه أو مقدار القوة أو المال أو الشهرة التي حصل عليها، بل قيمته فقط بتقواه وإحسانه إلى الآخرين.





لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟

ربّما لا توجد كلمة في اللغة الإنكليزية تثير مزيداً من الرُّعب وسوء الفهم أكثر من «كلمة جهاد» لغير المسلمين؛ لذلك من المهمّ أن نعرف كلّ هذا لعدد من الأسباب. أوّلاً: من المهمّ أن نعرف أنّ الجهاد ليس حرباً مقدّسة، ولا يعتبره المسلمون حرباً مقدّسة بحدّ ذاته، وأنّهم يعدّونه وسيلة ضرورية وليس هدفاً بحدّ ذاته. ويعتبرونه غاية ينبغي أن تكون له نهاية متى ما أمكن ذلك، وليس حرباً مفتوحة. وهذا يعني القول بأنّه ينبغي أن يكون هناك سلام ما أمكن وأنّ الحرب وسيلة للسلام وليس العكس. ثانياً: من المهمّ أن نعرف أنّ الجهاد العسكريّ هو - وكان دائماً - حرباً عادلة مبنية على مبدأ العمل الدّفاعيّ لكلّ فرد باستثناء الجهاديّين الجُدّد المُضللّين. ثالثاً: من المهمّ أن نعرف أنّ الجهاد العسكريّ هو نشاط جماعيّ تقرّره الدّول من خلال قياداتها وليس بضعة شباب غاضبين (ولا أفراد ولا في العصابات التي تدعو نفسها جيوشاً): فهذا فقط يؤدّي إلى الفوضى والاضطراب والثّورة وتحرّمه الشريعة بصرامة. رابعاً: من المهمّ أن نعرف أنّ الجهاد العسكريّ له قواعد سلوك إنسانيّة معيّنة. وليس إرهاباً وبربريّة أو وحشيّة - ولا يقرّ بأيّ من هذه الأمور. ويبقى هذا صحيحاً من حيث المبدأ رغم الرُّعب الذي يشهده العالم كلّ يوم ممّا يرتكبه غالباً شباب ونساء جاهلون منحرفون، يعزّون بطريق الخطأ أفعالهم المنحطّة إلى الجهاد بل يقومون بتصويرها والاعتزاز بها. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا...﴾ [فاطر، ٣٥: ٨].



وَوَفَّقًا لَذلك، خامسًا: من المهمّ أن نعرف أنّ الدّافع للجهاد لا يمكن أن يكون للانتقام أو الضّعينة أو التّعطُّش لسفك الدّماء أو المغامرة. وهذه العواطف كانت دافع شبه الجزيرة العربيّة ما قبل الإسلام في زمن الجاهليّة. يجب أن يكون الدّافع إلى الجهاد نبيلًا لأداء الواجب والكرامة والتضحية بالنفس والشّجاعة ومحبة الله والجار لكي يتقبّله الله ﷻ. فالجهاد عندئذٍ يكون حربًا عادلة بنية نبيلة وليست دنيويّة. سادسًا وأخيرًا: من المهمّ أن نعرف أنّ المسلمين خارج الجهاد يُلزمهم دينهم بالإحسان إلى النّاس وإقامة العدل بينهم والبرّ بهم وأنّ هذا هو الأمر الأفضل.



الفصل الثاني عشر

ما هو الحكم؟

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

[النساء، ٤: ٥٨]



أهمية العدل

العدل، كما رأينا في الفصل العاشر، هو أصل كل الحقوق في الإسلام ومقاصد الشريعة الخمس. والعدل أيضًا أساس في الأديان الأخرى. نقرأ في التّوراة على سبيل المثال (وبالتّالي في الإنجيل):

«لا ينبغي لك أن تحرّف القضاء، ولا منحازًا، ولا تأخذ رشوة...»

العدل وسبيل العدل وحده ينبغي لك أن تسلك» (سفر التثنية ١٦: ١٩-٢٠).

ويبقى أن نقول إنّ كل الكائنات الإنسانيّة تتوق غريزيًا إلى العدل. وهذا الإحساس موجود عند الأطفال والكبار، وأهم شيء، عند الشّباب. وحتى لو



لم يستطع النَّاسُ التَّعبير عنه بالكلمات، يستطيعون تمييزه عموماً عندما يرونه. وهو باختصار حَقَّ عام وأساس العمل الصحيح لأيِّ مجتمع لأنَّه إيمان فطريّ في نفس الإنسان. ولذلك السَّبَب لا يمكن لأيِّ حكم أو مؤسَّسة أن تستمرَّ لمدة طويلة من دون عدل.

وعدم العدل، وهو الظُّلم يؤدِّي حتماً إلى السَّخط والاعتراض والعصيان والثورات والحروب الأهليَّة. ولقد ثبتت صحَّة هذا عبر التاريخ. فالظلم يثير غضب النَّاس ويسبب البُغض. وعادة يغضب الشُّباب من ظلم حقيقيٍّ أو متخيَّل. وتوجد على سبيل المثال نسبة كبيرة من الجهاديِّين التَّكفيريِّين الذين تطرَّفوا بسبب الظُّلم، كسوء المعاملة الوحشيِّ في السَّجن غالباً، أو الموت أو إساءة معاملة أحد أقربائهم أو أصدقائهم. ولا شيء أشدَّ خطراً وقلقله من الظُّلم. والله ﷻ هو يعاقب الظلم أينما وقع، حتَّى عندما يحيق الظلم بالأشخاص الذين لا يؤمنون بالله. وقد لَفَت سيِّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ النُّظَر إلى هذا في قوله:

«اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»
(أخرجه أحمد).

وهذا الحديث رائع لأنَّه كأنَّه يقول إنَّه حتَّى الكافر سيَدعو أو يلعن على الأقلَّ - عند تعرُّضه للظُّلم، وأنَّ الله ﷻ يسمع هذا الدُّعاء ويستجيب له لأنَّ الظُّلم بحدِّ ذاته سيء. إنَّ الله نفسه يقول (في الحديث القدسي):

«يا عبادي إني حرَّمتُ الظُّلَمَ على نفسي وجعلتُه بينكم مُحَرَّمًا فلا تَظَالَمُوا» (أخرجه مسلم).

فضيلة العدل

يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾
[النساء، ٤: ٥٨].

هذه الآية أساس في موضوع العدل وتحمل الكثير من المعاني، بحيث أن كتباً كاملة ألفت في شرحها. وحتى منذ عهد قريب كعام ٢٠١٥م، ألف الفيلسوف الماليزي المشهور سيّد نقيب العطّاس كتاباً صغيراً يعلّق فيه على هذا الموضوع. وقبل محاولة الغوص في معناها نلاحظ أنّ الآية هي إحدى بضع آيات يُصدر الله فيها أمراً قطعياً لكلّ الناس، وهذا الأمر يرجع إلى العدل. وهذه أيضاً المرّة الوحيدة في كلّ القرآن التي يمتدح فيها الله أمره بقوله: ﴿نِعِمَّا﴾، وهي تعني حرفياً: يا له من أمر رائع! يا له من أمر صالح! يا له من أمر جميل! يا له من أمر ممتاز!، وكلّ هذا إنّما ساقه الله ﷻ مدحاً للعدل. وفوق ذلك، وفي مكان آخر من القرآن نتيّن أنّ مرحلة الوحي اتصفت دائماً بالعدل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ [الحديد، ٥٧: ٢٥].

كلّ هذا يدلّ على أهميّة العدل التي لا نظير لها في القرآن. وعلاوة على ذلك، فإنّ «العدل» هو واحد من أسماء الله التسعة والتسعين كما جاء في



الحديث المشهور (أخرجه الترمذي). ولا شيء بعد ذلك أفضل من العدل في الشؤون الإنسانية.

ما هو العدل؟

لكن ما هو العدل بالضبط؟ واضح أنه من المهم أن نكون قادرين على التعبير عنه بالكلمات لكي نزيل الغموض ونتجنب استغلال الظلم المتخيل للتسبب بمزيد من الظلم - كما يحدث كثيرًا هذه الأيام. ولذلك، لكي نطبق العدل ونُنقذ الناس به من الضروري أن نكون قادرين على قول ما هو بالضبط - يعني أن نعرفه.

لا يوجد عمومًا اتفاق شرعي أو فلسفي على ماهية العدل. يعرف قاموس أو كسفورد الانكليزي العدل بأنه «سلوك أو معاملة صحيحة ومنصفة أخلاقيًا». وهذا يشير بالطبع أسئلة مثل: ما هو الصواب؟ وما هو الإنصاف؟ وعلى أي أخلاقيات مبنيان؟ ويؤخذ التعريف التقليدي الطبيعي للعدل عادة من تعريف أفلاطون له، أو شرح سيسرون لتعريف أفلاطون. تقول شخصية سقراط في كتاب الجمهورية بأن العدل هو: «قيام المرء بعمله، وعدم تطفله على مكان آخر» (٤٣٣ a). ويعرف سيسرون (في كتابه طبيعة الإلهية، ٣، ١٥) العدل بعبارة أدق: «فضيلة إعطاء كل شيء حقه» (من تلقاء الذات). وأحد الأمور المدهشة بالفعل حول الآية القرآنية التي بُني عليها هذا الفصل هي أنه قبل الأمر بالعدل في: ﴿... وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ [النساء، ٥٨: ٥٨] ورد الأمر بأداء الأمانة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ [النساء، ٥٨: ٥٨]. وهذا يعني أن الله ﷻ يقدم

لنا تعريفًا للعدل قبل أمر الناس بتطبيقه. وبعبارة أخرى، العدل هو «أداء الأمانات إلى أهلها». وهذا يحيط بكل من التعريفين المعجمي والتقليدي للعدل، لأنه يشمل السلوك والمعاملة المنصفة أخلاقياً التي تعطي كل شيء حقه. لكن العدل أبعد من ذلك، باعتبار كل شيء «أمانة». والأمانة الآن هي شيء ذو قيمة متلازمة ومقدمة من الله ﷻ للاستفادة منها مؤقتاً، لكنها لا تملك كلياً. ولا يمكن التخلص منها بالإرادة؛ لا نملك حقاً مطلقاً برميها جانباً أو إضاعتها. هي شيء علينا تجاهه حقوق ومسؤوليات بالتساوي. ولذلك فإن اعتبار كل شيء «أمانة» يضيفي على الأشياء كرامة ويمنحها حقوقاً متلازمة ويجذر من خرابها وإفسادها.

لكن ما هي الأمانات على وجه التحديد؟ يكشف لنا القرآن كيف أن الأمانات تشمل كل شيء، وعلى وجه الخصوص الأمور غير الدينية. وتبدأ هذه بأمانة حالة الإنسان ذاتها والحياة الإنسانية. يقول الله ﷻ عن خلق البشر:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب، ٣٣: ٧٢].

يعتبر كثير من المفسرين أن الأمانة هنا هي الإيمان بالله الواحد ومعرفته. وقد استشهدنا قبل قليل بآية الميثاق القديم السابق بمعرفة الأرواح بالله ﷻ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف، ٧: ١٧٢].

وبعبارة أخرى، ترتبط الأمانة بروح الله التي نفخها في الكائنات الإنسانيّة معطيّاً إيّاها الحياة والسّمع والأبصار والأفئدة (سورة السجدة، ٣٢: ٩)، وفي: ﴿... فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ...﴾ [الأنعام، ٦: ٩٨] من الزّمان والمكان على الأرض. ويعني أوّلاً حقّ الله بعبادة البشّر له، ثم قدسيّة حياة الإنسان التي خلقها الله مع معرفة فطريّة به في أعماق أرواحهم. وهذا يعني أنّ حياة الإنسان ذاتها هي أوّل كلّ الأمانات الأرضيّة. ولهذا السبب لا يمكن لأحد أن ينتهك حياة الإنسان - ولا للإنسان أن يُنهي حياته بالانتحار - لأنّ:

﴿... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ [المائدة، ٣٢: ٥].

من الواضح أنّ الأمانات تشمل أيضاً كليّات الشريعة الخمس التي ناقشناها سابقاً، أعني الحقوق الأساسيّة: (١) حقّ الحياة. (٢) والدين. (٣) والعائلة والتّناسل والشرف. (٤) والعقل. (٥) والملكيّة - مع كلّ الحريّات والحماية التي يتضمّنهما كلّ حقّ من هذه الحقوق. وتشمل الأمانات كلّ حقوق الجار أيضاً - حقّه في الإحسان إليه كما ناقشنا في الفصل السّابق.

يعني مفهوم الأمانة في الواقع - وكذلك العدل ذاته - أيضاً قضاء الوقت مع العائلة أو الأصدقاء أو الاسترخاء أو عناية المرء بجسمه وقضاء الوقت مع زوجه. قال النّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» (أخرجه أبو داود)، ولعينك (أي النوم) عليك حقّاً؛ ولجسمك عليك حقّاً؛ ولزوجه عليك حقّاً (أخرجه الخطيب البغداديّ في المتّق والمفترق). ويوسّع مفهوم الأمانة هذا بالطّبع العدل إلى كلّ ناحية

مشروعة من احتياجات المرء الشخصية؛ للتفاعل الاجتماعي؛ ولمهنة المرء أو وظيفته؛ ولوقت المرء ذاته (كما رأينا)، ولكل ناحية من نواحي حياة الإنسان الأخرى. إن العائلة، وربًا بشكل أكثر وضوحًا: الثروة والمال هي جميعًا أمانة وليست شيئًا لنا حقّ مطلق في التخلص منه - أو جمعه بأية وسيلة دون مسؤولية أخلاقية. ويبيّن الله ﷻ هذا في القرآن بقوله:

﴿آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد، ٥٧: ٧].

بيئة العدل

العدل ذاته يتطلب من البشر القيام بإدارة مسؤولية ورحيمة ودائمة للأرض ولكل المخلوقات الكثيرة - النباتية والحيوانية - التي تسكنها. وبالذات في عصر تحوّل المناخ وانحيار البيئة الوشيك - فالأمانة تنطبق على الكائنات الإنسانية كما جاء في قول الله ﷻ: ﴿... وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ...﴾ [النمل، ٢٧: ٦٢]. كتب جويس كيلمر (١٨٨٦ م) في قصيدة «شجر»:

وهل ترتقي يوماً قصيدة شاعرٍ	إلى مُستوى الأشجارِ حُسناً ورواقاً
تراها بُدِّي الأرضِ تُلصقُ ثغرها	وأحلى شرابٍ بالغذاءِ تدفقاً
إلى اللهِ تَرْنُو طيلةَ اليومِ خشيّةً	وأوراقها تدعوه بالغيثِ مُغدفاً
وفي الصيفِ ما بينَ الخُمائلِ قد حَبَّتْ	طُيُورَ أبي الحِجْناءِ عُشّاً مَرَوفاً
على صدرِها قد تَشْهَدُ الثلجَ راقداً	تَعِيشُ مَعَ الأمطارِ حُبّاً تَرْفِقُ راقداً
فما أكثرَ الأشعارِ تَبْدُو قصائدًا	يُنصِّدُها مَنْ كان مثلي أحمقا
وما أحدٌ يَسْتَطِيعُ صُنْعَ شَجِيرَةٍ	سوى اللهِ فانظُرْ للجَمالِ مُحَقَّقاً

لقد كان على حَقٍّ (ما عدا بالطبع الجزء المتعلق بحماقته). كل كائن حيّ على الأرض بما في ذلك النباتات مخلوق من مخلوقات الله ﷻ وهو من خلقه ﷻ، وليس من خلّقنا. وقد جاء في حديث البخاري سماعُ الصحابة لحنين الجذع في المدينة عندما تركه النبي ﷺ. لذلك كل المخلوقات لها حياتها وقيمتها المتأصلة بغض النظر عن فائدتها للإنسان. وقد حذّر النبي ﷺ بقوله:

«دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ» (أخرجه مسلم).

وعلى العكس من ذلك ما روي عن النبي ﷺ:

«أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِشَرِّ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَزَرَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا (أَيِ فَاسْتَقَتْ لَهُ الْمَاءَ بِخُفِّهَا)، فَغَفِرَ لَهَا» (أخرجه مسلم).

ربّما يكون لنا حَقُّ الأكل واستخدام بعض النباتات، ولكن ليس لنا حَقٌّ في تدميرها من غير وجه حَقٍّ. قد يكون لنا حَقٌّ في تربية بعض الحيوانات، لكننا لا نملك بالتأكيد الحقّ في تعذيبها وإلحاق الضرر بها من غير ضرورة لذلك أو إبادة فصائل بكاملها أو تدمير مواطنها. ليس لنا حَقٌّ في اصطيادها للرياضة. إنّ أكثر من ثُلث طعام الإنسان في الواقع الذي يتم إنتاجه يُكبّ - ناهيك بالمبالغة في تناول الطّعام والبدانة - ويعني هذا أنّ الأغنياء على الأقلّ لا يوجد عندهم سبب مشروع لاصطياد الحيوانات البرّيّة أو الطّيور لمجرّد التّسلية، ثم تناولها والتّظاهر بعد ذلك أنّ ذلك كان السّبب الحقيقي لاصطيادها. وبشكل مماثل، فإنّ البَشَر لا يملك الحقّ في السّرقة ونهب الأرض ذاتها أو الجبال أو



الجوّ وتلويثها كلّها، لأنّنا نعرف أنّ السّمُوات والأرض والجبال... أيّن أن يحملن الأمانة وأشفقن من أن يكونوا ظالمين مثلنا. ينبغي علينا عندئذ أن نعتبر الأرض والجبال - وبالتّبعية الجوّ الذي هو جزء من السّمُوات والبحار التي تغطّي الأرض - واعية بفطرتها بطريقة ما على طريقتها. وينبغي علينا بالتّالي أن نعتبر الطّبيعة والأرض والبحار والجبال والجوّ والحيوانات والنبّاتات لها حقوقها الخاصّة بها. وينبغي على البشّر أن يفكّروا جدّيّاً بحماية هذه الحقوق من خلال التّشريع الدّولي - لا سيّما أنّنا نعيش فيها ومعها، وحمايتها أساسيّة لبقائنا. وبصورة مساوية، ينبغي أن نفكّر بالأعراف والتّشريعات العالميّة من أجل حماية الحياة النباتيّة والبحريّة والطّيور والحشرات. روي عن النّبّي ﷺ:

«أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله ﷻ إليه: «أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تُسبّح؟» (أخرجه مسلم).

ويقول الله ﷻ في القرآن: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام، ٦: ٣٨].

المجتمع الحقيقيّ هو مجموعة يتواصل أفرادها مع بعضهم البعض. وتتواصل الحيوانات والطّيور والحشرات - كما نعلم الآن - مع بعضها البعض. وحتىّ الأشجار تتواصل (انظر كتاب كولين تودج الرائع «سر حياة الأشجار»)، ومع ذلك، ليس كما نتواصل نحن، أو من خلال الأصوات. إنّ معرفة أنّ الحيوانات والطّيور والحشرات وربّها حتىّ الأشجار هي مجتمعات



ينبغي أن تجعلنا تتعاطف معها ونحميها. وبفعل ذلك سنحمي أنفسنا أيضًا.
يحذر الله ﷻ في القرآن:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم، ٣٠: ٤١].

باختصار، البشر في الإسلام ملزمون بصرامة من الناحية الدينيّة بمعاملة
الحيوانات وكلّ الكائنات الحيّة - والطبيعة نفسها - بكلّ رحمة ممكنة واعتبار
لكي يتجنبوا إلحاق الضرر بها من غير ضرورة، إضافة إلى تجنبهم التلويث
وإزعاج البيئة الطبيعيّة أو تدميرها. قال النبي ﷺ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»
(أخرجه البخاري ومسلم).

ويمكن أن نضيف هنا أن قول أرسطو إنّ الإنسان «حيوان ناطق» (وهذا
قول ردّده بعض علماء المسلمين) ليس صحيحًا ولا دقيقًا. فنرى في القرآن أنّ
النمل تتكلّم والطيور تتكلّم، وفي السنّة أنّ البعير والضبّ وغيرهما يتكلمون،
كما أنّ الجذع يبكي والحصى يسبح. ويقول الله ﷻ: ﴿... وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾ [الإسراء، ١٧: ٤٤]. ونعلم
أيضًا من ناحية علميّة أنّ الكثير من الحيوانات لها لغات خاصّة مع كلمات
وأصوات، ونعلم أنّ الغربان يستطيعون حل لغز فيه سبع مراحل متتالية
وهذا يحتاج بطبيعة الحال إلى تفكير. وعند بعض الحيتان أغاني تستغرق أكثر
من نصف ساعة في أكثر من ثلاثمائة كلمة في لغة معبّرة. وأنهم كما قال ﷻ في
آية بحدّ ذاتها معجزة أنّ الحيوانات أمم مثلنا يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ

... ﴿ (الأنعام، ٦: ٣٨). أي أنها تتواصل فيما بينها بطريقتها الخاصة. فالفرق بين الإنسان والحيوان ليس الكلام ولا النطق بل هو كما قال ﷺ إِنَّ الْإِنْسَانَ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَعْرِفَ جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... ﴾ (البقرة، ٢: ٣١) بينما الحيوانات عامة كل منها يعرف جزء معين من الأسماء والله أعلم. فالحيوانات سيسألون يوم القيامة عن معاملتنا لهم تحقيقاً لعدل الله ﷻ، فلتتق الله في خلقه الحي وفي الجمادات.

ما هو الحكم؟

وبالرَّجوع إلى العدل والآية الأساسية التي بُني عليها هذا الفصل، فإنه يتضح لنا أن المظهر الأجل لعدل الإنسان يكمن في تطبيق الحكم السياسي، لأنه بعد كلمات: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ... ﴾ [النساء، ٤: ٥٨] يقول الله ﷻ عقبها مباشرة: ﴿ ... وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... ﴾ [النساء، ٤: ٥٨]. سنلاحظ أولاً أن الأمر بإقامة العدل هنا ينطبق على الناس: كل الناس، وليس فقط على المسلمين أو المؤمنين بالأديان، بل على كل الناس بغض النظر عن العرق أو العقيدة أو أي ميزة أخرى. ثم نلاحظ بعدئذ أن كلمة ﴿ حَكَمْتُمْ ﴾ هنا تعني أيضاً يقرر أو يحكم، وتعود إلى ما ندعوه الآن السلطة التنفيذية في الحكومة والسلطة القضائية. وتأتي من جذر «حَكَمَ» الذي يعني منع، ومن هنا جاء منع الاضطهاد والظلم، وسببهما النهائي الجهل. وتأتي كلمة «حكمة» في اللغة العربية من هذا الجذر («حكم») أيضاً. ويعني هذا القول عندئذ إن العدل ينطبق أولاً على كل الحكم، والحكم عندئذ



هو بحد ذاته في الأساس التطبيق الحكيم للعدل على كل الناس بالتساوي. ولذلك يقول الله ﷻ في القرآن لسيدنا مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿... وَقُلْ... وَأْمُرْ لَأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ...﴾ [الشورى، ٤٢: ١٥]، تمامًا كما قال للنبي ﷺ (والمالك) داود ﷺ: ﴿يَا دَاوُدُ... فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [ص، ٣٨: ٢٦].

أخيرًا، نلاحظ من وجهة النظر الإسلامية أنَّ الحكم هو مسؤولية متبادلة مشتركة بين الحكومة والناس. وليس مبنياً على أهواء الأفراد وعادات اليوم أو على الخوف من خطر اللحظة. إنه مبنيٌّ بالأحرى على تعاليم إسلامية نقلت من القرآن والحديث. لذلك فإن الآية التالية ذاتها بعد الآية التي بني عليها هذا الفصل تقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء، ٤: ٥٩].

وهذا يعني أنَّ على الناس مسؤوليات تجاه حكوماتهم كما على الحكومات مسؤوليات تجاه شعوبها. وباختصار، يمكن أن نقول إنَّ المفهوم الإسلامي للحكم هو في الأساس تطبيق حكيم للعدل على كل الناس بالتساوي وبمسؤولية متبادلة بين الحكومة والشعب بناءً على التعاليم الإسلامية.

الإجماع الشعبي ومشروعية الحكم

لا شك أنَّ الله ﷻ هو الملك الحقُّ، كما ورد في القرآن هو: ﴿... الْمَلِكُ



الْحَقُّ... ﴿طه، ٢٠: ١١٤﴾؛ و﴿... مَالِكِ الْمُلْكِ...﴾ [آل عمران، ٣: ٢٦]؛
و﴿... الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ...﴾ [الملك، ٦٧: ١]؛ وهو الَّذِي يُقال له: ﴿...
تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ...﴾ [آل عمران، ٣: ٢٦]. وقد جعل الله ﷻ بعض الأنبياء
ملوكًا (كداود وسليمان عليهما السلام) وجعلها ملكًا وراثيًا ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ
دَاوُودَ...﴾ [النمل، ٢٧: ١٦]. وأعطى الله ﷻ في البداية الملك استجابة لدعاء
النبيِّ شمويل (البقرة: ٢: ٢٤٦). وجعل الله النبيَّ يوسف ﷺ وزيراً على
خزائن الأرض في خدمة ملك مصر القديمة (الصالح) ويسمى هذا الحاكم
«الملك» في القرآن الكريم بينما يُدعى المستبدون في مصر الذين عارضوا سيّدنا
موسى ﷺ دائماً فرعون. وأكد هذا المعنى النبيُّ ﷺ نفسه في تثبيت عدد من
الملوك المجاورين في أدوارهم كملوك عُمان، والبحرين، وحمير في اليمن، بعد
أن تحوّلوا هم وأممهم إلى الإسلام. وقد أرسل النبيُّ ﷺ مجموعة مضطهدة
من صحابته الأوّل رضوان الله عليهم (برئاسة ابن عمّه جعفر بن أبي طالب
ﷺ) طالين اللّجوء إلى ملك الحبشة الَّذِي وصفه النبيُّ ﷺ «بالمُلك الصّالح»
(جامع البيان للطبري في تفسير سورة الأنفال). وقال النبيُّ ﷺ أيضاً: «الْمُلْكُ
في قريشٍ» (أخرجه الترمذي وأحمد). وفي حديث آخر: «الأئمة من قريش:
إذا استرحموا رحموا، وإذا عاهدوا فوا، وإذا حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك
منهم فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين» (أخرجه أبو داود الطيالسي). وعندما
توفي النبيُّ ﷺ (سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م) ولم يكن له أبناء أو إخوة أو أبناء إخوة،
خلفه الخلفاء الراشدون ﷺ الَّذين جاؤوا بعده لمُدّة ثلاثين سنة، وكانوا أقرباءه
من قريش. وكان أبو بكر وعمر ﷺ أحماءه، وعثمان وعلي ﷺ صهره. وكان
الخليفة الرّاشد الخامس (والأخير) لبضعة أشهر في سنة (٤٠ هـ / ٦٦١ م) هو

حفيد النَّبِيِّ ﷺ الحسن بن علي ؑ. وقد تنبأ النَّبِيُّ ﷺ: بأن الخلافة بعده تكون ثلاثين عامًا، ثم تكون بعد ذلك ملكًا عضوًا (أخرجه أحمد وابن حبان). وفي الواقع، وطوال التاريخ الإسلامي من سنة ٦٦١ ميلادية إلى سقوط الخلافة العثمانية في سنة ١٩٢٣م كانت الدُول الإسلامية عمومًا ملكيات محلية شكلية تحت حكم خليفة يكون عادة فوق القوميات. وكان بعض الأبطال والمدافعين عن الإسلام العظماء - كنور الدين زنكي وصلاح الدين - ملوكًا. ولكن إن لم يكن في الإسلام شيء يشبه فكر اليعاقبة، لا يوجد بالطبع شيء يسمى «حقّ الملوك الإلهي» أو «ملكية مطلقة في إسلام» من هذا النوع المشاهد في العصور الوسطى في أوروبا. لا شيء يمنع أن يكون هناك ملوك في الإسلام طالما يحكم الملك تحت سقف الشريعة الإسلامية. لكن صيغة الملكية كنظام حكم ليست الصيغة الوحيدة الممكنة للحكم في الإسلام. يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .﴾ [المائدة، ٥: ٤٠]. وكما ذكرنا سابقًا بالفعل، ﴿... الْمَلِكُ الْحَقُّ . . .﴾ [طه، ٢٠: ١١٤] هو الله، ولذلك فإنّ الحاكم خاضع دائمًا لأحكام الله وبعد ذلك لإجماع الناس والشورى، كما سنناقشه قريبًا.

ومع ذلك فلا يوجد شكل خاص من أشكال الحكم يعدّ واجبًا في الإسلام. وقد بيّن النَّبِيُّ ﷺ كثيرًا من تفاصيل السلوك في كلّ أنواع الأمور تتراوح من التجارة إلى الميراث، ولم يعيّن ﷺ مع ذلك شكلًا واحدًا خاصًا من الحكم. وقد يكون هذا متعمدًا بوحى من الله ﷻ. والسبب الذي يكمن وراء هذا على أغلب الظنّ هو أنّ شكل الحكم هو مجرد وسيلة وليس غاية، وينصّ الله في القرآن على ما يتوقعه الناس من الحُكَّام والحُكَم - مهما كانوا ومهما كان الشكل الذي يتخذه الحكم - كالتالي:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج، ٢٢: ٤١].

هذا هو إذن نطاق الحُكَّام مهما كانوا ومن كانوا. وهو مؤسَّس بوضوح في تطبيق: (١) العدل الروحي (إقامة الصَّلاة). (٢) العدل المالي (دفع الصَّدَقَات). (٣-٤) العدل الاجتماعي والسِّيَاسي على التَّوالي. (الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر). وعندما لا تُقام الصَّلوات في الواقع (أي لا يوجد عدل روحي) يتمَّ عندئذٍ فقط خلع الحاكم والخروج عليه بالسَّيف. وقد عاهد النَّبيُّ ﷺ المسلمين:

«لَا تُنَازِعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا». وفيما يخصَّ هذا (الكفر البواح)، يجب أن يكون: «عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» (أخرجه البخاري).

أما بالنسبة للشخص الحاكم فهذا ما قاله الغزالي في الرسالة القدسيَّة:

«الأصل التاسع: أنَّ شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة: الذكورة، والورع، والعلم، والكفاية، ونسب قریش، لقوله ﷺ «الأئمة من قریش» (رواه النسائي). وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات. . . فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق، والمخالف للأكثر باغٍ يجب ردهُ إلى الانقياد إلى الحق. الأصل العاشر: أنه لو تعذَّر وجود الورع والعلم فيمن يتصدَّى للإمامة، وكان في صرفه إثارة فتنة لا تُطاق حكمنا بانعقاد إمامته. لأنَّ بَيْنَ أَنْ نَحْرُكَ فِتْنَةً بِالِاسْتِبْدَالِ، فَمَا يَلْقَى الْمُسْلِمُونَ فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ يَزِيدُ عَلَى مَا يَفُوتُهُمْ مِنْ نَقْصَانِ



هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة، فلا يهدم أصل المصلحة شغفاً بمزاياها؛ كالذي يبنى قصرًا ويهدم مصرًا، وبين أن نحكم بخلو البلاد عن الإمام، وبفساد الأقضية، وذلك محال، ونحن نقضي بنفوذ قضاء أهل البغي في بلادهم لمسيس حاجتهم، فكيف لا نقضي بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة؟!» (الرسالة القدسية، إحياء علوم الدين، كتاب قواعد العقائد).

ينبغي على الناس وراء ذلك أن يكونوا أحرارًا لكي يحدّدوا لأنفسهم تفاصيل ما هو أفضل ملائمة لهم حسب زمانهم ومكانهم وظروفهم وعاداتهم واعتقاداتهم. لكن الأمر الضروري هو إجماع المسلمين على شكل للحكم مهما كان هذا الشكل. ويكون الحاكم أو الحكومة شرعية إذا كان هناك إجماع عليهما من الأمم أو حكامها. ويجب أن ينعكس الإجماع في ممارستين للبيعة «عهد الولاء» والشورى «الاستشارة». وكلا الممارستين لهما أساس في القرآن والحديث. لذلك فإنّ عملية الشورى إلزامية في صنع قرارات الدولة (مع أنّ هذا لا يعني أنّ الحاكم ملزم بنتائج الشورى بالضرورة). يقول الله ﷻ للنبيّ ﷺ في القرآن الكريم:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران، ٣: ١٥٩؛ وانظر أيضًا: الشورى، ٤٢: ٣٨].

تكون الحكومة إذن شرعية طالما أنّها تأسست بإجماع شعبها أو ممثليه

أو أن الأغلبية الغالبة قدّمت لها ولأهلها بطريقة أو بأخرى. قال النبي ﷺ: «فَاتَّبِعُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ» (أخرجه الحاكم في المستدرک). وقد أشار بعض العلماء المعاصرين أن هذا يمكن أن يتخذ حُجّة لصحة الإجماع على وثيقة كالـدستور، ويمكن بعدئذٍ أن تنتقل شرعيّته أو يتمّ توارثها.

يمكن أن يقال بأنّ الحكم بالإجماع هو شكل من أشكال الديمقراطية، ولكن لا يعني أن الشورى هو حكم الأغلبية. في حكم «الأغلبية» عندما تقوم التعددية أو الأغلبية القليلة من المنتخبين - غالباً تحت تأثير التلاعب المحرّض على الخوف أو البُغض - بفعل أمر (من خلال وسائل قانونية و/أو باستخدام جهاز الدولة) تضطهد الأقلية. وقد تسلب الأغلبية من الأقلية حقوقها الأساسية، أو على الأقل تقوم بفعل لن توافق عليه الأقلية بحرية، بينما هذا لا يجوز تحت حكم الإجماع ولا يجوز انتقاص حقوق أي فرد غير مجرم من المجتمع بأي حق من حقوقه ولو اجتمع على ذلك بقية المجتمع. وفي حكم الإجماع يكون للأقلية حق النقض أو المنع لقرارات الأغلبية غير مبنية على العدل، ونظام الأغلبية التي تحكم بالظلم يؤدي في نهاية الأمر على المدى الطويل إلى حرب أهلية أو إلى انقسام الدولة. فإنّ الدساتير الجديدة الموضوعة بهذه الطريقة تفشل حتماً، كما حدث في أعقاب ما سُمّي «بالربيع العربي». يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خِضَلُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ...﴾ [الأنعام، ٦: ١١٦]

وعندما يتمّ إقرار الدستور بالإجماع وتتغيّر الحكومات بأغلبية مطلقة أو



هامش ضئيل، فإنه يكون حكم إجماع وليس حكم أغلبية. يصف جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) في كتابه العقد الاجتماعي هذا الموقف كالتالي: «يعتمد قانون تصويت الأغلبية بحد ذاته على الاتفاق، ويعني ضمناً أنه كان هناك على الأقل مناسبة واحدة، إجماع في الآراء» (العقد الاجتماعي، الفصل الخامس).

ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه في الديمقراطيات الغربية اليوم يوجد اتفاق ضمني وخفي بين تسعين بالمائة على الأقل من كل الأمم بأن شكل الحكم عندها هو النوع الوحيد الذي تقبل به. لقد تم تبني دستور الولايات المتحدة سنة ١٧٨٧م والمصادقة عليه بالإجماع تقريباً (ثلاثة فقط من ٤٢ من المفوضين كانوا مازالون حاضرين في فيلادلفيا - من مجموع ٥٥ مفوضاً كانوا قد شاركوا - رفضوا التوقيع، وقد صادقت عليه كل الولايات في نهاية الأمر). الإجماع عندئذ هو أساس مشترك محتمل بين النظرية السياسية الإسلامية والديمقراطية الغربية.

يقدم الإجماع في المصطلحات الحديثة التأكيد والتوازن النهائيين. وفي الإجماع لا يتم إقصاء الأقلية (مهما كانت علمانية أو متطرفة دينياً ومهما كان دينها أو جماعتها العرقية أو جنسها)؛ كل له رأيه؛ وكل له حق النقض؛ والكل محمي؛ والكل محترم؛ والكل مأخوذ بعين الاعتبار، والكل آمن. ولا يمكن أن يوجد استبداد للأغلبية أو الأقلية؛ ولا يمكن أن يؤدي التحريض الجماهيري المؤيد أو الديني إلى مخالفة الأغلبية وجعل الأقلية ضحية، ولذلك الكل مجبر على التسوية. والكل بذلك راض.

الدولة المدنية

خلافًا لرأي بعض الناس، ومنذ وفاة سيّدنا مُحَمَّد ﷺ، الدولة في الإسلام هي، وكانت دائمًا، (على الأقلّ في الإسلام السُّني والإسلام الشيعي حتّى تأسيس مذهب ولاية الفقيه لآية الله الخميني ١٩٧٠م)، دولة دنيويّة. ونعني بهذا دولة مدنيّة لم تكن حكومة دينيّة ولا كان يديرها رجل دين أو طائفة دينيّة. لكنّها لم تكن علمانيّة أيضًا.

وهذا لأنّ سيّدنا مُحَمَّدًا ﷺ كان خاتم رُسل الله، وعندما توفّي عليه الصّلاة والسّلام أغلق باب الوحي. ولا أحد يتلقّى الوحي من بعده ﷺ. وهذا يعني أنّه لا أحد (عالم دين أو غيره) معصوم، وأنّ علماء الدّين لا يمكن أن يدعّوا السّلطة الدنيوية لمجرّد أنّهم علماء في الدّين. يقول الله ﷻ:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾ [النساء، ٤: ٨٣].

أولئك الذين في السّلطة هم حُكّام الدّولة، وهم الأشخاص المسؤولون عن أمن الدّولة. السّياسة علم خاصّ. وقد راقبوها ودرسوها ولديهم بها علم. ولهذا السّبب هم أفضل ملائمة للتعامل معها. ولذلك عوضًا عن أن يتظاهر الوُعاظ ويطمحوا للحصول على نوع من السّلطة السّياسيّة لأنّهم يملكون معرفة دينيّة معيّنة، يطلب الله ﷻ من النّاس أن يتركوها لأهلها المؤهلين. ومن الواضح أنّ علماء الدّين يمكن أن يملكوا سُلطة أخلاقيّة، ويمكنهم أن يقولوا ما يعتقدون أنّه دينهم وما يتطلّبه، لكنّهم لا يستطيعون استخدام قوّة مؤقتة أو

ادّعاء سُلطة تنفيذيّة. ولا يمكنهم أيضًا أن يدّعوا سُلطة إلهيّة مطلقة بمقتضى فهمهم الخاصّ للدين، إلّا إذا كان هناك بالطبع إجماع عالميّ للعلماء على قضيّة مطروحة. ومن النّاحية التّاريخيّة، كان العلماء المسلمون الكبار في الحقيقة يبدلون جهدهم في تجنب التورّط في شؤون الدّولة والسّياسة خوفًا من الله ﷻ. ولم يكن عبر التّاريخ الإسلاميّ علماء الدّين حُكّامًا أبدًا. وبعض العلماء في الواقع كأبي حنيفة عانوا من السّجن والجلد بدلًا من أن يقبلوا منصبًا عاليًا في الدّولة.

المواطنة

أساس المواطنة في الحكومة الإسلاميّة ليس هويّة دينيّة أو عرقًا أو سلالة أو جنسًا أو عمرًا أو طبقة أو ثروة أو لغة. إنّها مجرد مواطنة. فالحرّيّة وحقوق المواطنة في أرض معيّنة تأتي - أو كانت تأتي - من الولادة فيها. يقسم الله ﷻ في القرآن بما يلي:

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ [البلد، ٩٠: ١-٣].

ولذلك فإنّ الحرية وحقوق المواطنة هي حقوق متلازمة لا تنفصل عن بعضها البعض. ومع ذلك فإنّ أساس العقد الاجتماعيّ مع حكومة الدّولة (إن وجدت) هي ضرائب اجتماعيّة. ويمكن توريث هذا العقد، وهو يُبنى عادة على دفع الضّرائب الاجتماعيّة. وقد عرّف دستورُ المدينة الأوّل في

زمن سيّدنا مُحَمَّد ﷺ اليهود والمسلمين كأمة واحدة. وحقوق المواطنين غير المسلمين كانت نفسها حقوق المواطنين المسلمين. وهي تقول:

«وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ: مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ» (ابن هشام، السيرة النبوية).

ويضمن في سياق كهذا كلّ مواطن حماية الدولة لحياته وعائلته وممتلكاته وعرضه وخصوصيته وحرية دينه وفكره. ولا يمكن حرمان المواطنين من حقوقهم على أساس الدين أو العرق أو الجنس أو الطبقة. قال النَّبِيُّ ﷺ:

«مَنْ ظَلَمَ ذِمِّيًّا، أَوْ انْتَقَصَهُ حَقَّهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طاقته، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بغير طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (أخرجه أبو داود).

كلّ مواطن يضمن في الواقع حماية الدولة لحياته وعائلته وممتلكاته وعرضه وخصوصيته وحرية الدين والفكر. والدولة مسؤولة عن التأكّد من أنّ هذا لا يتأثر بفساد موظفيها أو المواطنين الأثرياء. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، ٢: ١٨٨].

وينبغي على المواطنين أيضًا أن يتلقوا دعم الدولة عند حاجتهم إليه وعندما يكون ممكناً. قال النَّبِيُّ ﷺ:

«مَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَاعًا فَعَلَيْ قَضَاؤُهُ» (أخرجه البخاري ومسلم).



ويدين المواطنون بالتبادل للدولة بالولاء والإخلاص والدّعم، ويجب عليهم أن يطيعوا قوانينها. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل، ١٦: ٩١].

فالمواطنة عندئذٍ وباختصار قد يمكن اعتبارها عقدًا اجتماعيًا عادلاً ومساوياً مع الدولة والمجتمع عمومًا، واعتبارها مبنية على العدل والله ﷻ شاهد عليها.



لِمَ يجب أن نعرف هذا كله؟

من المهم أن نعرف مدى أهمية العدل لأن المسلمين بدونه - بل جميع الناس في الواقع - سيثورون باستمرار، وسيعانون من الإرهاب والحرب الأهلية. ومن ناحية إيجابية، من المهم أن نعرف أنه لا شيء أحسن وأفضل من تطبيق العدل في الشؤون الإنسانية من أجل خير البشر عامة. ويتضح أنه من المهم معرفة ما هو العدل لكي نطبّقه، ولكي نقدر أن أداء الأمانات إلى أهلها هو مفهوم يحيط بكل نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية وحتى الطبيعية والبيئية. ومن المهم أن نعرف أن الحكم يعتمد على العدل وأنه لا يمكن لأي حكم أن يستمر طويلاً من دونه. ومن المهم أن نعرف أيضًا أن الحكومات هي شرعية عندما تبنى الدساتير والدول على أساس الإجماع -

فتكون الأقليات محمية - وأن هذا المبدأ هو المشترك بين الحكومات الإسلامية والديموقراطيات الغربية. ومن المهم أن نعرف أن علماء الدين والوعاظ لا يملكون سلطة تنفيذية ذاتية في الإسلام فقط لكونهم علماء دين، ولا حكم إلهي سياسي مباشر على الأرض بعد وفاة سيدنا مُحَمَّد ﷺ إلا من خلال نصوص القرآن والحديث. ومن المهم أخيراً أن نعلم أنه لا توجد مقومات دينية مسبقة للمواطنة في الحكم الإسلامي؛ وأن المواطنين هم مواطنون، وأن الحكومة الإسلامية ملزمة بمعاملة كل المواطنين بالعدل.

كل هذا يمثل بالطبع مواقف ومبادئ أصولية قديمة. وكل ما لا يعكس هذا اليوم هو ظلم وجديد على التاريخ الإسلامي، بل شيء جديد في تاريخ الإسلام. لذلك فإن الحل لكثير من مشاكل اليوم يكمن تحديداً في عودة المسلمين إلى مبادئ الأصول القديمة تلك. ومبادئ الأصول لا تعني تكرار كل أشكال العصور السابقة وأحكامها. بل تعني بالأحرى استخدام أدوات المسلمين الأكثر دقة وعناية لتفسير النصوص الإسلامية وتطبيقها في الحالات المعقدة المثيرة للتحدي في العالم الحديث. وهذا هو الإخلاص الحقيقي للقرآن والسنة ورؤية المسلمين السابقين.

يبقى أن نقول في النهاية إنه بعد كل شيء أكدته أضيف كلمتي: «والله أعلم». أعتقد أن ما كتبه صحيح وصواب، لكنني بالطبع أقر بأنني يمكن أن أكون مخطئاً. وأعتقد أن الذين لديهم وجهات نظر مخالفة لمخطئون، لكنني أقر بأنهم يمكن أن يكونوا على صواب. ويُنسب إلى الإمام الشافعي: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب». وأسأل الله أن يتقبل



هذا الجُهد في شرح الإسلام وتوضيحه وأدعوه أن يعفو عن عيوبي وأخطائي.
﴿... إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ﴾ [هود، ١١: ٨٨].

غازي بن محمد بن طلال
عمان، الأردن
١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

فَتَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ
بِآيَاتِهِ فَذُكِّرُوا

استدراك

ما هي السّعادة؟



بدأنا بملاحظة أنّ غاية الدّين في جوهره هي مساعدة النّاس أخلاقياً وروحياً. ولا حظنا أنّ الإسلام يعني مجاهدة النّفس، أو ترويض النّفس. ولخصّنا وظيفة دين الإسلام بأنّها الغفران والاستعداد للنّجاة. وتعني النّجاة الآن السّعادة في الحياة الآخرة. لكننا رأينا أيضاً كم يمكن أن يكون الدّين متطلباً ومستهلِكاً. ولذلك، نتساءل: هل كلّ هذا الجهد الرّوحي المطلوب للنّجاة يجعل النّاس سعداء في هذه الحياة، أم يجعلهم أشقياء ويؤخّر السّعادة؟ هل يجعل الدّين - لا سيّما الإسلام بكلّ أوامره ونواهيه - الحياة في هذا العالم غير محتملة لكي يعبّد النّاس بحياة سارّة في الآخرة؟ هل السّعادة باختصار شيء للآخرة أم شيء في هذه الدّنيا أيضاً؟

السّعادة أم الشّقاء؟

قد يبدو للنّاظر قبل التأمّل أنّ الدّين قد سبّب ويُسبّب كثيراً من الشّقاء في



هذه الدنيا. ومن المُحزن أن هذا يتّضح يومياً في نشرات الأخبار. ولكن إذا جاءت كل الأديان لكي تشقي الناس في هذه الدنيا، وتعدّهم بالسعادة في الآخرة، فلن تنجح كثير من هذه الأديان في الاستمرار طويلاً. وقلة من الناس المُجدين سيحافظون بالفعل على التمسك بالدين. لكن الأمر ليس كذلك. وكما لاحظنا في البداية رغم مجيء العالم والعلم الحديث، ٨٥٪ من سكّان الأرض يتمون إلى أحد الأديان. لذلك يجب على الأديان عامّة أن تُسعد الناس والمجتمعات، أو أن لا تسبّب لهم الشقاء بصورة لا تُحتمل على الأقل. وهذا ينطبق على الإسلام. يقول الله ﷻ للنبي ﷺ في القرآن: ﴿طه ٢٠-٢١﴾. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢٠﴾ [طه، ٢٠: ٢-١].

تعريف السّعادة

جميعنا نفهم بصورة غامضة ما تعنيه كلمة «سعادة». ولكن كما رأينا في موضوع العدل (في الفصل ١٢)، لكي نعرف السّعادة بدرجةٍ نتمكّن من الإحساس بها بالفعل، فإنّه يجب علينا أن نعرّف ما هي بالضبط. ولكي نعلم شيئاً - كما يقول سقراط (في كتاب أفلاطون «فيدروس»، ٢٧٧ b) - «يجب علينا أن نتعلّم كيف نعرّفه. . . ونقسّمه إلى أن نصل إلى شيء لا يقبل القسمة». عندئذ يمكننا «رؤيته للخلف وللأمام في آن معاً» (أفلاطون، «كراتيلوس»، ٤٢٨ d). أو بعبارة أخرى، وكما يفترض أن ألبرت أينشتاين قال: «إذا لم تستطع شرح الأمر ببساطة، فإنّك لن تفهمه بصورة كافية».

هناك في الواقع تعريف واضح بسيط للسّعادة في القرآن. ولكن من الضروري لكي نفهم السّعادة أن نعرف أولاً قبل كلّ شيء ثلاثة مفاهيم وثيقة

الصِّلة بالسَّعادة لكنَّها مختلفة عنها. أعني: المتعة والرِّضا والفرح. يوجد في القرآن فرق واضح بين السَّعادة والعواطف الثلاث التي غالبًا ما يخلط النَّاس بينها وبين السَّعادة: المتعة والفرح والرِّضا. وتُظهر القراءة المتأنِّية للقرآن الكريم أنَّ كلَّ مُصطلح من هذه المصطلحات له معنى مقصود ومحدَّد وغير قابل للتَّبادل، ويُستخدم في سياق ملائم فقط. إنَّ فهم الفوارق بين كلِّ هذه العواطف يصبح عندئذٍ مفتاحًا للإجابة على السَّؤال البالغ الأهميَّة: ما هي «السَّعادة»؟ وكما سنرى، فإنَّ الجواب على هذا السَّؤال مذهش.

المتعة

تميل كلمة «المتعة» في القرآن إلى الدَّلالة على الاستمتاع بمشير يتولَّد من الحواسِّ العضويَّة، أو يأتي بواسطتها. ويشترك البَشَر بهذا النَّوع من الاستمتاع مع الحيوانات. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ...﴾

[محمد، ٤٧: ١٢].

المشكلة في هذا النَّوع من الاستمتاع، رغم أنَّه قوي، هي أنَّه قصير لأنَّ الجسم والحياة الدُّنيا ذاتها مدَّتْها قصيرة. ويُحاطب الله المؤمنين في القرآن باستنكار:

﴿... أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ

إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة، ٩: ٣٨)

ولذلك لا يؤدّي الاستمتاع إلى السّعادة أبداً. إنه شعور لا يدوم. كما كتب
 الشّاعر الاسكتلندي روبرت بيرنز في قصيدته: «تام أو شانتر» عام ١٧٩١ م:

تَبْدُو السَّعَادَةَ كَالخَشَاشِ مُنْشَرَا إِذْ تَقْطِفُ الزَّهْرَ يَدُوِي الحُسْنُ مُسْتَرَا
 وَالثَّلْجُ يَهْمِي عَلَى الْأَنْهَارِ مِنْهُمْرَا تَرَاهُ أبيضَ لَكِنْ دوماً انْصَهَرَا

ربّما يفسّر هذا سبب دوران كثير من الأحكام الدينيّة - كالصّيام - حول
 التّحكّم باللذائذِ العضويّة بالتحديد، أو الصّبر في مواجهة غيابها أو ألمها
 المناقض.

الفَرَح

الفَرَح في الدّين المسيحي أمر رُوحِيّ بين النّاس (انظر على سبيل المثال:
 كورنثوس ١٣: ٤-٦ و ٢ كورنثوس ٦: ٤-١٠). وفي الجنّة (انظر: إنجيل
 لوقا ١٥: ٧-٢٤ وإنجيل متى ٢٥: ٢٣). ربّما لهذا السّبب يعرّف قاموس
 أوكسفورد الإنكليزي (٢٠١٤م) الفَرَح بأنّه: الشّعور بسرور وسعادة
 عظيمين.

لكن الفرح في القرآن أمر مختلف: إنّه شعور سعيد، وربّما مع سرور
 عظيم، ولكنّه ليس السّعادة ذاتها. يوجد في الواقع نوعان من الفَرَح في
 القرآن. أحدهما إيجابيّ والآخر سلبيّ. الفَرَح السّلبيّ هو في الأساس الفَرَح
 الدُّنيويّ. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿... وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد،

٢٦: ١٣].



والفرح الإيجابي من جهة أخرى هو الفرح بالله، أو بسبب أن المرء يرى
نعماً تأتيه من عند الله. يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾
[يونس، ١٠: ٥٨].

ويبدو أن كلاً النوعين من الفرح يعتمد على الحصول على شيء أو تلقيه.
والفرق بينهما ليس كثرة ما يتلقاه المرء، بل كيف يراه. وبعبارة أخرى، عندما
يتلقى الإنسان شيئاً ما - لنقل تلقى طعاماً، أو لباساً أو منزلاً أو سيارةً، أو أي
شيء له منفعة مادية معقولة - إذا فرح به لمجرد زيادة ممتلكاته في الدنيا فهذا
عندئذ فرح سلبي. ولكن إذا فرح به من حيث أنه عطاء من الله ﷻ ولأجل
منفعة هذا الشيء فهذا إذن فرح إيجابي. ولكن في أية حال، فإن الفرح كالسرور
لا يدوم. فهو يتلاشى عندما تتلاشى الهدية أو عندما تذهب بهجتها. وهو
ليس السعادة. وكما كتب توماس غراي (١٧٧١م) في «مرثاة مكتوبة لفناء
كنيسة في الرّيف»:

إن التّفاحر بالزّينات تزدهرُ وبالجمال وبالأموالِ تنتشرُ
لساعة الموتِ حتمًا باتِ ينتظرُ فكلُّ مجدٍ إلى الأجداثِ ينحدرُ

الرّضا

يعرّف قاموس أو كسفورد الإنكليزي (طبعة سنة ٢٠١٤م) صفة «راض» كالتالي:
راغب بقبول شيء؛ قانع. وهذا لا يختلف كثيراً عن الرّضا كما هو مفهوم في



القرآن. ولكن كما هو الحال مع الفرح، يوجد نوعان من الرضا في القرآن: واحد سلبي والآخر إيجابي. النوع السلبي هو الرضا بالدنيا يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس، ١٠: ٧].

والنوع الإيجابي هو الرضا بعباء الله ﷻ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ...﴾ [التوبة، ٩: ٥٩].

وكلا هذين النوعين من الرضا يعتمدان على موقف معين، هو امتلاك شيء ما. وكما هو الحال مع الفرح، فالفرق بينهما ليس ما يمتلكه المرء، بل كيف يراه. وكالفرح، يعتمد الرضا على شيء خارجي، أو يتعلّق به على الأقل. وإن كان الخارجي بالطبع دائماً ورائعاً - مثل ما هو في الجنة فقط - فالرضا يعني عدم الشعور بالخوف وعدم المعاناة أو العزلة أو الحاجة. يقول الله ﷻ عن المنعم عليهم بالجنة:

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشَى رَبَّهُ﴾ [البينة، ٩٨: ٨].

ولكن هذا ما يزال لا يجعل الرضا الشيء ذاته بالضبط كالسعادة. ما زال الرضا شيئاً مشروطاً أكثر وربما أكثر استسلاماً.





إذن «المتعة» هي مسألة «شعور»؛ «والفرح» مسألة «التَّحْصِيل»، «والرِّضا» هو «امتلاك شيء». ومع ذلك ولا واحد من هذه الأمور هو السَّعادة بالضَّبْط. إذن، ما هي السَّعادة؟

السَّعادة

الكلمة العربيَّة للسَّعادة - أو بالأحرى اشتقاقاتها - جاءت مرَّتين في القرآن فقط وهي تصف حالة دائمة. ولا تصف أبداً حالة الكائنات الإنسانيَّة في هذه الدُّنيا. وكلتا المرَّتين جاءتا في هذا المقطع المُستشَّهد به سابقاً، الَّذي يرجع إلى الحديث عن الجنَّة:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿١٠٨﴾ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾ [هود، ١١: ١٠٥-١٠٨].

وما يزال هذا يثير لدينا سؤالين كبيرين: «ما هي السَّعادة؟»، و«هل يمكننا أن نحصل عليها في هذه الدُّنيا؟». ويكمن الجواب على كلا السؤالين في النصِّ القرآنيِّ السَّابق. يجب أولاً أن نلاحظ أن السَّعادة هنا مرتبطة «بالعطاء الغير مجذوذ». وكلمة «عطاء» مع اشتقاقاتها وردت أربع عشرة مرَّة في القرآن، ولم يذكر العطاء الغير مجذوذ في أيِّ مكان آخر في القرآن. يمكننا لذلك أن نستنتج أن السَّعادة تأتي من «العطاء الغير مجذوذ». ولكن هل العطاء الغير مجذوذ



هو الذي يسبب السعادة؟ يدل السياق على أنه عطاء من الله ﷻ، ولا يستثني النص كونه عطاء الناس أيضًا. وعلاوة على ذلك، رأينا في الفصل الخامس أنه في الجنة: ﴿... تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٢: ٢٨١). فالعطاء الغير مجذوذ للإنسان هو نتيجة العطاء الغير مجذوذ من دون وجود أي معيار بين عطاء الله ﷻ وعطاء الناس. ويؤكد الله ﷻ هذا في القرآن بقوله:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا...﴾ [البقرة، ٢: ٢٥].

إذن ما يتلقاه الناس في الجنة هو مُشابهة خالصة لما رزقوا به على الأرض. وبما أن رزق المرء الحقيقي هو أعماله الصالحة، فهذا يعني أن العطاء الغير مجذوذ في الجنة هو نتيجة أو انعكاس لعطاء الناس الغير مجذوذ على الأرض. وبعبارة أخرى، العطاء الغير مجذوذ هو سبب السعادة بطريقة أو بأخرى. ويمكنك بالتأكيد أن تكون سعيدًا إذا أعطيت. فالمشاعر لا تجعلك سعيدًا؛ والحصول على شيء لا يجعلك سعيدًا؛ والامتلاك لا يجعلك سعيدًا. العطاء وحده هو الذي يسعدك. كما قال المسيح ﷺ: «العطاء مبارك أكثر من التلقي». (أعمال الرسل: ٣٥ / ٢٠) بل أكثر من ذلك هو مبارك وهو الذي يجعلك سعيدًا. فباختصار العطاء الغير مجذوذ مساوٍ للسعادة، وهو تعريفها.

وهذا واضح لأن السعادة يمكن أن تأتي فقط من معرفة الله ﷻ الذي منه يأتي كل كمالٍ ورضوان، ومن حبه، ومن كَوْن الإنسان دائمًا معه. وما يمنع الناس من معرفة الله ومحَبَّته وكونهم معه إنما هو أنفسهم وانغماسهم في الدنيا. يقول الله ﷻ:

﴿... وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة، ٩: ٤١].

إذن، مجاهدة المرء نفسه والدنيا فقط والتخلص منهما، هو ما يجعل الإنسان سعيداً، لأن النفس الأمارة بالسوء لا تُسعد أبداً والدنيا همة لا تنقضي. ويفعل المرء هذا بالعطاء الغير مجذوذ، إلى أن لا يترك شيئاً من النفس الأمارة بالسوء أو من الدنيا. يخاطب الله ﷻ في القرآن النفس المطمئنة، أي النفس التي تغلبت على شهواتها والدنيا بقوله:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٣﴾ وَادْخُلِي جَنَّاتِي ﴿٤﴾﴾ [الفجر، ٨٩: ٢٧-٣٠].

يثير هذا بعد ذلك التساؤل عما إن كان بإمكاننا أن نكون سُعداء حقاً في هذه الحياة أم أن السعادة يمكن أن توجد فقط في الجنة. تتطلب السعادة الآن من العطاء أن يكون غير مجذوذ. إذن نحن نكون سُعداء طالما - وإلى الحد الذي - أننا نستمر في العطاء بأي طريقة استطعنا بها ذلك. ويمكن فعل هذا بصورة فعّالة من خلال أفعال العطاء الصغيرة المتواصلة. قال النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلِقٍ» (أخرجه مسلم). أو يمكن فعلها بمجرد إعطاء النفس من خلال الصبر المستمر والتجلد. قال النبي ﷺ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ - ثلاثاً - وَلَمْ يَبْتَلِ فَصَبْرَ فَوَاهَا» (أخرجه أبو داود).

هذا لنقول عندئذ أن السعادة تعتمد على العطاء الغير مجذوذ، ولكن لأن هذا العطاء إما أن يكون معلوماً أو مجهولاً، لا يتطلب مالا أو قوة أو حتى



أشخاصاً آخرين (كمتلقين له). ورغم أن قول هذا أسهل من ممارسته، إلا أنه يمكن القيام به مع ذلك حتى في العزلة ومع العجز وإن كثيراً من العاجزين والمعاقين والمرضى والكهول يشتون هذا كل يوم. عبّر جون ملتون (١٦٧٤م) عن هذا بدقة بعد أن فقد بصره في سباعيته المكتوبة على الأسلوب البتراركي (أسلوب إيطالي لكتابة السباعيات): «عندما أفكر كيف استنفذت بصري»:

رَجَعْتُ إِلَى مَا قَدْ مَضَى أَتَفَكَّرُ	على نور عيني ضائعاً اتَّحَسَّرُ
مَضَى نِصْفُ عُمْرِي فِي ظِلَامٍ بِعَالِمٍ	فَسِيحٍ، وَفَقَدْتُ النُّورَ مَوْتُ مُؤَثِّرُ
يُحَاصِرُنِي عَجْزِي، وَرُوحِي قَدْ أَتَتْ	لِخِدْمَةِ خَلَاقِي بَعْزَمٍ تَبَادَرُ
وَقَدَّمْتُ أَعْمَالِي سَجْلاً أَمَامَهُ	على وَجَلٍ مِنْ لَوْمِهِ لِي يَظْهَرُ
أَيْطَلِبُ مِنِّي اللَّهُ يَوْمَ عِبَادَةٍ	على رَغَمٍ أَنِي لَمْ أَعْدْ قَطُّ أَبْصِرُ
سَأَلْتُ وَلَكِنْ قَامَ صَبْرِي مُجَاوِباً	وعني يَصُدُّ الْوَسْوَساتِ يُفَسِّرُ
إِلَهُكَ لَا يَحْتَاجُ مِنْكَ هَدْيَةً	وَلَا عَمَلاً، فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ تَوَجُّرُ
وَأَفْضَلُ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ قَامَ عُمْرُهُ	بطاعته كالعبدِ مولاَهُ يَشْكُرُ
لَهُ خَضَعَتْ كُلُّ الْمُلُوكِ وَلَمْ تَزَلْ	أُلُوفٌ لَهُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَجَارُ
بِلا كَلَلٍ طَوْعاً لَهُ يَعْبُدُونَهُ	وَكُلٌّ لِأَمْرِ اللَّهِ مِنْهُمْ يُيَادِرُ
وَقَوْمٌ بَعْجَزٍ يَرْقُبُونَ وَكُلُّهُمْ	يقومُ بصمتٍ طائِعاً وَهُوَ يَصْبِرُ

فهذا كما يقول الله ﷻ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِيهِ فَصَبِرْ عَوَّضْتُهُ مِنْهَا الْجَنَّةَ» (رواه البخاري).



تعرفنا في الفصل الثالث على الحب باعتبار هبة النفس. هل الحب عندئذ هو الذي يسعدك من خلال العطاء؟ هل يسعدك الحب؟ الجواب: نعم ولا. يمكن أن يشقيك الحب تمامًا - كما يعرف كل محب - عندما يكون المحبوب غائبًا، أو على الأقل، يدرك بأنه غائب. إذن ليس الحب هو الذي يسعدك - ولا المحبوب (إن كان ما تحبه غير الله) - بل هبة النفس في الحب هو الذي يسعدك. وحتى عندئذ، يجب أن تكون الهبة الغير مجذوزة. وربها لهذا السبب لا يذكر القرآن بصورة محددة السعادة في هذا العالم.

في الجنة، هذا ممكن بالطبع، إذا أحب المرء الله ﷻ. وهذا يُسمى «بالرضوان» في اللغة العربية. ومعناه أن تكون للأبد مع محبوبك. إنه أسمى نوع من السعادة. وفيه يقدم المرء نفسه كليًا وهذا ليس عطاءً مجذوزًا أبدًا - والمحبوب ليس غائبًا ولا يدرك بأنه غائب. إنه حالة من الكينونة. وقد وصف سيدنا محمد ﷺ هذا كالتالي:

«إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا! وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ! وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (أخرجه البخاري ومسلم).



لم يجب أن نعرف هذا كله؟

يقول إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية المشهور الصادر في الرابع من تموز سنة ١٧٧٦ م، الذي كتب مسودته توماس جيفرسون:

«ونحن نعتقد أنّ هذه الحقائق بدهية: أنّ جميع البشر خلقوا متساوين، وأنّهم وُهبوا من خالقهم حقوقاً لا يمكن أن تؤخذ منهم، وأنّ من بين هذه الحقوق حقّ الحياة والحرية والسعي إلى السعادة».

ومنذ ذلك الحين - وقبل ذلك بلا شك - افترض الناس بمن فيهم المسلمون أنّه من الطبيعي تماماً، إن لم يكن من المنصوح به، أن يناضلوا لكي يكونوا سعداء. يقضي كثير من الناس أعمارهم وهم يطاردون السعادة. لكن كثيراً من الناس يبحثون عنها في الأماكن الخطأ.

ومن الضروري كما ذكرنا سابقاً أن نعرف ما هي السعادة بالضبط لكي نجدها. وتكون التعاريف الدقيقة بهذا المعنى كالحرائط: تساعدك في العثور على طريقك. وإلاّ فيمكنك ببساطة أن تهدر حياتك في البحث عنها - وتبقى دائماً غير سعيد! قلة من الناس في الواقع يستطيعون تعريف السعادة، ورغم ذلك كان الناس يفكّرون بها ويناقشونها جدّياً على الأقل منذ حوار أفلاطون حول السعادة، (جورجيس). في ذلك الحوار، تقول شخصية سُقراط:

«أقول إنّ الشّخص الرّائع والصّالح، رجلاً كان أو امرأة، سعيد، لكن الرجل المرء الظّالم والشّرير شقيّ (٤٧٠ e). . . من الواضح أنّ السّعادة ليست مسألة التخلّص من الشرّ؛ إنّها بالأحرى مسألة عدم التّعاقّد معه للبدء به (٤٧٨ c). . . أسعد إنسان، عندئذٍ، هو الإنسان

الذي تكون نفسه خالية من الشرّ . . . وثانيًا، أفترض، أنّه الإنسان الذي يتخلّص منه (d-e ٤٧٨) . . . والإنسان الصّالح يعمل بصورة جيّدة ومثيرة للإعجاب أيّ فعل يقوم به، وأنّ الإنسان الذي يعمل جيّدًا مبارك وسعيد، بينما الإنسان الفاسد، الذي يكون عمله سيئًا، شقيّ . . . من الواضح أنّه يجب على المرء الذي يريد أن يكون سعيدًا أن يسعى إلى التّحكّم بالنّفس، ويمارسه. ويجب على كلّ واحد منّا أن يفرّ من نقص الانضباط بأسرع ما يمكنه بقدر ما تحمله قدماه (a-d ٥٠٧)».

هذا لا يناقض فكرة السّعادة كالعطاء الغير مجذوذ فحسب. لكنه ليس تعريفًا دقيقًا للسّعادة. وفي الوقت الذي يكون فيه من المهمّ أن نعرف أنّ العواطف والممتلكات الماديّة والأفعال الأنانيّة لا تؤدّي إلى السّعادة أبدًا، من الأهميّة حتّى ربّما أكثر أن نعرف أنّ السّعادة هي بسيطة، إن لم تكن سهلة. إنّها مجرد مسألة أن نعطي بقدر ما نستطيع بطريقة ما لشخص ما أو شيء ما، ما يحتاج له. وهذا لا يعني المال والأشياء الماديّة فقط، بل الوقت والطّاقة والمعرفة والعناية - إنّهُ باختصار، نفْسُكَ وأنّاكَ. كلّ امرء يستطيع فعل ذلك، إلى حدّ ما. وكما كتبت إيلين إس. هوبر (١٨٤٨ م) في قصيدتها «الجمال والواجب»:

حَلُمْتُ خِلَالَ مَنَامِي بَأَنَّ	الحياةَ جَمالًا بغيرِ تَعَبٍ
وَلَمَّا صَحَوْتُ رَأَيْتُ الحَيَاةَ	غَدَتْ وَاجِبَاتٍ فَرَادَ العَجَبِ
فَهَلْ كَانَ حُلْمِي خَيَالًا بَعِيدًا	وَوَثِقْتُ بِرُؤْيَاهُ لَكِنْ كَذَبٌ؟
فَكَدَحًا فَوَادِي الحَزِينِ الشَّجِيِّ	فَإِنَّ الشُّجَاعَ يَنَالُ الطَّلَبِ
وَيَبْدُو المَنَامُ لِعَيْنِكَ نُورًا	كَضَوْءِ النُّهَارِ وَحَقًّا غَلَبِ

إِنَّ الْأَمَّهَاتِ وَالْمُرَبِّينَ وَعُمَالَ الْإِغَاثَةِ وَالْمُدَرِّسِينَ يَعْرِفُونَ هَذَا جَيِّدًا. وَغَالِبًا
 مَا يَكُونُونَ مِنْ بَيْنِ أَسْعَدِ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ يُجَاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْعَطَاءِ. وَيَحْسُ
 الْمَحْبُونَ بِهَذَا أَيْضًا. يَقْدَمُ الْحُبُّ لَهُمْ وَمُضَاتٍ مِنَ السَّعَادَةِ. وَالْأَشْخَاصُ
 الْمَوْظَفُونَ بِعَمَلٍ مَا يَشْعُرُونَ فِيهِ بِأَنَّهُمْ مُنْتَجُونَ يَقْدَرُونَ هَذَا أَيْضًا. فَهُمْ يَعْطُونَ
 لِأَنْفُسِهِمْ فِي عَمَلِهِمْ، مِمَّا يَقُودُ إِلَى الرِّضَا فِي الْعَمَلِ، الَّذِي هُوَ أَيْضًا وَمِضُّ
 مِنَ السَّعَادَةِ. أَيُّ شَخْصٍ فِي الْوَاقِعِ يُعْطِي نَفْسَهُ أَوْ وَقْتَهُ بِطَرِيقِ الْإِثَارِ سَوْفَ
 يَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ. إِنَّ كَوْنَ الْإِنْسَانِ قَادِرًا عَلَى تَعْرِيفِ السَّعَادَةِ بِالنَّسْبَةِ لَهُ يُمْكِنُ
 أَنْ يَسَاعِدَهُ عَلَى تَعْزِيزِ مَا عَرَفَهُ وَفَعَلَهُ. وَلَا يَوْجَدُ بِالتَّأَكِيدِ مَبْدَأَ أَجْمَلَ وَلَا أَفْضَلَ
 خَلَقًا مِنْ هَذَا: أَنَّ السَّعَادَةَ، كَالْحُبِّ، هِيَ الْعَطَاءُ، وَلَيْسَ الْأَخْذُ. يَقُولُ اللَّهُ ﷻ
 فِي الْقُرْآنِ مَلَمَحًا إِلَى أَوْصَافِ الْأَبْرَارِ:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ
 لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩١﴾ [الإنسان، ٧٦: ٨-٩].



الملحق الأول

خيمة الإسلام الكبيرة



أنواع المسلمين المختلفة

ذكرنا في كل أنحاء الكتاب وفي الفصل العاشر خاصّة أقسام عقائد المسلمين المختلفة الموجودة اليوم. وسنعيدها هنا من أجل التّوضيح مع بعض السّياق التّاريخيّ والنّسب المتناسقة. انقسم المسلمون سياسيّاً على الخلافة وهي القيادة السّياسيّة العليا في الإسلام.

بعد ثلاثين عاماً أو ما يقاربها من وفاة النّبِيّ ﷺ (سنة ١١هـ / ٦٣٢م)، نشأت هناك إضافة إلى الخلافات السّياسيّة فوارق فكرية جوهرية. واجتمع المسلمون في فرعين كبيرين من الدّين: السّنة: الذين اتّخذوا النّبِيّ ﷺ قدوة لهم؛ وجعلوا التشريع من القرآن والسّنة، والشّيعية: الذين يتبعون آل بيت النّبِيّ ﷺ وجعلوا التشريع من القرآن والسّنة وأقوال أئمة آل البيت الإثني عشر. وهناك أيضاً الجماعات الثّائرة الصّغيرة التي سلكت طريق العُنف: وهم الحوارج، وتعني حرفياً الذين خرجوا عن دين الجماعة.



ثم طوّرت هذه الجماعات مذاهبها المتّمة من أجل فهم التّباين الظاهر في مصدرين أوليين للفقّه والفكر الإسلاميّ هما القرآن والحديث، إضافة إلى التّعامل مع التّغييرات في ظروف المسلمين مع مرور الزّمن. فقد طوّر أهل السّنة كثيرًا من المذاهب المختلفة، ولكن أربعة مذاهب منها هي الحنفيّ والمالكيّ والشافعيّ والحنبليّ - ترجع تاريخيًا إلى نحو سنة ٨٠٠ ميلاديّة - بدأت تسود العالم السّنيّ. ولكن كان هناك عند مسلمي الأندلس أيضًا المذهب الظّاهريّ، ورغم عدم وجود ظاهريّين أحياء اليوم، إلّا أنّ بعض العلّماء ما زالوا يعتبرون منهج المذهب مشروعًا. وطوّر الشيعة مذهبين رئيسين: «الجعفريّون» - المدعوّون «الاثني عشرية»، باسم عدد من أئمّتهم المعصومين؛ و«الزّيديّون» - المدعوّون «الخمسة»، كذلك باسم عدد من أئمّتهم المعظّمين. والنّوع الثّالث من الشيعة («الإسماعيليّون» - المدعوّون «السّبعيّة» - باسم عدد من أئمّتهم المعصومين)، له فرعان: (أ) البهرة الداودية الذين يتبعون المذهب الجعفريّ (مع بعض الأحكام الشّافعيّة وبعض الأحكام المأخوذة من القاضي النّعمان) بإدارة قائده سلطان البهّرة؛ و (ب) «النّزاريّون» الذين يتبعون إمامهم الحّيّ «آغا خان»، من دون فقّه إسلامي معين. يوجد أيضًا فرع أصغر منفصل من الإسلام «الإباضيّون» الذين طوّروا مذهبهم الذي يُشبه السّنيّة. وهذه كلّها معًا تولّف ما يُدعى بمذاهب الإسلام الثّمانية، وهي: الحنفيّ والمالكيّ والشافعيّ والحنبليّ والظّاهريّ والزّيديّ والجعفريّ والإباضيّ. ولم يَعدْ هناك وجود للخوارج عن الإسلام الأصليّين أساسًا بعد ثورتهم الأخيرة في سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م، إلّا أنّ بعض الجماعة المكفّرة إلى يومنا هذا يُشبهونهم في أعمالهم ومنهجهم. ومنذ أن عرف دين الإسلام بأركان الخمسة

الممارسة، هو الدين القويم (طريقة صحيحة للممارسة) قبل تعريف الإيمان بالتفكير الصحيح (طريقة التفكير الصحيحة). ولكن له ستة مبادئ أساسية (أو حتى سبعة في حالة الشيعة الجعفرية) للإيمان. وهذا يفسر لماذا - رغم شهادتي الإيمان - تأتي الشريعة قبل العقيدة: يأتي الإسلام (ترويض النفس) قبل الإيمان كما ناقشنا في الفصل الثاني.

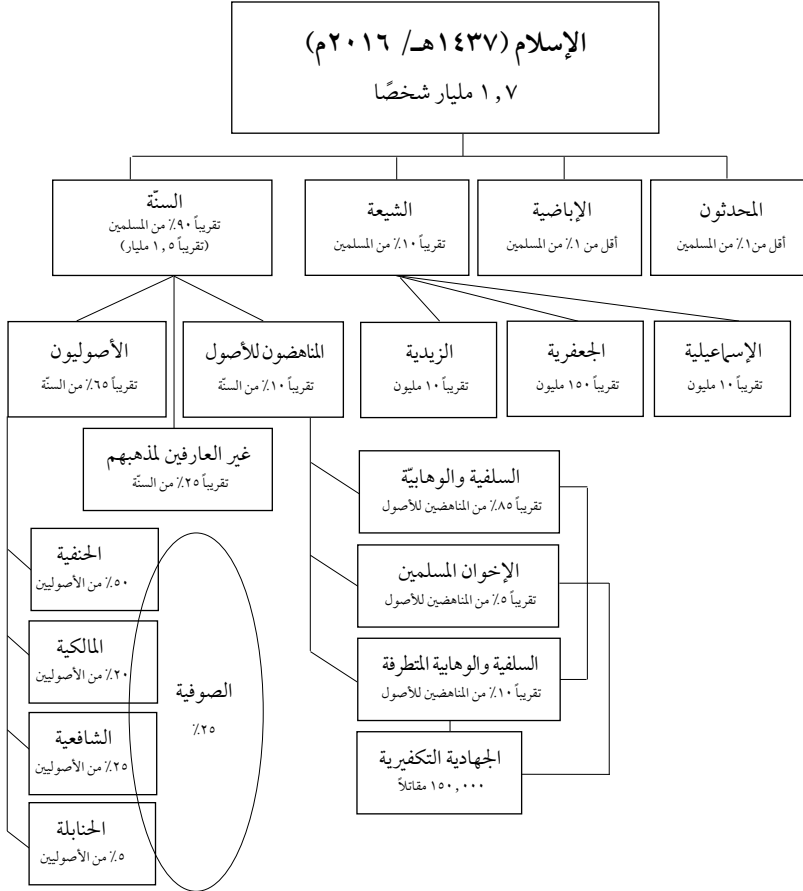
وضمن مذاهب الإسلام الثمانية - التي هي مذاهب شرعية وليست بالضرورة مذاهب فكرية - توجد مذاهب مختلفة في العقيدة والتوحيد والفكر. ومعظم السنيين الذين يتبعون المذاهب الأربعة يتبعون في العقيدة والتوحيد المذهب الأشعري والماتريدي، (ولكن بعض الحنابلة اتبعوا مذهباً عقائدياً مختلفاً عنهما سمّوه «مذهب أهل الحديث»). وفي الواقع، إن عقيدة الأشعري والماتريدي تختلف في الأساس في بضعة مسائل فقط معظمها مراوغات لغوية قابلة للجدل بحيث أنّ هذين المذهبين في التوحيد هما في الأصل تراث واحد.

يجب أن نذكر بعد ذلك الصوفية التي هي جزء متمم للإسلام السني، والتي هدفها تطهير النفس من خلال الفضائل والصلاة والصيام ودعاء الله المستمر. الصوفية هي التصوف في الإسلام السني، وربما كان ربع السنة يتمون إلى إحدى الطرق الصوفية بشكل أو بآخر، وبدرجات مختلفة من الشدة والالتزام. ويوجد عند الشيعة نوع من التصوف لكنه أقل تنظيماً يدعى «العرفان». وكان هناك كثير من الممارسات المثيرة للشك تتعلق بالصوفية، ولكن التصوف السني التقليدي، كما مثلته كتابات أبي حامد الغزالي كان فوق النقد إلى وقت نشوء الحركات المعاصرة المناهضة للأصول.



وخلال القرن العشرين، اهتزّت فلسفة التشريع الإسلاميّ البالغة من العمر أكثر من ألف سنة بسبب تحدّيين إيديولوجيّين رئيسيين: (أ) الحداثة و(ب) الحركة المناهضة للأصول. تعتقد الحداثة أساساً أنّ الإسلام ينبغي تحديثه لكي يتوافق مع القيم الغربيّة، وليس الحضارة والثقافة الإسلاميّتين فقط، بل العقيدة والفقهاء الإسلاميّين أيضاً. بينما تدعو الحركة المناهضة للأصول (السّلفيّة/ الوهابيّة والإخوان المسلمون أساساً) إلى العودة إلى القرآن والحديث فقط من دون اعتبار لمنهج التشريع المتكامل. مع رفض منهج المذاهب وعلم الكلام والتصوّف أيضاً.

ويؤلّف المسلمون السّنة اليوم (عام ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م) تسعين بالمائة تقريباً من كلّ المسلمين، ويبلغ الشّيعّة زهاء عشرة بالمائة. أمّا الخوارج الذين كانوا معروفين عبر التّاريخ فلم يعدّ لهم وجود. والإباضيّون أقلّ من واحد بالمائة من كلّ المسلمين. يعيش الإباضيّون في عُمان وشرق إفريقيا وأجزاء من الصّحارى الجنوبيّة. ويتركّز الجعفريّون في إيران والعراق (مع بعض الأقليّات في الخليج العربيّ وسوريا ولبنان وباكستان والهند وأفغانستان)؛ والشّيعّة الزّيديّون يتركّزون في شمال اليمن، أما السّنة فموجودون في كلّ مكان آخر. ومن سكّان العالم البالغ عددهم ٤, ٧ بليون نسمة، هناك ٢٣٪ على الأقلّ، أي نحو ٧, ١ بليون نسمة - هم مسلمون، والإسلام هو ثاني أكبر دين في العالم، وهو يتّشر بسرعة كبيرة. يظهر المخطّط التالي هذا ويبيّنه:



لكي نعطي لرسالة عمّان شرعيةً دينيةً أكثر، وبناءً على تعليقات جلالة الملك عبد الله الثاني ابن الحسين أرسلت ثلاثة أسئلة إلى أربع وعشرين من أشهر العلماء في العالم من جميع المذاهب والمدارس الفكرية الأسئلة التالية:

- ١- من هو المسلم.
- ٢- هل يجوز التكفير.
- ٣- من له الحقّ بالإفتاء.

وفي تموز ٢٠٠٥م، بناءً على الفتاوى التي أرسلت ردًا على أسئلتي هذه من العلماء ومنهم شيخ الأزهر في حينه وآية الله السيستاني والشيخ يوسف القرضاوي، وتحت رعاية جلالة الملك المعظم عبد الله الثاني ابن الحسين دعيت إلى مؤتمر دولي كبير حضره أكثر من مائتي عالم بارز من خمسين دولة، وفي عَمَّان هؤلاء العلماء أصدروا فتوى بالإجماع أحكامًا عن قضايا جوهرية.

رسالة عَمَّان

(٢٠٠٤ - ٢٠٠٦م)

أصدر العلماء بالإجماع أحكامًا على ثلاث قضايا جوهرية (أصبحت تُعرف بمحاور رسالة عمان الثلاثة)

١- ميزوا بصورة خاصة مشروعية كل المذاهب الثمانية (المذاهب الفقهية) في الإسلام السني والشيعي والإباضي للعقيدة الإسلامية التقليدية (الأشعرية) والتصوف الإسلامي (الصوفية) والفكر السلفي الحقيقي؛ وتوصلوا إلى تعريف دقيق للمسلم.

٢- وقد حَرَّموا بناءً على هذا التعريف التكفير وإعلان ردة أحد من المسلمين.

٣- وبناءً على المذاهب التي حدّدها فقد وضعوا شروطاً مسبقة ذاتية وموضوعية لإصدار الفتاوى، لتفصح بذلك مظاهر الجهل والأحكام غير الشرعية التي تصدر باسم الإسلام.

يقول النصّ الفعليّ المتفق عليه التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وعلى آل بيته الطَّاهرين الأكرمين.

١- إنَّ كُلَّ مَنْ يَتَّبِعُ أَحَدَ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ (الْحَنَفِيِّ،
وَالْمَالِكِيِّ، وَالشَّافِعِيِّ، وَالْحَنَبَلِيِّ)، وَالْمَذَهَبِ الْجَعْفَرِيِّ، وَالْمَذَهَبِ الزَيْدِيِّ،
وَالْمَذَهَبِ الْإِبَاضِيِّ، وَالْمَذَهَبِ الظَّاهِرِيِّ، فَهُوَ مُسْلِمٌ، وَلَا يَجُوزُ تَكْفِيرُهُ. وَيُحْرَمُ
دُمُهُ وَعَرَضُهُ وَمَالُهُ. وَأَيْضًا، وَوَفَقًا لِمَا جَاءَ فِي فِتْوَى فَضِيلَةِ شَيْخِ الْأَزْهَرِ، لَا
يَجُوزُ تَكْفِيرُ أَصْحَابِ الْعَقِيدَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ، وَمَنْ يَمَارِسُ التَّصَوُّفَ الْحَقِيقِيَّ.
وكذلك لا يجوز تكفير أصحاب الفكر السَّلَفِيِّ الصَّحِيحِ.

كما لا يجوز تكفير أيِّ فِتْنَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَوْمِنُ بِاللَّهِ ﷻ
وبرسوله ﷺ وأركان الإيمان، وتحترم أركان الإسلام، ولا تنكر معلومًا من
الدِّينِ بالضرورة.

٢- إنَّ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا بَيْنَهَا مِنَ الْاِخْتِلَافِ.
فأصحاب المذاهب الثمانية مُتَّفِقُونَ عَلَى الْمَبَادِئِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ. فَكُلُّهُمْ
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﷻ، وَاحِدًا أَحَدًا، وَبِأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَلَامُ اللَّهِ الْمَنْزُولِ، وَبِسَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَبِيًّا وَرَسُولًا لِلْبَشَرِيَّةِ كَافَّةً. وَكُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى
أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةِ: الشَّهَادَتَيْنِ، وَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ،
وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَعَلَى أَرْكَانِ الْإِيمَانِ: الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَرَسُولِهِ،
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. وَاِخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَتْبَاعِ الْمَذَاهِبِ هُوَ
اِخْتِلَافٌ فِي الْفُرُوعِ وَلَيْسَ فِي الْأُصُولِ، وَهُوَ رَحْمَةٌ. وَقَدِيمًا قِيلَ: إِنَّ اِخْتِلَافَ
الْعُلَمَاءِ فِي الرَّأْيِ أَمْرٌ حَسَنٌ.



٣- إن الاعتراف بالمذاهب في الإسلام يعني الالتزام بمنهجية معينة في الفتاوى: فلا يجوز لأحد أن يتصدى للإفتاء دون مؤهلات شخصية معينة يحددها كل مذهب، ولا يجوز الإفتاء دون التقيّد بمنهجية المذاهب، ولا يجوز لأحد أن يدّعي الاجتهاد ويستحدث مذهباً جديداً أو يقدم فتاوى مرفوضة تخرج المسلمين عن قواعد الشريعة وثوابتها وما استقرّ من مذاهبها.



وقد تبنت القيادات السياسية والدينية في العالم الإسلامي هذه النقاط الثلاث بالإجماع في قمة منظمة المؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة في كانون الأول (ديسمبر) عام ٢٠٠٥م. وعلى مدى عام من تموز (يوليو) ٢٠٠٥م إلى تموز (يوليو) ٢٠٠٦م، تمّ تبني النقاط الثلاث بالإجماع أيضاً في ستة مؤتمرات إسلامية عالمية أخرى، كان آخرها مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي العالمي (ومقره جدة)، الذي عُقد في عمان في تموز (يوليو) ٢٠٠٦م. فكان محصلة ذلك أن أكثر من خمسمائة عالم إسلامي بارز من مختلف أرجاء العالم وافقوا بالإجماع على رسالة عمان ومحاورها الثلاثة.

إن هذا يعدّ بمثابة إجماع تاريخي وديني وسياسي من أمة الإسلام في أيامنا هذه، ويعتبر تثبيتاً لصورة الإسلام الحنيف. وأهمية هذا هي: (١) أن هذه هي المرة الأولى منذ أكثر من ألف عام تتوصل فيها الأمة رسمياً وبصورة محدّدة إلى مثل هذا الاعتراف المتبادل بين المذاهب المتعدّدة على تعريف من هو المسلم. (٢) وأنّ مثل هذا الاعتراف ملزم فقهياً للمسلمين لأنّ الرسول ﷺ قال: «إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ» (أخرجه ابن ماجه). ومنذ ذلك الحين، كتب الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ محمد سيّد طنطاوي مقدمة

حول المحاور الثلاث لكتابي «إجماع المسلمين على احترام مذاهب الدين»
وصفها فيه بالتّالي:

«أفضل مصدر لكلّ الذين يريدون أن يسلكوا الصّراط المستقيم
بأقوالهم وأفعالهم في حياتهم الرّوحية والدينية».

فائدة محاور رسالة عمّان الثلاثة

يقول الله ﷻ في القرآن:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا﴾ [النساء، ٤: ١١٤].

إنّ المنفعة العظيمة لمحاور رسالة عمّان الثلاثة هي أنّها تشكّل - للمرّة
الأولى في تاريخ الإسلام - إجماعاً عالمياً ودينياً وسياسياً متفقاً عليه من جانب
المسلمين حول تعريف ماهية المسلم. وبعبارة أخرى، لا تقدّم تعريفاً واضحاً
للإسلام فقط، بل تضع التعدّدية والتنوّع داخل إطار إسلاميّ رسميٍّ. وعلاوة
على ذلك، هي تحمي الإسلام من التّشويه والتّلاعب من خلال الفتاوى
الصادرة الجاهلة التي يصدرها أشخاص غير مؤهلين ولا مبادئ عندهم.
وفي عصر كهذا كلّ شخص فيه حاصل على البكالوريوس أو الماجستير في
الشريعة يصدر فتاوى، وعند وجود آلاف من القنوات التلفزيونية وملايين
من المواقع الالكترونية وعشرات الملايين من المنشورات في التويتر عن
الإسلام والفقهاء الإسلاميين، توضّح المحاور الثلاثة من له في الحقيقة الحقّ



في إصدار الفتاوى. لذلك فهي تعمل كمصدر فريد لحماية الإسلام وجميع المسلمين على حدّ سواء. وتقدّم محاور رسالة عمان الثلاثة نصّاً تاريخياً موثقاً عن ماهيّة الأحكام التي يمكن الاعتماد عليها ويمكن تدريسها في المناهج التعليميّة في كلّ أنحاء العالم. والفضل والحمد لله وحده.



الملحق الثاني

أسئلة ثلاثة لكل مسلم



بعد كل ما قيل في هذا الكتاب، أطلب باحترام من كل قارئ مسلم أن يفكر بصدق في نفسه ولأجل نفسه بالأسئلة الثلاثة، أو سلسلة الأسئلة الثلاثة التالية:

السؤال الأول: هل تعتقد أن وجهة نظرك في العقيدة الإسلامية هي الحقيقة المطلقة؟ هل تعتقد أن كل امرئ يدعو نفسه مسلماً يؤمن بأركان الإسلام الخمسة (شهادتي الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى مكة) وأركان الإيمان الستة (الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)، ويصلي مستقبلاً قبلتنا كما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَيْحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ» (أخرجه البخاري ومسلم)، وقال ﷺ: «لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» (أخرجه مالك وأحمد)، إلا أنه لا يؤمن بالعقيدة التي تعتقدها أنت في أمور تعتبرها مهمة («كيد الله» على سبيل المثال) هو على ضلال؟ وهل تعتقد بالتالي أنه إذا استمر بالتمسك بوجهات النظر هذه فهو ليس مؤمناً



حقيقاً ومصيره إلى جهنم في النهاية؟ وهل من واجبك الشخصي بالتالي أن تصحح له خطأه؟ وإذا جادلك أو رفض تغيير وجهة نظره، هل من واجبك أن تصحح له اعتقاده طالما أن هذا ممكن حتى لو قاتلته؟ هل تعتقد أنه عندئذ ليس مسلماً في الواقع؟ هل الشيعة ليسوا مسلمين؟ أو هل أهل السنة والجماعة غير مسلمين، إذا كنت شيعياً؟ هل تعتقد أن الأشعريين غير مسلمين؟ هل تعتقد أن المتصوفين غير مسلمين؟ هل تعتقد أن الفلاسفة كابن رشد وابن طفيل ليسوا مسلمين؟ هل تجد أنه من المستحيل أن تعيش وتترك الآخرين يعيشون مع أناس كهؤلاء؟ هل يستحيل عليك أن تحب أناساً كهؤلاء؟

السؤال الثاني: إذا كنت مواطناً في دولة أغلب سكانها مسلمون وليست كل قوانين الدولة مبنية على الشريعة كما تفهمها أنت، هل تعتقد أنه من واجبك أن تحمل السلاح إن كان هذا ضرورياً من أجل تطبيق الشريعة كما تراها أنت (عوضاً عن العمل بصبر وبصورة سلمية من داخل نظام الدولة للتعبير عن آرائك ومحاولة تغيير الأمور ضمن النظام الموجود)؟ هل تعتقد أن الدولة هي دولة كافرة إذا لم تكن تطبق أحكام الشريعة كما تفهمها أنت فقط (حتى ولو كانت تطبق بعض أحكام الشريعة، ولا تنكر الشريعة كما هي)؟ هل الأشخاص الذين يعملون لحكومات كهذه هم أنفسهم كافرون؟ هل الأشخاص الذين يتصلون بحكومات كهذه أو يستفيدون منها أيضاً كافرون؟ هل يمكن أن يهاجم حينئذ هؤلاء الأشخاص ويقتلوا بصورة مشروعة؟ هل يمكن أن تفعل هذا بعائلاتهم؟

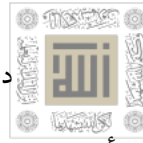
السؤال الثالث: إذا كنت مواطناً في دولة أغلب سكانها غير مسلمين وتمتع بالعدل وحرية الدين الكاملة وحقوق غير المسلمين ذاتها، هل تعتبر

نفسك فوق قوانين الدولة لأنك مسلم وملتزم بأحكام الله ﷻ وليس بأحكام البشر؟ هل تكون عندئذٍ غير ملزم دينياً أو حتى أخلاقياً باحتمالها، حتى ولو كانت لا تؤثر على عبادتك لله ﷻ؟ إذا كانت دولتك في حالة حرب مع بعض المسلمين في أي مكان آخر في العالم، هل تكون حينئذٍ بهذه الحقيقة في حالة حرب مع دولتك؟ هل يجب عليك - أو هل تستطيع شرعاً - حمل السلاح عندئذٍ ضد أهداف أو أشخاص في دولتك؟ هل يصبح حينئذٍ كل إخوانك المواطنين أهدافاً مشروعة؟ هل يستحيل أن تعيش وتترك الآخرين يعيشون مع غير المسلمين بسلام وصداقة واحترام متبادل طالما أن بعض المسلمين في العالم يتصارعون معهم أو يحتجون ضد سياستهم الخارجية؟



إن هذه أسئلة مهمّة وتحتاج إلى إجابات صادقة أمام الله وأمام الآخرين. إنها اختبار دقيق لفهمك لدينك ولقلبك.

إذا كانت أيّ إجابة من إجاباتك على أيّ سؤال من هذه الأسئلة (نعم)، فأنت حينئذٍ على حافة التطرّف من الحركة المناهضة للأصول الجديدة تاريخياً. وستكون في صراع للأبد مع ٩٠ بالمائة على الأقلّ من المسلمين الآخرين، إضافة إلى ٧٥ بالمائة من العالم الذي هو غير مسلم. أنت تعتقد أن الله يأمرك أن تفرض فهمك للإسلام والشريعة على كل المسلمين الآخرين، وأن المسلمين عموماً ينبغي أن يفرضوا دينهم وشريعتهم على العالم أجمع. وإن كان الجهاد الهجومي الدائم ضرورياً لهذا، فليكن: هذا ما تعتقد أنه يرضي الله ﷻ. وتعتقد أن جانبك في النهاية سوف يفوز لأن الله سيعينك. وأنت تعتقد أنك جزء من نخبة المسلمين، المخلصين وحدهم لله، حتى ولو كانوا أقلية ضئيلة من



النّاحية التّاريخيّة. وأنت تعتقد أنّ أفضل شيء ممكن - ولذلك حياتك ذاتها وخلقك - هو أن تحارب وتقتل وتقتل في سبيل الله، ولكن أنت نفسك تقرّر، وليس دولتك أو إجماع علماء الدّين، شروط هذه الحرب.

وإذا كانت إجاباتك كلّها على كلّ هذه الأسئلة (لا)، فأنت تتبنّى وجهات النّظر كغيرك من ٩٩ بالمائة من كلّ المسلمين إلى ١٩٠٠ م. وأنت ما تزال داخل الأغليبيّة المطلقة اليوم. أنت جزء من الإسلام التّقليديّ الحقيقيّ والمجتمع الإسلاميّ الذي انتشر وبنى حضارات من أعظم وأجمل الحضارات المتقدّمة ثقافة وعلمًا وأخلاقيًا وتعدديّة في تاريخ البشريّة والتي جذبت وأعجبت ملايين كثيرة من النّفوس. يمكنك - وتعتقد أنّه يجب عليك - أن تعيش وترك الآخرين يعيشون مع كلّ البشّر على الأرض، ويمكنك (ويجب عليك أحيانًا) أن تدافع عن نفسك، ولكن لا أن تبدأ بمهاجمة أيّ شخص. أنت تؤمن أنّ الله خلق النّاس من محبّته لهم ورحمته بهم، من أجل أن يعرفوه ويحبّوه من خلال العبادة، ولفعل ذلك يجب عليهم أيضًا أن يخشوه. أنت لا تؤمن بطاعة سيّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ فقط، بل تؤمن أيضًا بجمال أخلاقه وشخصيّته ﷺ. أنت تعتقد أنّ أحكام دينك ليست عشوائيّة أو متقلّبة أو نزويّة أو استبداديّة، بل هي للمصلحة العامّة. أنت تؤمن بالاحترام المتبادل والتّسامح والانسجام والتعدديّة، وبمبدأ: عِشْ ودع الآخر يعيش بين النّاس. أنت تعتقد أنّ عليك واجبًا أخلاقيًا يملّي عليك الإحسان إلى كلّ شخص وكلّ شيء على الأرض ومعاملتهم معاملة طيّبة. أنت تفكّر وتدعو أن تكون مصيبًا في معتقداتك، لكنك تُقرّ بأنك يمكن أن تكون مخطئًا. أنت تستنكر نفسك وتحاول الامتناع عن الحكم على الآخرين إلّا إذا كان عملك هو فعل هذا. أنت تؤمن بالشّورى

والإجماع. أنت من حيث المبدأ إنسان سَلِمَ النَّاسُ من لسانه ويده. وقال رسول الله ﷺ: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده» (رواه البخاري ومسلم).

وإذا كانت أي إجابة من إجاباتك على هذه الأسئلة هي «لا أدري»، فاقراً الكتاب مرة أخرى.

فإن الله تعالى يقول للمسلمين في القرآن:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [البقرة، ٢: ١٤٣].



